مِنْ هُدَى الْقُرْآنِ

٩

تفسير سور

الشعراء إلى العنكبوت

تأليف

آية الله السيد محمد تقي المدرسي



سورة شعراء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

فضل السورة :

عن النبي محمد صلى الله عليه وآله قال :

«**أعطيت [ال] سورة التي يذكر فيها البقرة من الـذكر الاول ، وأعطيت طه وطواسـين من ألـواح موسى ، وأعطيت فواتح القرآن ، وخواتيم السـورة التي يذكر فيها البقـرة من تحت العـرش ، وأعطيت المفصّلة نافلة**»

(مجمع البيان ـ ص (183) / ج 7)

وروى ابو بصير عن أبي عبد الله (ع) قال :

«**من قرأ الطواسين الثلاث ليلة الجمعة كان من أوليـاء الله ، وفي جـواره وكنفه ، وأسـكنه الله في جنة عـدن ، وسط الجنة مع النبـيين والمرسـلين والوصـيين الراشـدين ، ولم يصـبه في الـدنيا بـؤس أبـدا ، وأعطي في الآخـرة من الأجر الجنة حـتى يرضى ، وفـوق رضـاه ، وزوّجه الله مائة حـوراء من الحور العين**»

(المصدر)

الإطار العام

الاسم : سـميت هـذه السـورة باسم «الشـعراء» لان السـورة تتحـدث عن رسـالات الله في مواجهة ثقافـات البشر.

تدور آيات هذه السورة حول رسـالات الله ، على نهج سورة الفرقان ولكن بتفصيل أكثر ، وضمن بيـان الصـراع بينها وبين الكيانات الجاهلية ذات الثقافة المنحرفة.

وبعد أن تـذكرنا فاتحة السـورة بالله ، تـبين حـرص النـبي على هداية النـاس ، وتؤكد ان الله لا يكـرههم على الهدى ، وتـبين من صـفات الـرب اسـمي العـزة والرحمة اللذين يتجليان في الطبيعة وفي الصراع.

ويقص علينا السـياق أنبـاء النبـيين ، وتنتهي كـلّ قصة بـذكر هـذين الاسـمين الكـريمين ، وتؤكد بـأن في تلك القصص آيات ، ولكن أغلب الناس لا يؤمنون.

وتنتهي السـورة بـأمر الرسـول بالتوكل على العزيز الرحيم.

في قصة موسى يأمر الله موسى بحمل رسـالته الى فرعون ، ويبيّن موسى عقبـات الطريق ، والله ينفيها بكلّا .. ويعـده بالنصر ، ويحـاور موسى فرعـون برسـالة الله ، ويجادل فرعون بما يملك من قوة.

ويبدو ان لكل رسالة محتوى اجتماعي ، هدفه إصـلاح نـوع الفسـاد المنتشر في المجتمع ، فقد حـارب موسى العنصرية والاستكبار ، وإبـراهيم الوثنية والرجعية ، ونـوح الطبقية والعناد ، وهود العبثية والتجبر ، وصالح الإسـراف والفسـاد ، ولـوط الشـذوذ والإباحية ، وشـعيب الغش والتطفيف.

ولعل هذه المفاسد متدرجة في خطورتها حسب هـذا الترتيب الذي نجده في سورة الشعراء.

ويجـري الحـوار بين النـبي وقومه ، ويعاندونه ، ويهددونه ، وفي لحظة الحسم ينصر الله النبي والمؤمنين ، ويأخذ الكـافرين بعـذاب شـديد ، ولعل العـذاب يتناسب ونوع الفساد.

ويبـدأ النـبي بالتـذكرة بالله ، والأمر بتقـواه وطاعته ، وينذرهم عذاب ربهم.

ويؤكد الأنبيـاء على أنهم لا يطـالبونهم بـأجر ، وانما أجرهم على الله ، وبالتالي لا يدعون للنـاس مجـالا للشك في صـدق رسـالاتهم ، وبالإضـافة الى ذلك فـإن هنـاك شـواهد على صـدق رسـالات الله ، فهي تـدعو الى الله ، وتتعـالى على حـواجز الـدم ، والأرض ، والـزمن ، وهي تتحـدى بقـوة الله كل القـوى مما يسـتحيل على البشر ، وتحارب الفساد الأكبر في المجتمع.

ويد الغيب تمتد لنصرتهم في الوقت المناسب بـإهلاك أعدائهم ، هذا بالإضافة الى قوة الحجة ، وسلامة السـلوك ، والمعاجز الظاهرة كالعصى ، والناقة ، وخمود

النيران ، وانفلاق البحر ، والطوفان.

وفي خاتمة السـورة يـبين ربنا : أن القـرآن أنزله رب العالمين ، نزل به الـروح الأمين ، وبلغة عربية مبينة ، وقد شهد على صدقه علماء بني إسرائيل.

وبعد أن بيّن الفـــروق الأساســـية بين وحي الحق ، وأفكــار الشــيطان ، وأمــره الرســول بإنــذار عشــيرته ، والعطف على المؤمنين ، والـبراءة من العصـاة ، والتوكل على العزيز الــرحيم ، بعدئذ يــبين القــرآن مــيزات وحي الشيطان الذي يتـنزل على كل أفّـاك أثيم ، وان الشـعراء (أدعيـــاء العلم والـــدين) انما يتّبعهم الغـــاوون ، وينعتهم بالاسترسال واللامسؤولية ، وتختم السورة بأن الظـالمين سيعلمون اي منقلب ينقلبون.

سورة الشعراء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(طسم (1) تِلْـكَ آيــاتُ الْكِتــابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ
باخِعٌ نَفْسَـكَ أَلاَّ يَكُونُـوا مُـؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَـأْ نُنَـزِّلْ
عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنـاقُهُمْ لَها خاضِـعِينَ
(4) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كـانُوا
عَنْـهُ مُعْرِضِـينَ (5) فَقَـدْ كَـذَّبُوا فَسَـيَأْتِيهِمْ أَنْبـؤُا ما
كـانُوا بِــهِ يَسْــتَهْزِؤُنَ (6) أَوَلَمْ يَـرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ
أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَـرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيَـةً
وَما كانَ أَكْثَـرُهُمْ مُـؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُـوَ الْعَزِيـزُ
الــرَّحِيمُ (9) وَإِذْ نـــادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَــوْمَ
الظَّالِمِينَ (10) قَـوْمَ فِرْعَـوْنَ أَلا يَتَّقُـونَ (11) قـالَ
رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَـذِّبُونِ (12) وَيَضِـيقُ صَـدْرِي وَلا
يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ

---

3 [باخع] : أي مهلك أو قاتل نفسك أسفا.

5 [محدث] : جديد.

إِلى هارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ
(14) قــالَ كَلاَّ فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْــتَمِعُونَ (
15)

إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ

هدى من الآيات :

كلما ازدادت معرفتك بالله كلما توسعت آفـاق إيمانك ، وعـرفت المزيد من اسـرار السـموات والأرض ، وهكـذا كان :

«**أول الدين معرفته**» [1]

وتفتتح هذه السورة التي تحدثنا عن رسالات الله كما سـورة الفرقـان بالتـذكرة بالله لأنها السـبيل الى معرفة الوحي.

ويمضي السـياق في بيـان حـرص النـبيّ على هداية قومه ، حـتى ليكـاد يهلك نفسه ، ويسـلّيه بـأن حكمة الله قضت بـأن يكـون النـاس أحـرارا ، وإلا فهو قـادر على ان يـــنزل عليهم آية يكـــرههم بها على الايمـــان ، ولكنهم لن يهربوا من جزاء أعمالهم.

---

(1) نهج البلاغة / خ (1) / ص (39) / صبحي الصالح.

ويعود السياق يـذكرنا بربنا الـذي أنبت الأرض من كل زوج بهيج ، لعلنا نهتـدي الى ربنا بهـذه الآية ، ونعـرف أنه العزيز الـرحيم ، ونعـرف بالتـالي أنه أرسل بعزته ورحمته أنبياء ، فقد أمر موسى (ع) بأن يـأتي الظـالمين من قـوم فرعـــون ، ويحـــذرهم عـــذاب الله ، ولكن موسى خشي تكذيبهم ، وخاف أن يضيق صدره ، ولا ينطلق لسـانه بكل معاني الرسالة ، وطلب أن يكون أخوه هارون معه رسولا ، وطلب العون من الله لمواجهة خطر الموت على يـدهم ، لأنّه قتل منهم شخصا ، وجاءه النداء : كلا .. وعاد الـربّ وأمره بالذهاب إليهم ، وطمأنهم بأنه سيكون معهم.

بينات من الآيات :

[1] (**طسم**)

تحـدّثنا عن الحـروف المقطعة في القـرآن أكـثر من مرة ، وقلنا : انها اشارة الى القرآن ، وأنها رمـوز بين الله وأوليائه.

وجاء في الحديث المأثور عن الصادق (عليه السلام):

«**وأما طسم : فمعنـاه : انا الطـالب ، السـميع ، المبدئ ، المعيد**» (2)

[2] (**تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ**)

تأتي هذه الجملة في الأغلب بعد الحـروف المقطعة ، مما يدعونا الى الاعتقاد بأن المعنى الظاهر لتلك الحروف هو الاشارة إلى القرآن وحروفه.

[3] لأن إخلاص الرسول شديد لرسـالة ربه ، وحرصه على مصلحة الناس

---

(2) نور الثقلين / ج (4) / ص (44).

عظيم ، فهو يكـــاد يهلك نفسه حينما يـــرى كفر النـــاس بالرسالة.

(**لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**)

[4] ولكن هل الرسول قادر على ما يريده من ايمـان النـــاس بالرســـالة من دون اذن الله ، كلا .. لأن الله منح النـاس حرية القـرار ، ولم يـرد إكـراههم على الإيمـان ، ودليل ذلك أنه لا يـــــنزل عليهم عــــــذابا غليظا يجعلهم خاضعين للحق.

(**إِنْ نَشَـأْ نُنَـزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّـماءِ آيَـةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ**)

ولكن ربنا شاء ان يؤمنـوا بكامل حـريتهم ، ولو أنـزل عليهم عـذابا فـآمنوا خشـية وقوعه عليهم لم يكن ينفعهم إيمانهم ، انما ينفع الإيمان إذا جاء بلا إكراه.

روي عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ انه قـال وهو يتحدث عن الأنبياء وحكمة الابتلاء :

«**ولو أراد الله ـــ جل ثنـــاؤه ـــ حين بعثهم ، ان يفتح لهم كنوز الذهبان ، ومعادن البلدان ، ومغارس الجنـان ، وان يحشر طـير السـماء ، ووحش الأرض معهم لفعل ، ولو فعل لسقط البلاء ، وبطل الجـزاء ، واضـــمحل الابتلاء ، ولما وجب للقـــائلين أجـــور المبتلين ، ولا لحق المؤمنين ثـواب المحسـنين ، ولا لزمت الأسماء أهاليها على معنى مـبين ، ولـذلك لو أنـــزل الله من الســـماء آية فظلت أعنـــاقهم لها خاضـــعين ، ولو فعل لســـقط البلـــوى عن النـــاس أجمعين**» (3)

[5] رسالات الله تستثير العقل ، وتستنهض الفطرة ، وتطهر القلب من رواسب

---

(3) المصدر / ص (46).

التقليد ، وتفك القيـــــود والأغلال الـــــتي تمنع الانطلاق ، وأولئك الــذين يكفــرون بها إنما يعرضــون عن ذكــرهم ، ويتشبثون بالتقاليد البالية.

(**وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ**)

وقد سـمى الله القـرآن ذكـرا لأنه يقـوم بـدور المنبّه للإنسـان ، كمن يمشي في ظلام وهو يملك مصـباحا غفل عنه ، فيأتيه من يذكره بمصباحه.

(**مُحْدَثٍ**)

بالرغم من ان رسالات الله واحدة عبر القـرون حـتى ان الجـاهلين قـالوا : إن هي الا أسـاطير الأولين ، إلّا أنّ الذكر القرآني محدث ، وجديد. لماذا؟

أولا : لان القـــرآن جـــاء بعد هجعة من البشر ، حيث فترت علاقاتها بالقيم ، فكان ذكرا جديدا.

ثانيا : لأن رســـالات الله تـــدعو الى العقل ، والعقل إمام الإنسان الذي يقوده إلى الأمام أبـدا ، والـذي يفك به البشر قيود التقليد ، وأغلال الجمود ، لذلك كانت تصـطدم الرسالات الإلهية بالتقاليد حيث كانوا يعرضون عنها.

(**إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ**)

[6] أنهم تشـــبثوا بالماضي واســـتهزءوا بالمحـــدث ، فكــذبوا بالرســالة ، وســيأتيهم خبرها : أنها اســتعلوا على باطلهم ، وسيندمون ولكن عبثا.

(**فَقَــدْ كَــذَّبُوا فَسَــيَأْتِيهِمْ أَنْبــؤُا ما كــانُوا بِــهِ يَسْتَهْزِؤُنَ**)

[7] ولو نظـــروا في آيـــات الله ، وعرفـــوا ربهم من خلالها ، وآمنوا بأسمائه الحسنى ،

لما كذبوا.

لو كانت نظـرة الإنسـان الى الخلق من حوله سـليمة لعرف صـدق رسـالات الله ، لأنها تعبـير صـادق عن سـنن الله في خلقه.

(**أَوَلَمْ يَــرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُــلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**)

سر في الأرض ، واطلع على حقل ناضر ، وقف عند شـجرة مثمـرة ، مـاذا تـرى؟ أنها جد متكاملة ، تضـرب بجذورها في الأرض ، وتقوم على سـاقها الغليظة ، وتنشر فروعها من حولها بتناسق ، وتتحـدى الريـاح والأنـواء والآفات بعشرات من الأنظمة التي أودعها الرب فيها ، ثم مـاذا تـرى؟ تـرى ان هـذه الشـجرة ــ بـالرغم من تكاملها الكريم ـ بحاجة الى زوج تتكامل بـه. كيف جعلها الله غنية وكريمة من كل جـانب ، وكيف جعلها محتاجة الى غيرها في هذا الجانب بالذات.

أو ليس في ذلك دليل يهدينا الى ربنا ، والى أنه رحيم ، وآية رحمته تكاملية نعمه وشـموليتها ، وأنه عزيز وآية عزته انه جعل كل شـيء في الخلق محتاجا الى غـيره ، فخلق من كل شـيء زوجين اثـنين ليهـدينا إلى أنّه وحـده العزيز الغني سبحانه.

[8] (**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً**)

أنها تكفي الإنسـان حجة لو بحث عن الحجة ، ودليلا لو انه اهتدى بدليل ، ولكن أكثر الناس لا يبحثون عن حجة ، ولا يريدون دليلا.

(**وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ**)

فلا تنتظر إيمان النـاس حـتى تـؤمن معهم ، إنما بـادر الى التسليم للحق.

[9] ان عــزة الله تتجلى في ســنة (الزوجيــة) بينما تتجلى رحمته في الكرامة التي أسبغها على الأشياء ، فلم يمنع عن النـاس حاجـاتهم ، بل أودع في الأرض ما ينفعهم ، وكما خلق حاجة في هــذا الطــرف خلقها في الطــرف الثاني ، فلم يزل هذا بذاك ، وذاك بهذا.

(**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**)

والنفس المؤمنة تعيش التــوازن بين اســمي العــزة والرحمـــة. أي بين الخـــوف من غضب الله ، والرجـــاء لرحمته ، وأكـثر النـاس تغـرّهم رحمة الله ، فيغفلـون عن عزته ، يقول الدعاء :

(**الهي اذهلـني عن اقامة شـكرك تتـابع طولك ، وأعجزني عن إحصاء ثنائك فيض فضلك ، وأشـغلني عن ذكر محامدك ترادف عوائدك**) [4]

وجاء في دعاء آخر :

(**ويحملني ويجرأني على معصيتك حلمك عــني ، ويـدعوني الى قلة الحيـاء سـترك علي ، ويسـرعني الى التـوثب على محارمك معرفـتي بسـعة رحمتك ، وعظيم عفوك**) [5]

أنما المؤمنون يقاومون هذه الغفلة بذكر نعمـاء الله ، والتنبه الى احتمالات ذهابها.

[10] ومن آيات رحمة الله أنه بعث أنبياءه الى عباده الظــــالمين ، أو ليس الظلم ينغص النعم ، ويســـــتدرج العذاب؟ فمن أولى من الرب الرحيم بأن يبعث الى

(4) مناجاة الشاكرين / الصحيفة السجادية ص (122).
(5) من دعاء أبي حمزة الثمالي ، مفاتيح الجنان ص (187).

عباده من ينذرهم عاقبة ظلمهم.

(**وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)

النداء الواضح الذي لا يرتاب فيه السـامع ، ولا يختلط بحديث النفس أو وسـاوس القلب ، يهبط هـذا النـداء الى موسى من الرب الـذي لا تـزال نعمه تتـواتر على البشر ، طورا فطورا ، ومرحلة بعد أخرى.

[11] والهــــــدف واضح هو مقاومة الظلم ، ليس لمصلحة المظلومين فقط ، وإنما أيضا لمصلحة الظـالمين الذين سيهلكهم ظلمهم.

لقد عـــــاش موسى ردحا من عمـــــره بين أولئك الظالمين ، دون ان يحمّل رسالة. أنها ـ إذا ـ رسـالة الله ، وليست من عبقرية موسى.

(**قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ**)

هؤلاء الذين يظلمون النـاس لمـاذا لا يخشـون عـذاب ربهم ويتقّونه؟!

[12] وأول ما يخشــاه الإنســان قبل ان يشــرع في العمل هو الفشل ، فكثــير من النـــاس يـــتركون العمل لمجرد الخشـية من فشـلهم فيه ، ولأن القـرآن يعـالج كل أمراض البشر ، ولأن هذه السـورة المباركة برنـامج عمل متكامل للدعاة الى الله ، فإنها تفصّل القول في العقبـات التي لا بد من تذليلها عبر قصة موسى وهارون. كيف دعيا الى الرب.

وتهـدينا هـذه الآية أولا : الى ضـرورة مقاومة خـوف الفشل ، الذي يعتري حتى الأنبياء قبل اعتصامهم بالله.

(**قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ**)

وتـأتي في نهاية السـياق معالجة هـذا الخـوف بقوله سبحانه : «كلا».

[13] ثانيا : حمل رسـالات الله إلى الظـالمين لا يتمّ بســهولة ، انما يســبب المزيد من الصــعاب لحاملها ، وبالرغم من أنّ قدرات الفـرد تتسع لكل تلك الصـعاب إلا أنّ المقيـاس هو مـدى قـدرة اسـتيعاب صـدره لمشـاكل العمل.

(**وَيَضِـيقُ صَـدْرِي**) ثالثا : لعل شـدّة تكـذيب النـاس تكون سببا في انعقاد اللسان ، أو ان هذا التكـذيب بحاجة الى لسان طلق بليغ.

وقالوا : كان موسى ـ عليه السـلام ـ ألثغا ، حيث لم يكن قادرا على الإفصاح عن بعض الحروف.

وإذا كان الأمر هكذا فان الدرس الذي يعطيه السـياق هنا هو : ان هنـاك معوقـات جسـمية قد تقف حـاجزا دون القيام برسالة الله ، وعلينا تحدّيها.

(**وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ**)

ان حمل رسالات الله بحاجة الى إعلام قـويّ ، وكـان موسى ـ عليه السـلام ـ يعلم مـدى صـعوبة الأمر ، فبـادر الى طلب المساعد في هذا الحقل بالذات.

[14] رابعا : ليس بالضرورة ان يكون حامل الرسـالة مقبــولا حسب الأعــراف والقــوانين المرعية في البلد ، وليست تلك عقبة كـأداء لا يمكن تجاوزهـا. إذا استصـغرك القوم ، أو استهزءوا بك ، أو حـتى إذا اعتـبروك مجرما فلا تأبه ، وامض في طريقك ،

فهـذا النـبي العظيم موسى بن عمـران ـ عليه السـلام ـ يعتبر من الناحية القانونية خارجا على الشـرعية ، وهو من عنصر مستضـعف ومسـتعبد ، وقد قتل منهم واحـدا ، مما يعرضه للقصـاص حسب قـوانينهم ، ومع ذلك يـؤمر بحمل الرسالة.

لقد قال موسى وهو يعبر عن هذه العقبة :

(**وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ**)

[15] تلك كانت العقبات اجتمعت أمـام موسـى. دعنا نستمع إلى الرب وهو ينسفها بكلمته نسفا :

(**قالَ كَلَّا**)

أنها ليست عقبـات في الواقع بقـدر ما هي مخـاوف في النفس ، لا تلبث ان تتلاشى بالتوكل على الله.

أو لست أنت وأخـوك تحملان رسـالات الله فلما ذا الخوف إذا؟!

(**فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ**)

ذلك هو ضمان الانتصار.

فمن كان مع الله كـان الله معه ، ومن كـان الله معه فلا قوة في الأرض تقف أمامه.

وأنت أيها الداعية الكـريم تجـرد عن ذاتك في الله ، وهب لله نفسك وما تملك تجد الله نعم المـولى ونعم النصير.

فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (16) أَنْ
أَرْسِـلْ مَعَنا بَنِي إِسْـرائِيلَ (17) قـالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا
وَلِيــداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُــرِكَ سِــنِينَ (18) وَفَعَلْتَ
فَعْلَتَــكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكــافِرِينَ (19) قــالَ
فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّـالِّينَ (20) فَفَـرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا
خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ
(21) وَتِلْكَ نِعْمَـةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْـرائِيلَ
(22) قالَ فِرْعَـوْنُ وَما رَبُّ الْعـالَمِينَ (23) قـالَ رَبُّ
السَّـــماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُــوقِنِينَ (
24) قـالَ لِمَنْ حَوْلَـهُ أَلا تَسْـتَمِعُونَ (25) قـالَ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ آبــائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قــالَ إِنَّ رَسُــولَكُمُ الَّذِي
أُرْسِــلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُــونٌ (27) قـــالَ رَبُّ الْمَشْـــرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قالَ

---

22 [عبّـدت] : عبـده وأعبـده إذا اتخـذه عبد وعبـدت أي جعلتهم عبيـدا مضطهدين.

لَئِنِ اتَّخَـذْتَ إِلهَـاً غَيْـرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْـجُونِينَ (29) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قالَ فَـأْتِ بِـهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقى عَصـاهُ فَـإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33)

---

33 [ونزع يده] : أي أخرجها.

إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ

هدى من الآيات :

يحــاور موسى برســالات ربه فرعــون وقومه ، بينما يجادل فرعون معتمـدا على منطق القـوة. يـذهب موسى وأخوه الى فرعون بـأمر ربهما قـائلين : (**إِنَّا رَسُـولُ رَبِّ الْعـالَمِينَ**) ، مطـالبين بتحرير بـني إسـرائيل ، ويجـادل فرعون بحجج ثلاث :

أولا : انه ولي نعمته ، فكيف يخرج من طاعته؟!

ثانيا : انه قد قتل منهم وهو كـــافر (به أو بقـــوانين بلاده) فيرده موسى بأنه لم يكن كـافرا ، بل كـانت تنقصه هداية الرب ورسالاته ، وإنما هرب منهم خشية بطشـهم ، أما الآن فـالأمر مختلف ، لقد وهب الله له حكما فأصـبح قائـدا وعلى فرعـون طاعته ، وجعله مرسلا وعلى النـاس طاعته ، وأضـاف : ان اسـتعباده لبـني إسـرائيل (وكـان منهم) ليس منّة يمنّها عليه ، وبالتـالي ليس من الصـحيح ان يمّن عليه بأنه لبث عنده من عمره سنين.

ثالثا : يجادل فرعون حين يسـأل عن رب العـالمين ــ ولعله ســـأله عن ماهيته ــــ فيجيبه موسى : بأنه «**رَبُّ السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ**» ولكنه اسـتهزأ قـائلا لمن حوله : «**أَلا تَسْـتَمِعُونَ**» اشـارة الى عـدم اقتناعه ، فأضـاف موسى : بـان الله «**رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبـائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**» فعـاد فرعون يسخر منه قائلا : انه «لمجنون» ، واستمر موسى قائلا : ان الله «**رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**».

فلما رأى قـوة منطق موسى توسل بمنطق القـوة وقـال : «**لَئِنِ اتَّخَـذْتَ إِلهَـاً غَيْـرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**».

وتحـدى موسى إرهابه قـائلا : اني أملك برهانا ، فلما طالبه به ألقى عصاه فـاذا هي ثعبـان مـبين ، واخـرج يـده من جيبه فاذا هي بيضاء للناظرين.

تلك هي رسالات الله ، وذلك منطقهم الحق.

بينات من الآيات :

منطق الرسل :

[16] لقد استجاب الرب لطلب موسى بـأن يجعل له وزيرا من أهله ، فبعثه هو وأخاه هارون الى فرعون.

(**فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

لقد كانت رسالة واحدة ، يحملها اثنان ، ولعله ـ لذلك ـ جاء التعبير هكـذا : «انا رسـول» ولم يـأت «انا رسـولا» ولقد كان الرسول هو موسى ، بينما كان هـارون وزيـره ، والوحي كان يهبط عليه دونه ، وكان ينوب عنه عند غيابه.

وجاء في حـديث طويل مـأثور عن الإمـام البـاقر (ع) عن كيفية ذهـاب موسى الى بـاب قصر فرعـون ، تقـول الرواية :

« ... **فغدا الى فرعون ، فوالله لكأني أنظر اليه طويل البـاع ، ذو شـعر أدم ، عليه جبة من صـوف ، عصـاه في كفه ، مربـوط حقـوه بشـريط ، نعله من جلد حمـار شـراكها من ليف ، فقيل لفرعـون : ان على البـاب فـتى يـزعم انه رسـول رب العـالمين ، فقال فرعون لصاحب الأسد : خل سلاسلها ، وكـان إذا غضب على رجل خلّاها فقطعته ، فخلاها ، فقرع موسى الباب الأول ـ وكانت تسعة أبواب ـ فلما قرع الباب الأول انفتحت له الأبـواب التسـعة ، فلما دخل جعلن يبصصن تحت رجليه كـأنهن جـراء ، فقـال فرعون لجلسائه : رأيتم مثل هذا قط**؟!» [1]

[17] لرسـالات الله شـواهد منها عليها ، ومن شـواهدها تحـدي أكـبر فسـاد في المجتمع ، دون خلاف أو مداهنة ، لقد تحـدى نـوح ــ عليه السـلام ــ الطبقية ، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ الوثنية ، ومثله فعل النـبي محمد ــ صـلى الله عليه وآله ــ ولـوط تحـدى الفسـاد الخلقي ، بينما واجه شعيب الفساد الاقتصادي وهكذا ، أما موسى ــ عليه السـلام ــ فقد حـارب العنصـرية ، وطـالب فرعـون بتحرير بني إسرائيل الذين كان قد استضعفهم قائلا :

(**أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ**)

منطق الطغاة :

[18] يبدو من السياق ان فرعون ـ شأنه شـأن سـائر الطغاة ـ حاول ان ينسب نعم الله الى نفسه ، ويمنّ على موسى بأنه قد أنعم عليه بالتربية والتغذية.

---

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (48).

(**قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً**)

فلما ذا خـــرجت على أسس المجتمع وقيمه ما دمت تربيت في احضـانه ، وتغـذيت من أفكـاره وثقافته ، ولعلنا نسـتوحي من هـذه الآية مـدى اعتمـاد الطغـاة على عامل التربية في إفساد ضمير النـاس ، وبـالرغم من أهميّة هـذا العامل إلا أنّ رسـالات الله تتحـداه ، فـاذا بموسى الـذي كـان ينسب الى فرعـون عند النـاس حينا يخـرج عليه ، ويهدم سلطانه ، وإذا بمؤمن آل فرعـون يعيش في بلاطه ثم يثور عليه ، وإذا بزوجته آسية بنت مزاحم تكون نصيرة الحق ، وتضـحي بنفسـها في سـبيل الله ، وإذا بأصـحاب الكهف وهم وزراء طـاغوت دهـرهم (دقيـانوس) ينقلبـون الى ربهم.

ثم قال فرعون :

(**وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ**)

وهكـذا يقـول الطغـاة : الم نعبّد الشـوارع ، ونبـني المستشـفيات. الم يتخـرج من جامعاتنا كـذا طـالب ، ألم يتقدم اقتصاد بلادنا؟!

انهم يخطئـون مـرتين : أولا : حين يجعلـون التقـدم المادي دليلا على سلامة نهجهم ، بينما التقـدم المـادي قد يكون وليد عوامل أخرى كانبعاث آبـار البـترول ، أو جـودة موسم الزراعة ، أو حتى جهود الناس من علماء ، ومـدراء ، وتجـار ، وعمـال ، وفلاحين. النـاس يعملـون والحكـام يفتخرون ، وانما فخر الحكام بإشاعة العـدل ، والمحافظة على الحرية ، وتوفير فرص الكمال الروحي.

ثانيا : حين يعطـون النـاس أرقاما خاطئة ، ويـذكرون فقط الجوانب المشرقة ، ويسكتون عن الجوانب السـلبية ، ويرهبون من يتحدث عنها حتى لا تبدو فضائحهم.

لقد منّ فرعون على موسى انه سـمح له بـأن يعيش مستضـعفا في بلاده ، وكـأن القاعـدة كـانت تقضي بقتل موسى ، أما ان يبقي حيّا يتنفس فانها نعمة يمن بها عليه.

[19] وذكــره بقتل القبطي ، واعتبرها جريمة كبــيرة تجعل صاحبه في مصاف الكفار ، فقال :

(**وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ**)

ان حكــام الجــور يضــعون قــوانين يحكمــون بها سيطرتهم على الناس ، ثم يعتبرون الخــروج عليها جريمة بل كفرا ــ ولعل فرعـون أراد ان يعيّر موسى بأنه لم يكن يومئذ يـؤمن بالله ــ ويفتشـون في ملف الثـائرين ليجـدوا فيها ثغـرة يـدخلون منها عليهم ، وينسـون ان بقـاءهم في السلطة رغما على الناس أكبر جريمة ، وأعظم كفرا.

وقد يكـون القـانون سـليما ، ولكن لا يحق للسـلطان الجائر ان يكون منفذا لـه. إذ ان سـلطته ليست شـرعية ، وحين ينفي الثائر شـرعية السـلطة لا ينبغي الحـديث عما يترتب عليها من الانظمة السائدة.

ولكن الطغـاة يريـدون تضـليل النـاس بـذلك ، وعلى الرساليين ألّا يأبهوا بذلك أبدا ، ويعيدوا إلى أذهـان النـاس أصل وجود النظام ، والذي لو لم تثبت شـرعيته لا يحق له تنفيذ القانون ، بل تنفيذ القانون بذاته يصبح جريمة تسجل عليه وعلى أركانه.

[20] لقد قتل موسى القبطي الــذي أراد ســخرة الإســرائيلي ، ولعله كــان يقتله ان لم يقبل بســخرته ، وبذلك كـان الرجل يسـتحق القتل بحكم القيم الحق الـتي فطر الله الناس عليها ، وجـاءت بها شـرائع اللـه. أو ليس من قتل دون نفسه أو عرضه أو ما له فهو شهيد؟

ويبـدو ان موسى تجـاوز الحـديث عن مقتل القبطي ، وركز على أمرين :

الاول : انه لم يكن كـافرا بالله يومئذ (ان كـان مـراد فرعون بقوله : «من الكافرين». الكفر بالرب) وانما كـان ضـالّا بسـبب فقدانه للرسـالة الـتي هي الهـدى والضـياء ، فقال

(**قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**)

ان الضلال ليس كالجحود والكفر انما هو عدم الهـدى وهو ليس عيبا ، وقد قـال ربنا عن نبيه الأكـرم محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ : «**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى**» ولم يكن الرسول ضالا ، انما لم يكن يحمل رسالة فهداه الله إليها.

وكل أنبياء الله بشر يفقدون العلم والحكم قبل النبوة والرسـالة ، وإنما يتميّـزون على سـائر النـاس بـالوحي ، وليس بعنصر إلهي يتـداخل فيهم ، والقـرآن حافل ببيـان هـذه الحقيقة تصـريحا أو بالاشـارة ، وقد قـال سـبحانه : (**قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَ**).

ودليل صـدقهم أساسا هو ان الـوحي يحـدث تحـولا فجائيا فيهم ، فبينما الرسـول يلبث في قومه دهـرا ، لا يـدعوهم الى شـيء ، تـراه يبعث إليهم برسـالة متكاملة ، من المستحيل ان يكون قد ابتـدعها من نفسه بين عشـية وضحاها.

وهذا بخلاف العلماء والباحثين الذين تتكامل أفكـارهم وبحوثهم يوما بعد يوم.

ولعل في قوله : «إذا» دلالة على أنّه رد التهمة أساسا ، وأجابه : انه إذا سلّم بوجود نقص عنده ـ جـدلا ـ فانما هو الضلال ، وعدم الوحي.

وجاء في حديث مأثور عن الامـام الرضا عليه السـلام :

«انه أراد أنه ضل عن الطريق بوقوعه الى مدينة من مدائن فرعون» [2]

[21] وقد فــرّ موسى عن مــدائن فرعــون خشــية عنصريته ، التي كان يـدين ــ بموجبها ــ أيّ واحد من بـني إسرائيل بمجرد الصراع بينه وبين الأقباط.

(**فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ**)

والآية تــدل على أن الفــرار من الظلم فضــيلة ، أولا أقل لا بأس به.

ونســتوحي أيضا من الآية : ان التمــرد على قــوانين الانظمة غير الشرعية عمل شريف.

ولأن موسى نصر الحق ، ورفض الخضـــوع لنظـــام الطاغوت ، ولأنه توكل على الله ، وهـاجر عن بلاد الكفر ، فان الله أكرمه بالنبوة والرسالة.

(**فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً**)

ان حرف الفاء يوحي إلينا بأن هناك علاقة بين فــراره من ظلم فرعــون وبين الحكم الــذي وهبه الله له ، ولعل الحكم هو العلم ، ولعله النبوة التي تسبق الرسالة.

(**وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ**)

ونستوحي من كلمة «جعلني» ان صاحب الرسالة هو الحـــاكم والخليفة في الأرض ، وان هـــذا المنصب بحاجة الى قرار وجعل وتنصيب.

---

(2) المصدر / ص (48 ، 49).

[22] وردّ موسى جـدل فرعـون إذ قـال : (**أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً**) : بان استعبادك لبني إسـرائيل ، وذبح أبنـائهم ، واسـتحياء نسـائهم ، واسـتخدام بعضـهم لتربية البعض الآخر كرها ، أعيب عليك ذلك ، واين تلك من هـــذه ، تمنّ علي التربية ولكني أعيّرك بما فعلت ببني إسرائيل.

من الـذي ربي موسـى؟ أليس بنو إسـرائيل أنفسـهم بأمر من فرعـون ، ثم ما الـذي الجأ أم موسى لتجعله في التـــابوت ، ثم تقذفه في اليم ، وما الـــذي أعطى الحق لفرعون ان يقتل هذا ويعفو عن ذلك ، ويسرق أموال هذا ويضعها عند ذاك. أو ليس كل ذلك جريمة لا بد ان يعـاقب عليها فرعـــون ، ذو الظلم والطغيـــان ، وليس ثمّة نعمة يشكر عليها.

(**وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ**)

ونستوحي من الآية فكرتين :

أ ـ ان فراعنة كل عصر يجب ان يلقمـوا حجـرا كلما زعموا ان عليهم منّة على الناس ، ذلك أن جميع تقلبـاتهم في البلاد وتصرفاتهم في شؤون العباد جـرائم لأنها ليست بإذن الله ، ولا بتخويل من الناس.

ب ـ انّ موسى تجـاوز نفسه وتحـدث عن كل بـني إسرائيل ، كما تجاوز الحديث عن قضية محدودة الى بيان جـذرها ، وهكـذا ينبغي ألّا يقع الفـرد الرسـالي في الخطأ بالحديث عن ذات القضية الـتي يتحـدث عنها الظـالمون ، ولا بالحديث عن أنفسهم ، بل يتحدثوا عن جذور المشكلة حسب نهجهم الاعلامي المســتقل ، وعن آلام الشـــعب جميعا. انهم ـ وحدهم ـ ممثلوا الناس ، وعليهم أن ينطقـوا باسمهم وعن مشاعرهم.

[23] لم يجد فرعـون نفعا توسـله بالقضـايا الجانبية ، لأن موسى جـاء بحجة أبلغ ، فاضـطر الى الجـدل حـول جـوهر الرسـالة ، ويبـدو من سـياق الحـديث انه اتخذ نهج الاستهزاء وسيلة لجدله.

(**قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ**)

لم يقل : ومن رب العالمين لجهله المفرط ، وأسلوبه السـاخر ، ولعله سـأل عن طبيعة الله ، فلم يسترسل موسى معه ، لأن معرفة الذات مستحيلة.

[24] انما مضى موسى قدما في دعوته الى الله عبر آياته ، وبيّن أن جهلهم بالله آت من نقص في أنفسهم.

(**قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ**)

وهكـذا ينبغي ان يسـتدل المـؤمن على ربه بآياته وأفعاله ، مقتديا بنهج أنبياء الله.

جـاء في حـديث مـأثور عن أمـير المؤمـنين ـ عليه السلام ـ ، في صفة الله سبحانه :

«**الذي سئلت الأنبياء عنه ، فلم تصفه بحـدّ ، ولا ببعض ، بل وصفته بفعاله ، ودلت عليه بآياته**» [3]

وحين قال موسى : «**إِنْ كُنْتُمْ مُـوقِنِينَ**» أشـار إلى أنّ الإيمـان بالله لن يبلغه من لا يجهد ولا يبحث عن علم ويقين ، وأن جهلهم بـربهم ناشئ من نقص فيهم ، حيث سدّوا منافذ قلوبهم عن نور المعرفة.

[25] كـان الحـديث بين موسى وفرعـون ، فـأدار فرعون رحاه باتجاه الملأ من

(3) المصدر / ص (49).

حوله ، لمـــاذا؟ هل خشي ان ينقلبـــوا عليه ، أم أراد ان يتظاهروا على موسى حين شعر بضعف حجته؟

(**قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ**)

اسأله عن شيء فيجيبني عن شيء آخــر. وفي حديثه نبرة استهزاء ، وكأنه يقول :

ان حجته ضعيفة.

[26] لم يأبه موسى ـــ عليه الســلام ـــ بســخريته ، والـتزم نهجه القـويم في التـذكرة بـالرب ، وتحطيم أغلال الجهل عن أنفسهم.

(**قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**)

فهو الله الذي كان على آبائكم التسليم له ، فلا يجــوز التسليم لآبائكم إن كانوا كافرين به ، ولا ينبغي تقديسهم ، والجمود على أفكارهم البالية ، وإذا شمل آبـاءكم العـذاب بسـبب كفـرهم بـالرب فـان ذات العـذاب سـينزل عليكم لذات السبب ، هكذا فكّ غلّ عبودية الآباء عنهم ، وحذرهم من مغبّة الجحود.

[27] وخـــرج فرعـــون عن طـــوره ، وأتهم موسى بـالجنون ، مسـتخدما أسـلوبه السـاخر ، إذ وجه الخطـاب الى الملأ كي يثير فيهم العصبية.

(**قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ**)

هكـــذا بلغت الرعونة عند فرعـــون ذروتها حيث أتهم رسول رب العالمين بالجنون.

[28] أما موسى الـــذي لم يـــرهب إعلام فرعـــون التضـــليلي ، ولم يغضب لنفسه ، فقد مضى في ســـبيله يدعو الى ربه بالتذكرة تلو التذكرة.

(**قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**)

وهــذا بذاته دليل صــدق دعوته انه لم يقم لنفسه بل لربه ، ولا يــدعو الى ذاته بل الى الله ، وهكــذا ينبغي ان يتحمل الرساليون كل أذى ، ولا ينهاروا بسبب تهم الطغاة انّى كانت كبيرة.

[29] وانقلب فرعــون خائبا من أســلوبه التضــليلي الساخر ، فاتجه الى التهديد :

(**قــالَ لَئِنِ اتَّخَــذْتَ إِلهَــاً غَيْــرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**)

ان الطغاة يرهبهم قـوة المنطق فيلجئـون الى منطق القوة ، ويخافون على عروشهم فلا يتورعون عن ارتكــاب اية جريمة.

ولكن موسى ـ عليه السـلام ـ وكل الـدعاة الى الله ســوف يبلغــون مســتوى عاليا من النصر عند ما يعــرّون النظـام من لبـاس التضـليل ، ويلجئونه الى اسـتخدام آخر وسيلة لهم للسيطرة الا وهي الإرهاب.

[30] وكما الجبل الأشــمّ صــمد موسى امــام تهديد فرعون ، كما صـمد آنفا أمـام سـخريته وتهمه ، فلم يـزل يواجهه بسلاح المنطق.

(**قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ**)

فيه دلالة ملموسة ، تكـــون أقـــرب إلى عقـــولكم المغلقة الجامدة.

[31] وهنا أيضا خسر فرعون الموقف ، إذ طالبه فعلا بذلك الشيء المبين ، ماضيا في غــروره وظنه أنّ الباطل لا يغلب.

(**قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**)

[32] استجاب النبي موسى للتحدي فورا.

(**فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ**)

كــان ثعبانا ضــخما ، قد فغر فــاه ، كــاد يلتهم قصر فرعون بما فيه.

[33] (**وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ**)

وبهت فرعون ، وفلحت حجة موسى ، وظهر برهانه.

قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هـذا لَسـاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيـدُ أَنْ
يُخْـرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِـكُمْ بِسِـحْرِهِ فَما ذا تَـأْمُرُونَ (35)
قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِـرِينَ (36)
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ
يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُـونَ (
39) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّـحَرَةَ إِنْ كـانُوا هُمُ الْغـالِبِينَ (40)
فَلَمَّا جاءَ السَّـحَرَةُ قـالُوا لِفِرْعَـوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْـراً إِنْ
كُنَّا نَحْنُ الْغـــالِبِينَ (41) قـــالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ
الْمُقَـــرَّبِينَ (42) قـــالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُـــوا ما أَنْتُمْ
مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِـيَّهُمْ وَقـالُوا بِعِـزَّةِ
فِرْعَـــوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغـــالِبُونَ (44) فَـــأَلْقى مُوسى
عَصـــاهُ فَـــإِذا هِيَ تَلْقَـــفُ ما يَـــأْفِكُونَ (45) فَـــأُلْقِيَ
السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (46) قـالُوا آمَنَّا بِـرَبِّ الْعـالَمِينَ (
47)

---

36 [حاشرين] : هم الذين يحشرون السحرة ويجمعونهم.

**رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (48) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ
لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49) قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا
مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ
كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51)**

---

49 [من خلاف] : كأن يقطع الرجل اليمنى واليد اليسرى أو العكس.

50 [لا ضير] : أي لا ضرر علينا فيما تفعله بنا.

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ

هدى من الآيات :

ازداد الصــراع احتــداما ، وحــاول فرعــون أن يتّهم موسى بالسحر ، وأثار فيهم حب الــوطن زاعما : أنه يريد ان يخرج الناس من أرضـهم ، واسـتمالهم بالتشـاور معهم لمعرفة رأيهم في مصير موسى ، فأشــاروا عليه بحبسه ، وبعث العملاء الى أطراف البلاد لجمع السحرة الماهرين ، فلما حشـروا ليـوم عيد دعـوا النـاس للاجتمـاع ، محـددين هدفه سلفا باتبـاع السـحرة ، وجـاء السـحرة طـالبين من فرعون أجرهم فبالغ في إعطـاء الوعـود لهم ، فقـال لهم موسى : القوا حبالكم ، فلما فعلوا أقسموا بعـزة فرعـون انهم هم الغالبون.

وقد ترددت كلمة الغلبة في الآيات مشيرا ـ فيما يبـدو ـ الى حدة الصراع ومصيريته.

والقى موسى عصاه فــاذا بها تلتهم إفكهم ، (**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ ، قالُوا : آمَنَّا بِـرَبِّ الْعـالَمِينَ ، رَبِّ مُوسى وَهارُونَ**) ، وانقلب السحر على الساحر.

أما فرعـون (الـذي لم ينقصه العنـاد) فقد قـال لهم : لماذا آمنتم به قبل ان آذن لكم؟ (واحتوى الهزيمة سريعا) وقال لهم : انه قائدكم ، وأنتم تشاركون معه في الثـورة ، وهـددهم بأنه سـوف يقطع أيـديهم وأرجلهم ، وليصـلبنّهم أجمعين.

ومرة أخرى أثبتت الرسالة قوتها حيث قال السحرة : «**لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ**» الذي نطمع ان يغفر لنا خطايانا ، وان يجعل مبادرتنا الى الايمان كفارة لذنوبنا.

بينات من الآيات :

جمع السحرة :

[34] لا بد ان يكـون صـاحب الرسـالة مسـتعدا أبـدا لتطــورات الصــراع ، ومضــاعفة التحــديات ، حــتى تبلغ الذروة. فهذا النبي العظيم موسى افتتح دعوته بقــول ليّن ، واسـتمر على ذلك النهج بـالرغم من اسـتفزاز فرعـون بسخريته اللاذعة ، ولكن فرعـون توعـده بالسـجن فجـاءه موسى بشـيء مـبين ، ومضى فرعـون في طريق العنـاد فاتّهم موسى بالسحر.

(**قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ**)

ويبدو ان السحر كان منفورا منه بالرغم من انتشـاره بين الناس يومئذ ، وقد ألصق تهمة السـحر بموسى ولكنه ما لبث أن اسـتعان بالسـحرة ، ووعـدهم بـأن يجعلهم من المقــــربين اليه ، ثم لما آمنــــوا عــــاد واتهم موسى بأنه كبيرهم.

وهكذا يتقلب الطغاة حسب مصالحهم ، وهـذا التقلب ـ بذاته ـ دليل زيفهم.

[35] جبل الإنسـان على حبّ أرضه الـتي نبت منها ، ويستغل الطغاة هذا

الحبّ بصـورة قـذرة ، ويـدّعون أبـدا أنّهم حمـاة الأرض ، ودعاة الأمن من الخطر الخارجي أو الداخلي.

وهكـذا اتهم فرعـون موسى بأنه مخـلّ بـالأمن ، وأن هدفه النهائي طرد الأقباط من أرضهم ، فقال :

(**يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ**)

ولم يكن فرعون يأبه بآراء الناس لأنه كـان يـزعم أنه الأهم ، وربهم الأعلى ، وكيف يجــوز للــرب ان يستشــير المربوبين؟!

ولكنه حين خاف انهيار عرشه بادر الى المشــورة ، لا لكي ينتفع بعقولهم وتجاربهم ، أو لا تـرى كيف كـان يبـادر بـالجواب قبلئذ دون استشـارة؟ وانما يسـتميلهم ، ويمنع من تأثير حجج موسى البالغة فيهم ، وأيضا لكي يشـاركوه في جريمته الــتي نــوى ارتكابها بحق النــبي موسى فلا تأخذهم به رأفة من بعد تنفيذها.

هكذا خاطب من حوله قائلا :

(**فَما ذا تَأْمُرُونَ**)

وهكذا الطاغوت أبدا لا يريد آراء الناخبين ليخضع لها ، بل بحثا عن الأهداف التالية :

أ ـ الإيحاء إلى الناس بأنهم يضـعون القـرار لأنفسـهم حقا ، وليس هو وحده.

ب ـ جس نبض الشـعب ، ومعرفة مـدى تـأثير أعلامه فيهم ، ومدى قوة معارضيه ، ومكامن نفوذهم ليقوضهم.

ج ـــ لإضــفاء الشــرعية الكاذبة على حكمه ، كــذلك تراهم يبادرون الى الانتخابـات إذا بلغ بهم الخـوف مـداه ، وعلى الرساليين ان يعوا هـذه اللعبة ، وان يقومـوا بتوعية الناس سلفا بما يقـوم به الطغـاة لخـداعهم ، والاسـتمرار في التسلط عليهم.

[36] كـانت الثقافة الفاسـدة ، والاعلام المضـلل ولا زالت أعظم ركـيزة لسـيطرة الطغـاة ، ولقد كـانت آثـار الإغــواء والفتنة والتضــليل أبلغ بكثــير من آثــار الســجن والقتل والتعذيب.

ويبدو ان نظام فرعون كان يستخدم السـحر ووسـيلة لتكريس سلطته ، وقد كـان السـحر منتشـرا بين الاقبـاط يومئذ ، والسـحر نهاية مطـاف الحضـارة ، وانتشـاره يـدل على وصول الناس الى أدنى مستوى من العلم والمعرفة. أنه ليس إلّا اثارة للخيال عـبر مجموعة حركـات وأصـوات والعاب خادعة ، ولا يتأثر به إلا من سلّم نفسه لتأثيراته.

ويبدو ان مركز تأثير السـحر هو أعصـاب النـاس عـبر منبهات صوتية ، وحركات متناغمة ، وحركات بهلوانية.

هكـذا أشـار الملأ من حـول فرعـون عليه ان يسـتغل السحرة لمواجهة آية موسى بعد اعتقاله وأخاه.

(**قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ**)

اي ابقهما رهن الاعتقال ، وبالرغم من أن مستشاري فرعون لم ينصفوا رسـولهم ، ولكنهم كـانوا أقـرب رشـدا من مستشــاري نمــرود حيث أمــروه رأسا بحــرق نــبيهم إبراهيم ــ عليه السـلام ــ وفي الحـديث : أن أولئك كـانوا أولاد زنا بينما كان هؤلاء رشدة.

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله الصادق (ع) قال : كان فرعـون إبـراهيم وأصـحابه لغـير رشـدة ، فـإنهم قـالوا لنمـرود : «**حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ**» وكـان فرعـون موسى وأصـحابه لرشـدة ، فإنّه لما استشـار أصـحابه في موسى قـالوا : «**أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ* يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ**»[1]

(**وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ**)

أرسل إلى أطراف البلاد من يجمع السـحرة ، وهكـذا أعلن فرعون ـ حسب هذا الرأي ـ حالة الاستنفار القصوى لجهـازه الثقـافي والاعلامي لإحساسه بمـدى خطـورة التحدي.

[37] وهكذا أمروه بتعبئة كل المهرة من السحرة.

(**يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ**)

فوقع السحرة ساجدين :

[38] (**فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ**)

ولعله كان يوم عيد قوميّ لهم.

[39] كـان بإمكـان فرعـون أن يجـري الصـراع على حلبة قصـره ، بين النـبي موسى والسـحرة من أنصـاره ، ولكنه دعا الناس جميعا ليشـهدوا المنافسة ، كما فعل من قبل نمرود حيث لم يكتف حين أراد حـرق إبـراهيم ـ عليه السلام ـ بقليل من الحطب ،

---

(1) بحار الأنوار / ج (12) / ص (32).

بل أشعل نارا كانت تلتهم الطير على بعد أميال. لماذا؟

لأن الطغـاة يعيشـون أبـدا حالة الهلع ، فـإن قلـوبهم تهتز من أدنى معارضة ، فيتظاهرون بالقوة لتعديل تـوازن أنفسهم ، ولكي يرهبوا الناس أن يتأثروا بـإعلام المعارضة ، وهكذا فعل فرعون :

(**وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ**)

كـان التعبـير ــ هـذه المـرة ــ رقيقا ، لما أحس به فرعون من خطر محدق ، فأراد استمالة الجماهير.

بلى .. ان الطغـاة يريـدون تمرير قـراراتهم من خلال رأي النـاس ، لكي يوهمـوهم أنهم هم أصـحاب القـرار ، ومسـكينة هـذه الشـعوب الجاهلة كم وكم تمر عليها هـذه اللعبة وحتى هذا اليوم.

[40] لم يكن هـدف حشد النـاس جعلهم الحكم بين النظام والمعارضة ، ليختاروا ما يرونه حقا. كلا .. انما كان الهدف تكريس سلطة فرعون ، لذلك قالوا :

(**لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ**)

ولعل هــذه الآية تشـــير الى الهجمة الإعلامية الـــتي قـامت بها أجهـزة السـلطة ضد موسى ــ عليه السـلام ــ وصنعت أجـواء رفض رسـالة الله ، واتبـاع السـحرة حـتى قبل نزولهم الى حلبة التنافس.

[41] وجاء السحرة ، واجتمع الناس ، وعبّئت الأجـواء لتأييد فرعون ، وتكونت فرق التشجيع على أطراف الحلبة لصالح السحرة ، ودقّت الطبول ، واستعد الجلادون

لإنــزال أقسى العقوبــات بموسى وأخيه ، والتنكيل ببــني إسـرائيل ، وخنق كل صـوت للمعارضة ، وتمثل السـحرة أمام فرعون يطلبـون أجـرا. أو ليسـوا قد سـخروا طـوال الفـــــــــترة للعمل في البلاط بلا أجر ، أو لم يكن عمل الســـخرة شـــائعا في عهد فرعـــون. أو لم تنتشر على أطـــراف أهرامـــات مصر الـــتي بناها الفراعنة قبـــور المحـــرومين على امتــداد أميــال ، من أولئك الــذين كــان يجمعهم النظـام من أطـراف مصر ليبنـوا مقـابر لأركانه ، وليعلو بــذلك مجــده ، ثم يســخرهم بلا أجر في ظــروف قاسـية ، فـاذا مـاتوا أهـال عليهم حفنة من الـتراب وجـاء بغيرهم؟! آه كم استخف الظـالمون بـأرواح البشر ، والى اليوم ، والى متى؟!

كلّا .. هـذه المـرة نطالبه بـأجر. فرعـون هـذا اليـوم يختلف عنه بــالأمس ، انه مضــطرب. دعنا نســتغل ذلك لمطالبته بأجر على الأقلّ.

(**فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَـوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْـراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ**)

فاذا كان الأمر كذلك فسـوف نبـذل المزيد من الجهد للغلبة.

لقد اهـتز ضـميرهم منذ اللحظة الأولى الـتي واجهـوا فيها موسى.

فمن هـذا الـراعي الـذي جـاء بعصـاه يتحـدى أكـبر طـاغوت ، وأعظم امـبراطور ، ولمـاذا عجز فرعـون عن التنكيل به كما ينكل بألوف الناس من بني قومه؟!

وجـاء في تفسـير علي ابن إبـراهيم : «**ان السـحرة حين بصروا بموسى ، رأوه ينظر إلى السماء ، قالوا لفرعون : انا نرى رجلا ينظر الى السماء ، ولن يبلغ سحرنا الى السماء**». [2]

---

(2) تفسير نور الثقلين / ج (4) / ص (51).

[42] فرعون يعرف ـ كما سائر الطغاة ـ بان العـرش انما يصنعه هؤلاء (ادعيـاء الـدين والعلم) الـذين يسـرقون سـلاح الـرفض من أيـدي المحـرومين ، ويزرعـون فيهم الخوف والخنوع ، وانه لا بد من شراء ضمائر هذه الطائفة المخاسرة بأي ثمن لذلك ...

(**قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**)

ان القيمة الحقيقية لهـــــذه الضـــــمائر الخائنة هي المشاركة في الملك ، وهذا ما تبرع به فرعـون ، ووعد به السحرة ، أو ليسوا قد شاركوا في صنع العـرش وفي كل الجـرائم الـتي يرتكبها صـاحبه ، فلما ذا لا يشـاركونه في غنائمه.

ولكن العلمـــاء الفســـقة لا يعرفـــون عـــادة القيمة الحقيقية لما يبيعونه ، فـتراهم يرضـــون بـــالثمن الزهيد ، فيخسرون (**الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ**).

[43] من أعظم صـــفات الأنبيـــاء (ع) الــتي تشـــهد بصـدقهم : تحـديهم لقـوى أعظم منهم ــ كبشر ــ أضـعافا مضـــاعفة ، مما يشـــهد باعتمـــادهم على رب القـــدرة والعظمة سبحانه.

هكذا تحداهم موسى.

(**قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ**)

وما عسى ان ينفعكم ما تلقون أمام قدرة الرب؟!

[44] ولم يكن يملك أولئك البؤســـاء غـــير مجموعة حبال وعصي فألقوها.

(**فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ**)

وقد استنفدوا كل جهدهم بذلك ، وأضافوا اليه القــول قسما :

(**وَقالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ**)

كـانت عــزة فرعــون ــ في زعمهم ــ منتهى القــوة الموجودة في الأرض ، فأقسموا بها ، وحين يصل الإنسان الى الاعتزاز بقوة مادية بهذه الدرجة الـتي يحلف بها فـان نهايته قد آنت. أو ليس من أعتز بغير الله ذلك؟!

جاء في الحديث القدسي :

«**العظمة ردائي والكبريــاء ازاري فمن نــازعني فيها لعنته**»

[45] هنالك أمر الله موسى بأن يلقي عصاه.

(**فَــأَلْقى مُوسى عَصــاهُ فَــإِذا هِيَ تَلْقَــفُ ما يَأْفِكُونَ**)

[46 ـ 47] خلق الإنسـان على الفطـرة الـتي تتجلى فيها آيـات الله ، ولو لم تلـوث الصــفحة البيضــاء ، الــتي يتكون منها قلب البشر بالتربية الفاسدة ، والنظام الفاسد ، والشهوات و.. و.. فسوف تنعكس عليها تجليات الرب.

وحتى لو تورط الإنسان في الـذنوب فـإن نفسه تظل تلومه ، وفي لحظات خاصة يتعرض القلب لشلال من نور الحقيقة يكاد ينصدع به ، حيث يستيقظ فيه ذلك الوجــدان ، وينهض متحديا حجب الذنوب ، وإذا وفقه الله حــدث فيه تحول مبارك وعظيم.

وهكـذا خـرّ السـحرة سـاجدين لله ، في وسط دهشة الجميع.

(**فَــأُلْقِيَ السَّــحَرَةُ ســاجِدِينَ* قــالُوا آمَنَّا بِــرَبِّ الْعالَمِينَ**)

هكذا ينبغي على من يحمل مشـعل الثقافة الرسـالية الا يهن ، ولا يني يهـاجم الظلام الشـيطاني. ذلك أن النـور سيطوي الظلام أنّى كان متراكبا.

[48] ولأن السحرة آمنـوا بالله بدلالة موسى ، وحيث تجلت آية الله على يـده ، فـإنهم ذكـروه ، ولأن هـارون ــ بـدوره ــ كـان وزيـرا لموسى فقد جـاء ذكـره عند هـذه اللحظة. لحظة المفاجئة الكبرى.

(**رَبِّ مُوسى وَهارُونَ**)

هكذا يقدّر الرب أعمال عباده الصالحين.

[49] كان فرعون موغلا في الضـلالة والجحـود ، فلم يهتد بكل تلك الآيات ، بل ظل يعاند بما أوتي من قوة.

(**قـالَ آمَنْتُمْ لَـهُ قَبْـلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِـيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**)

وتوعـــدهم بالعـــذاب الأليم ، حيث لم يبق أمامه حجة يبرر بها مخالفته للرسالة ، فقال :

(**لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ**)

يدا من اليسار ، ورجلا من اليمين.

(**وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**)

[50] كـان العقـاب شـديدا ، ولكن التقـدير قضى ان يسـتقبله أولئك الـذين كـانوا الى عهد قـريب من ركـائز النظام ، لكي لا يرتاب أحد في صدق إيمانهم ، وبالتالي

صدق الرسالة ، وتتم حجته على الناس.

(**قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ**)

كيف بلغ السـحرة هـذه الـذروة من الإيمـان بالله ورسـالاته في لحظة ، كيف أيقنـوا بالنشـور الى درجة استساغوا الشهادة ، واعتبروها عودة الى الله؟!

حين تتسـاقط حجب حب الـذات ، وعبـادة الأهـواء ، والخضوع للطاغوت ، فان الحقائق تتجلى مباشـرة للقلب ، ويكون للعلم بها علما شهوديّا ، واليقين صادقا.

[51] ثم لأن السـحرة طالما مشـوا في ارض الله ، وانقلبـوا في نعمه ، يـأكلون رزقه ، ويعبـدون غـيره ، فلما تـذكروا كـانت الصـدمة في نفوسـهم قوية فـأرادوا تكفـير ذنـوبهم الـتي أحسـوا الآن بثقلها على كـواهلهم ، وتطهـير صفحة حياتهم بدم الشهادة ، فقالوا :

(**إِنَّا نَطْمَـعُ أَنْ يَغْفِـرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ**)

ونسـتوحي من هـذه الآية ان هنـاك مؤمـنين آخـرين اتبعوا نهج السـحرة التـائبين ، وانما كـان هـؤلاء طلائع في مسيرة الايمان.

**وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبـادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُـونَ (
52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِــرِينَ (53) إِنَّ
هـؤُلاءِ لَشِـرْذِمَةٌ قَلِيلُـونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنا لَغـائِظُونَ (
55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنـاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ
وَعُيُــونٍ (57) وَكُنُــوزٍ وَمَقــامٍ كَــرِيمٍ (58) كَــذلِكَ
وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (59) فَـأَتْبَعُوهُمْ مُشْـرِقِينَ (
60) فَلَمَّا تَـراءَا الْجَمْعـانِ قـالَ أَصْـحابُ مُوسى إِنَّا
لَمُدْرَكُونَ (61) قالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)
فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ
فَكـانَ كُـلُّ فِـرْقٍ كَـالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنا ثَمَّ
الْآخَــرِينَ (64) وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَــهُ أَجْمَعِينَ (
65)**

---

54 [لشرذمة] : الشرذمة العصبة الباقية ، من عصب كثيرة ، وشـرذمة كلّ شيء بقيته القليلة.

64 [وأزلفنا] : والازدلاف الادناء والتقريب ، ومنه المزدلفة.

**ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيَـةً وَما كـانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الـرَّحِيمُ (
68)**

كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ

هدى من الآيات :

تتابع آيات سورة الشعراء في بيان الصراع الحضـاري الذي كسبه رسل الله بأيدي الـرب ، لما تتجلى فيه صـفتا العزة والرحمة الالهيتان.

هكذا أوحى الله إلى موسى بالهجرة الجماعية ، فقـاد بني إسرائيل ناحية البحر ، وانبأهم بان فرعون يتّبعهم.

أما فرعون فقد عبّأ كلّ قواه ، حيث حشر جنـوده من مدائنه ، وأضلهم بالقول :

ان بني إسرائيل خليط مختلف وقليل ، وانهم أغضبونا بتصـــرفاتهم (ســـرقوا أموالنا ، وخرجـــوا عن ديننـــا) فأخرجنـــاهم من بلادنا الـــتي تتمتع بالبســـاتين والعيـــون ومــوارد ومســاكن محترمــة. بلى .. ولكن الله أعـاد بـني إسرائيل إليها ، وأورثهم إيّاها.

فزحف جيش فرعـــون تلقـــاء بـــني إســـرائيل عند الشـروق ، فلما اقـترب الجمعـان قـال أصـحاب موسى : انهم سيدركوننا بقـواتهم العظيمة ، قـال لهم موسى : كلا .. ان الله

معي ، وهو سـيهديني طريق النجـاة ، فـأوحى الله الى موسى أن اضـرب بعصـاك البحر الـذي وصـلوا اليه ، فلما ضربه بعصاه انقسم البحر ، وانكشفت فيه طـرق يابسة ، فاسـتدرج الـرب آل فرعـون في البحر أيضا ، ولكنه أنجى بني إسرائيل (الـذين خرجـوا من الطـرف الآخـر) وأغـرق الآخـرين (الـذين لم يزالـوا فيه حين عـادت الميـاه الى طبيعتها).

ان في هـذا الإعجـاز آية لعظمة الـرب وقدرته ، كما لرحمته وعطفه ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

وان الله عزيز ينتقم من الجبـــــارين ، ورحيم ينصر المستضعفين.

بينات من الآيات :

وكانوا هم الوارثين :

[52] لقد فشل فرعون في مواجهة الرسالة بتضـليله ، وبـالرغم من تعبئة كل إمكاناته الاعلامية لـذلك ، فعقد العـزم على التنكيل بهم ، ولكن هـدى الله سـبق كيـده ، وهزم مكره ، حيث أمر الله نبيه بـان يقـود بـني إسـرائيل في سبيل الهجرة.

(**وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْـــرِ بِعِبـــادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ**)

ان ثقافة الشـعراء الـتي تمثلت هنا بثقافة السـحرة تخـدم الطغـاة ، وتضـلل النـاس ، وهي اداة بيد الجبـارين لقهر المحرومين ، بينما رسالات الله تبيّن للناس الحقـائق ، وفيها قرارات واضحة تهدف نجاة المحـرومين من أيـدي الظالمين ، فلقد جاء الأمر بالهجرة ، وبيّن سبب هذا الأمر وهو وجود خطر يحدق بالناس ، هذا نموذج لرسالات الله.

[53] وبعث فرعون رسـله الى مـدائن مصر الكثـيرة والمتفرقة ، وكـان هدفه تعبئة قـواه العسـكرية لمواجهة خطر بني إسرائيل ، ويبـدو أنه قـام بـالنفير العـام ، ولكن لماذا؟

هل انه حين أضـمر السـوء ببـني إسـرائيل فخرجـوا أحس بـالخطر من أن يكـون خـروجهم تمهيـدا لمقاومته عسـكريا ، فاستنفر جيشـه؟ أم أنه قـرر ذلك قبل خـروج بني إسرائيل ، وانما أراد بحشد قواه التظاهر بـالقوة لكي لا يفكر أحد بـالثورة عليه ، فلربما كـانت في مصر قـوى معارضة أخرى تنتظر دورها في الثورة ضد فرعون؟

من خلال السياق يبدو ان الاحتمال الاول هو الأقوى.

(**فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ**)

اي من يجمع له القوة العسكرية.

[54] فلما عبأ جيشه ماديّا بـــــدأ بتعبـــــأتهم معنويا بالأساليب التالية :

أولا : هوّن في نظرهم قوة المعارضة ، وقال :

(**إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ**)

فهم ليسـوا قـوة متماسـكة ، وفي ذات الـوقت فهم قليلون.

ولا ريب ان تهـوين شـأن العـدو من أسـاليب التعبئة المعنوية ، والذي يقوم به أبدا الطغاة ضد الثائرين.

[55] ثانيا : بيّن سـبب محاربته لبـني إسـرائيل. إذ ان الطغـاة يبحثـون أبـدا عن تـبرير لإشـعال نـار الحـرب ضد معارضيهم ، فقال :

(**وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ**)

فقد أثاروا غيظنا ، بسـبب تمـردهم علينا ، وخـروجهم عن ديننا ، ولان بني إسرائيل استعاروا من قبل الحلّي من أهل مصر ، وذهبوا به كما يقول المفسرون.

[56] ثالثا : كشف فرعـون لهم عن مـدى اسـتعداده لمقـاومتهم ، وانه يحـذر غلبتهم بـالرغم من قلة عـددهم الآن.

(**وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ**)

اي نحن جميعا نسـتعد لمـواجهتهم ، ولعلّه أراد بـذلك إبعاد خـوف الهزيمة عن جنـوده بـأنهم قد اسـتعدوا جميعا لمقاومة هذا العدو ، وأن على كل فرد ان يقوم بدوره في مواجهة الخطر المحدق.

[57] رابعا : طفق يـبيّن خـيرات بلاده ، الـتي يجب الدفاع عنها ، فقال :

(**فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**)

انه زعم امتلاكه لكل مقومـات الحضـارة ، من زراعة تروى بـالعيون مما تجعلها بعيـدة عن الأخطـار المحتملة ، ومن المعـروف ان حضـارة آل فرعـون كـانت زراعية ، وكانت متقدمة بالقياس الى موازين تلك الحقبة القديمة ، وكـان يعـتز بها فرعـون كثـيرا ، ويعتقد بأنها دليل سـلامة نهجه.

[58] (**وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ**)

ان وجـود ذخـائر مالية مثل العملة الصـعبة اليـوم والكنوز قـديما ، معلم من معـالم التقـدم الحضـاري ، كما أن المسـاكن الآمنة الـتي يحـترم أهلها ، ويكرمـون فيها معلم

آخر من معالم الحضارة التي افتخر بها فرعون.

ولعل في التعبــير ب «أخرجنــاهم» تهديــدا ضــمنيّا للجيش ، بـــأن من لا يطيع الأوامر يفقد هو الآخر هـــذه المكاسب.

ويبـــدو ان الجنـــات والعيـــون يعكس الوفـــاء [1] بالضروريات ، بينما الكنوز والمقام الكريم ، يعكس التقدم الذي يوفر الأمن الاقتصادي والسياسي.

[59] رسالات الله لا تعارض التقـدم الحضـاري ، انما تعــارض الظلم الــذي يــرتكب باســمه ، وانما التقــدم الحضــاري الثــابت والمســتقر حق لأهل الحق ، لأنهم هم الذين يضعونه فيسرقه الطغاة منهم ، فيعيـده الله عليهم. هكذا انبأنا الله سبحانه ، فقال :

(**كَذلِكَ**)

هكـذا قـال فرعـون لقومه ، وهكـذا أعـتز بما يملك ، ولكن كيف كانت العاقبة؟ اسمعوا :

(**وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ**)

لقد أهلك الله آل فرعــون ، وعــاد بنو إســرائيل الى مصر ، وتنعمـوا بالجنـات ، والعيـون ، والكنـوز ، والمقـام الكريم ، وهكذا يـورث الله الأرض لعبـاده الصـالحين ، فلا ينخــدع المحرومــون بما في أيــدي الطغــاة ، ولا يــذلوا أنفسهم لقاء فتات الطعام ، أو فضالة الشراب ، ان الخير كل الخير لهم ، وعليهم ان يقطعوا أيـدي السـارقين حـتى يهنأوا به.

(1) الوفاء من وفي الشيء وفاء فهو وافي.

[60] كـان فرعـون المبـادر الى الحـرب ، فهو الـذي هاجم بني إسرائيل عند الشروق.

(**فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ**)

[61] جدّ جيش فرعون في السير حـتى لحقـوا بهم ، وصـار على مقربة منهم ، يـرى كل فريق الفريق الآخـر. عندئذ أحس قوم موسى أن الخطر قد أحدق بهم.

(**فَلَمَّا تَـراءَا الْجَمْعـانِ قـالَ أَصْـحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**)

[62] عند ما بيّن النبي موسى ــ عليه السّـلام ــ لربه جـوانب ضـعفه في حمل الرسـالة ، سـمع من الله كلمة عظيمة هي : «كلّا» وها هو يكررها لقومه عند ما أحســوا بضعفهم في مواجهة فرعون وقومه.

(**قالَ كَلَّا**)

هنـاك أخـبره الله بأنه معه هو وأخيه هـارون ، يسـمع ويرى ، وهنا أيضا أنبأهم موسى بأن الله معه.

(**إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ**)

ما أعظم إيمـــان موسى بربه ، وما أشد يقينه بنصر الله ، وما أجـدر بنا ان نقتبس من قصة حياته ومضة يقين ، ونفحة إيمان. أمواج البحر أمامه وأمـواج الجيش الكـافر وراءه ، وهو لا يملك سـوى قـوم مستضـعف فيهم النسـاء والأطفـال والعجـزة ، وقد انهـارت إرادتهم بفعل طـول الاستعباد ، ولكنه يتحدى كل خوف متوكلا على الله ، واثقا من نصـــره. أو ليس الله معه فلما ذا يخشى ، بل كيف يتسرب الخوف الى قلب موقن بأن الله معه؟!

[63] وهبط الوحي على قلبه الشريف :
(**فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْـرِبْ بِعَصـاكَ الْبَحْـرَ فَانْفَلَقَ**)
انقسم البحر على نفسه ليكشف عن اثـــــني عشر ســبيلا ، مســتقلّا لاثــني عشر ســبطا من أســباط بــني إسرائيل.
(**فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**)
كل جــانب منه كــان كما الجبل العظيم ، تــراكمت المياه على بعضها ، وتجمدت الأمواج فوق الأمواج.
[64] ودخل بنو إسرائيل السـبل الـتي فتحت لهم في البحر الذي لا يدرى هل هو النيل أم أنه البحر الأحمر؟
وبلغ آل فرعون البحر فوجـدوا أعـداءهم في منتصف الطريق ، فانـدفعوا وراءهم ــ سـبحان الله ــ كيف يهبط الإنسـان إلى هـذا الـدرك الأسـفل من العصـبية. إنه يـرى المعــاجز رأي العين ، فلا يتبصر بل يســتمر في غيّه ، لقد رأى فرعــون آية العصى والــتي أسـجدت السـحرة لله ، ورأى آية اليد البيضاء وسبع آيات أخـرى ، والآن يجد البحر قد انفلق ، وتراكمت مياهه كالجبال ولا يــزال يعاند ، كيف يمكن ذلك؟!
الواقع : ان الــــــذنب يقسي القلب ، وكلما زادت الذنوب كلما تحجرت القلوب أكـثر فـأكثر ، والله سـبحانه يعــاقب المــذنبين لقســوة قلــوبهم ، ويســتدرجهم الى مصيرهم الأسود ، وهكذا يقول ربنا :
(**وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ**)

لقد أهلكهم الله في البحر أجمعين ، ولكن لم أهلك الله كل الجيش ، ولم يهلك فقط فرعون وهامان؟

الجواب :

ان الدنيا دار ابتلاء لجميع الناس ، حاكمين ومحكومين ، واتّبـــاع المحكـــومين للطغـــاة يـــوردهم مـــوردهم ، بل سكوتهم عنهم يشركهم في جرائمهم وعقوباتهم.

ولقد وفر الله لقـوم فرعـون أسـباب الهداية ، إذ وقع السحرة لربهم ساجدين ، وأخذهم الله جميعا بألوان البلاء لعلهم يتضرعون ، وإذ وقفوا على شـاطئ البحر ينظـرون الى القوم المستضـعفين ، يقـودهم راعي غنم لا يحمل إلّا عصا ، وقد انفلق البحر لهم بهـــذه الصـــورة ، فهل بقيت حجة لهم ، كلّا .. بل لله الحجة البالغة عليهم ، فـــــــــان أهلكهم فانما بعد البينة وإتمام الحجة.

[65] المعجزة كـانت واحـدة وهي انفلاق البحر ولكن العاقبة اختلفت ، حيث يقول الرب سبحانه :

(**وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ**)

[66] (**ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ**)

فهل هي صدفة ان تقع ظاهرة واحـدة تـرحم هـؤلاء ، وتعذب أولئك؟!

[67] (**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ**)

بالرغم من قوة الحجة فان العيـون مغلقة ، والقلـوب محجوبة ، ولا يجـــــوز ان نجعل النـــــاس مقياسا للحق والباطل.

جاء في الحديث عن رسول الله (ص):

«**لا تكن امعة تقول : ان أحسن الناس أحسنت ، وان أساؤا اسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ، ان أحسن الناس ان تحسنوا وان أساؤا ان تجتنبوا إساءتهم**»

[68] (**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**)

عزيز ينتقم من الكفار ، ورحيم ينصر المؤمنين.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (69) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما
تَعْبُدُونَ (70) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (
71) قـــالَ هَـــلْ يَسْــــمَعُونَكُمْ إِذْ تَـــدْعُونَ (72) أَوْ
يَنْفَعُـونَكُمْ أَوْ يَضُـرُّونَ (73) قـالُوا بَـلْ وَجَـدْنا آباءَنا
كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قالَ أَفَـرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُـدُونَ (
75) أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ
رَبَّ الْعـالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُـوَ يَهْـدِينِ (78)
وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذا مَرِضْتُ فَهُـوَ
يَشْــــفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِين (81) وَالَّذِي
أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين (82) رَبِّ هَبْ
لِي حُكْمـــاً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّــالِحِينَ (83) وَاجْعَــلْ لِي
لِسـانَ صِـدْقٍ فِي الْآخِـرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَـةِ
جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّـالِّينَ (
86) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ

**يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُـونَ (88) إِلاَّ مَنْ
أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (
90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ (91) وَقِيـلَ لَهُمْ أَيْنَ ما
كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللـهِ هَـلْ يَنْصُـرُونَكُمْ أَوْ
يَنْتَصِـرُونَ (93) فَكُبْكِبُـوا فِيها هُمْ وَالْغـاوُونَ (94)
وَجُنُـودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُـونَ (95) قـالُوا وَهُمْ فِيها
يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللـهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَـلالٍ مُبِينٍ (97)
إِذْ نُسَـوِّيكُمْ بِـرَبِّ الْعـالَمِينَ (98) وَما أَضَـلَّنا إِلاَّ
الْمُجْرِمُـونَ (99) فَما لَنا مِنْ شـافِعِينَ (100) وَلا
صَـدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَـوْ أَنَّ لَنا كَـرَّةً فَنَكُـونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَـةً وَما كـانَ أَكْثَـرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104)**

---

90 [وأزلفت] : أي قربت.
91 [وبرّزت] : والتبريز الإظهار.
94 [فكبكبوا] : أصله كببوا ، أي دهدهوا.

بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ

هدى من الآيات :

في سـياق تبيـان الصـراع بين رسـالات الله وثقافة الشعراء يضـرب لنا الـرب مثلا من قصة إبـراهيم وقومه ، وكيف أوحى الله اليه بمقاومة الفساد العريض الذي تردوا فيه ، فعبدوا الأصـنام ، وحين سـألهم عن ذلك إبـراهيم لم يملكوا حجة ، بل قـالوا : انا وجـدنا آباءنا كـذلك يفعلـون ، فـأعلن الـبراءة منهم ومن آبـائهم ومن أصـنامهم ، وتوجه الى عبـادة رب العـالمين ، الـذي أعطـاه خلقه وهـداه ، وطعامه وشـــرابه وشـــفاه ، وهو يميته ويحييه ، ويرجو مغفرته يــوم يلقــاه ، وتضــرع اليه : ان يهب له الحكم ، ويلحقه بمن مضى من الصـــــالحين ، ويجعله فاتحة عهد صــــالح ، وان يرزقه الجنة ، ويغفر لأبيه لأنه كـــان من الضـالين ، ولا يخزيه يـوم البعث بالنــار. إنّه يــوم لا تنفع الأصنام ، كما لا يغني اتباع الآباء شـيئا ، فلا ينفع فيه مـال ولا بنون الّا من أتى الله بقلب سليم. في ذلك اليوم تزلف الجنة ليـدخلها المتقـون ، وتـبرّز النـار ليـدخلها الغـاوون ، الذين يسألون : (**أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللــهِ**) ، فأين ذهبت أصنامكم ، واين

تولى آباؤكم. هل هم قـادرون اليـوم على نصـركم أو نصر أنفسـهم؟! فلما فلم يحـيروا جوابا أقحمـوا في النـار مع الغاوين ، وجنود إبليس أجمعين.

وهناك تبيّن مدى ضلالتهم ، حيث اختصموا في النـار ، فقال الكفار لأوليائهم : انا كنا في ضـلال مـبين إذ نجعلكم سـوّاء مع رب العـالمين ، وأنحـوا باللائمة على الـذين أضلوهم ـ لعلهم عنوا بهم ادعياء الدين والعلم ــ ونعتـوهم بـالإجرام ، وقـالوا : لا أحد يشـفع لنا ولا يصـدقنا ، ويهمّه أمرنا ، وتمنوا لو كانت لهم كرة حتى يكونوا مؤمنين.

ويختم القـرآن هـذا الـدرس ، كما ختم قصة موسى (ع) بـان كل ذلك آية ، ولكن أكـثر النـاس لا يؤمنـون ، ثم يذكرنا باسمي العزة والرحمة لربنا العظيم.

بينات من الآيات :

[69 ـ 70] نستوحي من قصص سيدنا إبراهيم ـ عليه السّـلام ــ أن فطرته الإيمانية تجلت حـتى قبل ان يـوحى اليه ، فـاذا به يواجه أكـبر فسـاد استشـرى في قومه وهو عبادة الأصنام ، واتباع الاباء على غير هدى.

يبـدأ انحـراف البشر بسـبب همـزات الشـيطان ، ودفعـات الشـهوات ، ولكنه سـرعان ما يلبس ثيـاب الشرعية ، ويضـفي عليه أدعيـاء الـدين والعلم وبـأمر من المترفين القداسة الدينية ، وكـذلك كـانت عبـادة الأصـنام عند قوم إبراهيم.

(**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ* إِذْ قـالَ لِأَبِيـهِ وَقَوْمِـهِ ما تَعْبُدُونَ**)

ان إبراهيم يتحدى أولا أباه ، الـذي لم يكن والـده انما كان عمه آزر الذي تبناه ، ولعل السبب يتلخص في أمرين :

أولا : ان أباه كان هو المسؤول المباشر عنه ، والـذي كـان ينفذ عليه تعـاليم مجتمعة ، ومن خلاله كـان يتعـرض إبــراهيم لضـغط المجتمع الفاسد ، ودفعه باتجــاه عبــادة الأصنام.

ثانيا : ان إبراهيم كـان في مجتمع رجعي يقلّد الآبـاء ، ولذلك كان ينبغي أن يبدأ تحديه لهم حتى يصبح قدوة لكل من يعيش في مثل هذا المجتمع المتخلف.

[71] لقد اعــترفوا بفســادهم ، وأنهم إنّما يعبــدون أصناما لا تضر ولا تنفع.

(**قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ**)

نصلي لها ، ونـديم عبادتها ، ولعل هـذا التعبـير يـوحي بأنهم كانوا في شك من جدوائية عبادتهم لها ، وانما مضوا عليها اقتداء بالسابقين.

[72] ان نظـام الحيـاة قـائم على النفع والضر ، وان فطرة الإنسـان تهديه إلى الـربّ في أوقـات الشـدة وعند الحاجة ، وهكــذا ســألهم إبــراهيم : هل تســتجيب هــذه الأصــنام عند الشــدة ، حيث ينقطع رجــاء الإنســان من الوسائل المتاحة له (كما يسـتجيب الـرب سـبحانه) أو هل تنفع أو تضر في الأوقات العادية؟!

(**قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ**)

في حــال الشــدة تتســاقط الأوهــام ، ويتعلق القلب بالخـالق فلا يـدعو غـيره ، وهـذا أكـبر برهـان على بطلان عبادة الأصنام.

[73] (**أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ**)

هكـذا ألقى إبـراهيم حجـرا كبـيرا في محيط قلـوبهم الراكد ، وأحدث فيها أمواجا

متلاحقة من الشك ، والواقع : إنّ زرع الشك في القلب بالنسـبة إلى الوضع الفاسد خصوصا عند أولئك الجامـدين يعتبر أكبر إنجاز.

ففي حوار بين طبيب هندي ملحد ، والإمام الصادق ـ عليه السـلام ـ يلقي الامـام الشك في روعه فيما يتعلق بعقائد الطبيب الفاسـدة ، فيقـول : لا ادري لعل في بعض ما ذكرت مدبرا ، وما ادري لعله ليس في شيء من ذلك؟

فيقول له الامام :

«**اما إذا خـرجت من حد الإنكـار الى منزلة الشك ، فاني أرجو أن تخرج الى المعرفة**» [1]

[74] ولم يملك القــوم حجة ، فأحـالوا القضـية إلى الـتراث الـذي هو آفة المتـدينين ، حيث يختلط بالـدين في ذهن الناس بما يصعب فكاكه عنه.

(**قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ**)

[75] هنــاك تجلى تحــدي إبــراهيم لقومه ، فأعلنها صراحة : أنني براء منكم ومما تعبـدون ، لأن تلك الأصـنام عدوة لي :

(**قالَ أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ**)

وهــذا التعبــير بــالغ درجة كبــيرة من الاســتخفاف والسخرية.

[76] (**أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ**)

---

(1) بحار الأنوار / ج (3) / ص (155).

اي أنـني لا أتحـدى فقط آبـاءكم القريـبين إليكم ، بل حـتى أولئك الأكـثر قداسة عنـدكم وهم الأقـدمون. أليس المجتمع الــرجعي يكتسب فيه القــديم قيمة تتنــامى مع مرور الزمان كأنه الخل أو الخمر؟!

[77] (**فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي**)

أنني أعاديه بصراحة ، لأنه هو الذي يعاديني.

لقد كانت تلك كلمة البراءة. أزال بها إبراهيم الحصانة التي خلعها أولئك الرجعيون على الأصـنام ، ولعل إبـراهيم (ع) استهدف أيضا من ذلك أمرين آخرين :

أولا : إثبـات عـدم قـدرة الأصـنام على الإضـرار بأحد اثبت ذلك عمليّا ، حيث كان أولئك الجهلة يحذرون الأصنام ، ويتهيّبون ترك عبادتها ، فكان قدوة في الرفض ، وهكــذا من يتبع نهج إبراهيم من المؤمـنين الصـادقين ، يرفضـون التسليم للطغاة ، ويصبحون قـدوة في ذلك ، حيث يثبتـون بعملهم ان الطغاة ليسوا بمعجزين في الأرض.

ثانيا : إن الأصنام رمز النظام السياسي والاقتصادي ، وتقديسها حجر الزاوية في البناء الثقافي للمجتمع الجاهل ، وأن الاستمرار في عبادتها يعني اسـتمرار الوضع الفاسد الذي يضر بالإنسان ، فالأصنام عدوة للإنسان فعلا ، وعلى الإنسان أن يتخذها عدوا.

ولا يكفي رفض الأصـــــنام ، بل لا بد من التوجه الى الله ، لذلك قال إبراهيم (ع)

(**إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ**)

[78] (**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ**)

لقد خلق الله كل شيء خلقا متينا ، وأجرى فيه سـننا بالغة الدّقة ، وهـدى الإنسـان الى تلك السـنن بـالغرائز ، والفطـرة ، والعقل ، والـوحي ، وتطـابق الـوحي والسـنن أكبر شـهادة على صـدق الرسـالة ، وأبلغ حجة على حكمة الرب ، وحسن تدبيره سبحانه.

[79] والبشر مفطور على تقدير من يطعمه ويسـقيه ، ولكن يخطأ في معرفة المصـــدر الحقيقي للطعـــام والشراب. انه ينظر إلى الوسـيلة ولا ينظر الى المصـدر ، يـرى الرافد ويغفل عن الينبـوع ، يحس بيد الخبّـاز ولكنه يجهل أو يتجاهل عشـرات الأيـدي من قبلها ويد الغيب من ورائها جميعا.

أما صـاحب الفطـرة النقية الـتي تتحـدى سـلطة المجتمع ، ولا يضـيّع انسـانيّته بالتسـليم للفسـاد الثقـافي السائد عليهم ، فهو الذي يهتدي إلى لبّ الحقـائق ، وغيب الظواهر ، كمثل إبراهيم إذ قال :

(**وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ**)

[80] لقد جعل الله في جسم الإنسان نظـام مناعة ، يقـاوم الجـراثيم ، ويسـاعد على التغلب على المـرض ، ومدى قدرة هذا النظام أو ضعفه ، ومدى قـدرة الجرثومة وضـعفها خاضع لتقـدير الله سـبحانه ، وهكـذا يمـوت أو يطيب المـــريض بما لا يتحكم فيه البشر مهما أوتي من علم.

ولو أفقد الله الجسم مناعته ، فلا أحد قـــادر على حفظه حتى ولو شرب أطنانا من الأدوية المضادة.

هكـذا عـرف إبـراهيم بفطرته النقية الحقيقة هـذه ، فقال :

(وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

ان الشفاء بيد الله ، والله أودع في جسم الإنسـان ما يتغلب به على المـرض ، وأفضل العلاج مقاومة المـرض بقوة الجسم ، وقد أكـدت النصـوص الاسـلامية على هـذه الضرورة.

وجاء في الحديث :

«امش بدائك ما مشى بك»

وجاء في حديث مأثور عن الامام الصادق (ع) انه قال :

«من ظهـرت صـحته على مرضه فتعـالج بشـيء فمات فأنا إلى الله منه بريء» (2)

وربما لكي يتحمل آلام المـــرض ، ولا يســـرع الى مقاومته مما يفقـده مناعته ، جـاءت نصـوص تؤكد ثـواب المرض للمؤمن.

جاء في حديث مأثور عن عبد الله بن مسعود انه قال :

بينما نحن عند رسـول الله (صـلى الله عليه وآلـه) إذ تبسم فقلت له : مالك يا رسول الله؟ قال :

«عجبت من المـؤمن وجزعه من السّـقم ، ولو يعلم ماله في السّـقم من الثـواب لأحب الّا يـزال سقيما حتى يلقي ربه عز وجل» (3)

---

(2) نور الثقلين / ج (4) / ص (55).

(3) المصدر / ص (56).

ونـدب الشـرع كتمـان الألم ثلاثا ، وانبأنا أن في ذلك ثوابا عظيما ، فقد روى عن الإمام الباقر عليه السّلام قال :

«**قـال الله تبـارك وتعـالي : ما من عبد ابتليته ببلاء فلم يشك الى عواده ، إلا أبدلته لحما خـيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ، فإن قبضـته قبضـته إلى رحمتي ، وان عاش عاش وليس له ذنب**» (4)

[81] في خضم المشاكل اليومية التي يواجهها البشر ينسى الحقـائق الكـبرى ، كمن يعـالج شـجرة في طريقه فتحجبه عن الغابة ، وإنما المهديون من عباد الله يتذكرون أبدا تلك الحقائق الكبيرة. من أين والى أين ومن المدبر؟

والموت والحياة هما أخطر ظـاهرتين يمر بهما البشر ، وإذا كشـفت عن بصـره غشـاوة الغفلة فانه يهتـدي إلى من يقهر النـاس بـالموت ، ثم يبعثهم للحسـاب ، قـال إبراهيم (ع) :

(**وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ**)

[82] علاقة البشر بأي شيء أو شخص تنتهي بالموت ، ولكنها تسـتمر مع الـرب الى يـوم الـدين ، حيث لا تنفع علاقة أخرى.

(**وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**)

ان القلب الـواعي تنكشف له الحقـائق حـتى يبلغ ذروتها ، المتمثلة في اليقين بالبعث والنشور ، وهكذا كـان عند إبراهيم عليه السّلام.

---

(4) المصدر.

[83] لقد تجلت الحقـــائق لقلب إبـــراهيم (ع) حيث سـلم لـرب العـالمين ، ففاضت يقينا وسـكينة ، ونطقت بتطلعات سـامية من وحي تلك الحقـائق ، فمن آمن بـرب العالمين ، وعرف أنه الخالق الهادي ، والمطعم الساقي ، والشـافي ، والمحي المميت ، والغـافر للـذنوب فلا يملك نفسه أن يتضرع اليه ، ويطلب حاجاته.

وتطلعات الإنسان كبـيرة ، لأن الله خلق الإنسـان في أحسن تقـويم ، وأكرمه ، وفضـلّه ، وأودع في نفسه روح النمو والتســامي ، إلّا أن عبــادة الأصــنام تكبت النفس وتذلها وتميت تطلعاتها ، أما إبراهيم ـ عليه السّلام ـ الـذي تحــرر من هــذه العبــادة فقد انفتحت قريحته بالــدعاء ، وأعظم به وأعظم بمن دعا وأعظم بما دعا ، إذ قال :

(**رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً**)

هذا طلب عظيم ان تسـأل الله ان يجعلك خليفته في الأرض ، ويبدو أن الحكم هنا النبـوة أو العلم ، ومما يـدعو المؤمنون به قولهم :

«**رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُـــــرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً**». (5)

(**وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**)

وأكرم الصـالحين هم الأنبيـاء ، ويبـدو أن إبـراهيم (ع) طلب بـذلك الاسـتقامة على الطريقة حـتى النهاية ليلتحق بالصــالحين ، وذلك لعلمه أن الأمــور بخواتيمها ، وعلى الإنسـان ان يـوطّن نفسه لمقاومة الضـغوط حـتى يحظى بعاقبة حسنى.

[84] قد ينتهي الإنسان ، ويمحى أثره ، وينسى ذكره إلّا أنّ النفس السـويّة تتطلع الى بقـاء ذكـره الحسن من بعده ، كذلك قال إبراهيم :

---

(5) الفرقان / (74).

(**وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ**)

وكان رسـول الله ــ صـلى الله عليه وآله ــ هو دعـوة إبراهيم كما قال ، فهو ـ إذا ـ لسـان صـدق في الآخـرين ، حيث جدد شريعته ، وأعلى ذكره.

كما فعل ذلك الإمام علي ـ عليه السّـلام ــ حيث جـاء في تفسير علي بن إبراهيم في تفسير هذه الآية انه أمــير المؤمنين عليه السلام. (6)

وقد حــرض الإسـلام على البحث عن الــذكر الحسن ليس باعتبـــاره تطلعا مشــــروعا فقط ، وإنما أيضا لأنه يعكس كمال النفس وتكامليتها.

جاء في نهج البلاغة أن أمير المؤمنين (ع) قال :

«**الا وان اللسـان الصـالح يجعله الله للمـرء في الناس خير له من المال ، يورثه من لا يحمده**» (7)

[85] ما شر بشر بعــده الجنة ، ومنتهى رغبة النفس السـوية الحصـول على الجنة ، الـتي هي دار من ارتضـاه الرب وأرضاه.

(**وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ**)

[86] أول من تحدّى إبراهيم (ع) هو أبــوه آزر ، ولعله كان يحس ان له عليه حقا ، فلا بد من ان يبر اليه ، فــدعا له بالهداية ثم بالمغفرة ، فقال :

(**وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ**)

---

(6) المصدر / ص (57).

(7) المصدر.

ولعل الاستغفار للضال الذي لم يبلغ درجة الجحود حسن ، لا سيما إذا كان له حق ، ومعنى الاستغفار هنا هدايته فيما يبدو.

وكان إبراهيم قد وعد أباه بأن يستغفر له ، فقال : «**سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا**». [8]

ولكن إبراهيم تبرأ منه لما تحول من الضلالة الى العناد والجحود ، فقال ربنا سبحانه

«**وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**». [9]

[87] لم يكن إبراهيم مذنبا ، انه كان نبيا عليّا ، عصمه الله من الذنوب ، ولكنه حين وجد نفسه في حضرة ربه وجدها حافلة بالنقص ، فلم يملك سوى الاستغفار ، وطلب المزيد من الطهارة والكمال ، وليست هناك لغة بين القلب والرب أبلغ في الحب والهيام من لغة كلغة التذلل والاعتراف وطلب العفو. فقال إبراهيم عليه السلام :

(**وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ**)

ان الخزي ثمة بالنار حيث يقول المؤمنون : «**رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ**». [10]

---

(8) مريم / (47).
(9) التوبة / (114).
(10) آل عمران / (192).

[88] (**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ**)

وأعظم ما يستعبد البشر في الدنيا حبّ المال والبنين ، فاذا تحرّر من عبادتهما فقد فاز.

[89] (**إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**)

فـاذا سـلم القلب سـلمت الجـوارح ، وسـلامة القلب بتطهيره من حب الدنيا ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، كما أخبر الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ.

وجاء في الحديث المأثور عن الامـام الصـادق ــ عليه السلام ـ في تفسير الآية :

«القلب الذي سلم من حب الدنيا» [11]

[90] في ذلك اليـوم تـؤتى الجنة وتـزف الى المتقين كما العـروس تـزف الى زوجها ، أما النـار فتـبرز للكفـار ويعلمون انهم مواقعوها.

(**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ**)

[91] (**وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ**)

الذين ضلوا وأضلوا بعد علم.

[92] الوحي يفك العلاقات الاجتماعية الفاسـدة الـتي قد تتحـــول الى أقفـــال في القلب وأمـــراض ، وتمنعه الســـلامة ، ولكي ننظم علاقاتنا على أحسن وجه لا بد ان نجعل يوم القيامة المقياس ، ونتسـاءل : هل نسـتفيد من هذه العلاقة فنحافظ عليها ،

---

(11) مجمع البيان / ج (5) / ص (161 ، طبعة بيروت).

أم لا فنتحرر منها ، قال الله :

(**وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ**)

[93] (**مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ**)

كلا .. فلا ينصرون أحدا ، ولا هم أنفسهم ينصرون.

[94] تتلاحق أمــواج الكفــار وراء بعضــها لتلقي في جهنم الذين ضلوا والذين أضلوهم ، لا أحد ينصر أحدا.

(**فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ**)

أي دهدهوا ، وطرح فيها بعضهم على بعض.

ويبدو ان هناك ثلاث فـرق هما الجمـاهير ، والطغـاة ، ومن يؤيّدهم. جاء في الحديث المأثور عن الامام البـاقر ـ عليه السلام ـ قال :

«**هم قوم وصفوا عدلا بألسنتهم ثم خالفوه الى غيره**» (12)

[95] (**وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ**)

وهذا الفريق ـ كما يبدو ـ هم الذين أيّـدوا الطـاغوت ، فالذين يكبكبون في النار ـ بالتالي ـ ثلاث فرق : من اتّبعوا من عامة النـاس ، ومن اتّبعـوا من ولاتهم ، ومن سـاعدوا من جنودهم.

[96] وتتقطع في يــوم الحســرة أســباب العلاقة بين التابعين والمتبوعين ، بل تجدهم

---

(12) نور الثقلين / ج (4) / ص (59).

يتلاومون ويتلاعنون.

(**قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ**)

[97] (**تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

[98] (**إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ**)

لقد اعـترفوا بمـدى ضـلالتهم عن الحق وبعـدهم عن الصواب ، إذ جعلوا أندادهم سواء مع رب العالمين.

[99] ولكن من المســؤول عن ضــلالتهم هــذه؟ انى كان فهو قد ارتكب جريمة كبري بحقهم.

(**وَما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ**)

اختلف المفسرون في المجرم فقالوا : الـذين اقتـدوا بهم من الطغـاة ، أو الشـياطين ، أو الكفـار السـابقين ، الذين دعوهم الى الضّلال.

والواقع : أن كـــلّ أولئك ينطبق عليه هـــذا الوصف ، ولكن أحقهم جميعا بهذه الصـفة هم أدعيـاء الـدين والعلم الذين يشتغلون بتضليل الناس.

[100] واليوم أين أولئك المجرمون؟!

(**فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ**)

[101] (**وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**)

فلا أحد من هؤلاء المجـرمين يشـفعون لبعضـهم ، ولا حتى الصداقات الحميمة

تنفع ذلك اليوم.

بلى .. ان المؤمنين يشفع بعضهم لبعض كما جـاء في نصوص صريحة.

فالنبي ـ صلى الله عليه وآله ـ يشفع لأمته ، والأئمة ـ عليهم السلام ـ يشفعون لشيعتهم ، والمؤمنـون يشـفعون لبعضهم.

جاء في الحديث : عن أبّان بن تغلب قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول :

«ان المــؤمن ليشــفع يــوم القيامة لأهل بيته فيشفع فيهم حـتى يبقى خادمه ، فيقـول ـ ويرفع سبابتيه ـ : يا رب خويدمي كان يقيني الحر والـبرد ، فيشفّع فيه» [13]

[102] ثم تقطع الحسرة نيـاط أفئـدتهم ان لو كـانت لديهم فرصة أخرى حتى يكونوا مؤمنين.

(**فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً**)

رجعة الى الدنيا.

(**فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**)

[103] (**إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيَـةً وَما كـانَ أَكْثَـرُهُمْ مُؤْمِنِينَ**)

بالرغم من تظافر الآيات.

(13) بحار الأنوار / ج (8) / ص (61).

[104] (**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**)

هذه هي الحقيقة التي نستوحيها من كل تلك القصص التي يقصها ربنا في سورة الشعراء. هـدى ونـورا. ان ربك عزيز يأخذ الكــافرين بقــوة ، وهو رحيم ينصر المؤمــنين بفضله ومنّه.

كَـذَّبَتْ قَـوْمُ نُــوحٍ الْمُرْسَــلِينَ (105) إِذْ قــالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْــرٍ إِنْ أَجْــرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعــالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) قالَ وَما عِلْمِي بِما كـانُوا يَعْمَلُـونَ (112) إِنْ حِسابُهُمْ إِلاَّ عَلى رَبِّي لَـوْ تَشْـعُرُونَ (113) وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُـؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَـذِيرٌ مُبِينٌ (115) قــالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَــهِ يا نُــوحُ لَتَكُــونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَــافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحــاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُــؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْنــاهُ وَمَنْ مَعَــهُ فِي الْفُلْــكِ الْمَشْحُونِ

---

111 [الأرذلـون] : هم السـفلة والأوضـاع والـرّذل الوضـيع ، والرذيلة نقيض الفضيلة.

118 [فافتح] : الفتح الحكم ، والفتاح الحـاكم لأنه يفتح على وجه الأمر بالحكم الفصل.

(119) ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْـدُ الْبـاقِينَ (120) إِنَّ فِي ذلِـكَ
لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَـرُهُمْ مُـؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُـوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122)

وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ

هدى من الآيات :

الصراع الدائر بين رسالة الله ، وثقافة الأرض ، صراع ممتد عبر الزمن ، لأن رسالات الله تهدف تغيير كـلّ القيم الجاهلية ، وإقامة كيـان ثقـافيّ جديد ، فحين يـدعو نـوح قومه الى التسليم والإيمـان بالله ، فانه يـدعوهم في ذات الوقت الى التّسليم لكل القيم الإلهية الـتي تحمل التحضر والتمدن لأولئك الناس الـذين سـلموا لخرافـات الماضي ، وفسـاد الواقع ، وبـالرغم من ان الرسل (ع) قد تحملـوا الصعوبات في سـبيل تبليغ رسـالاتهم ، إلّا أنّهم اسـتطاعوا أن يغيّروا أفكار البشر ، حـتى أن الأفكـار الصـحيحة الـتي نجدها في الأقوام الجاهلية لا بد أن يكون مصدرها الرسل ، لأن الرسل كانوا بحق المحرك الأساسي للبشـرية ، وإلّا فإن البشرية كانت تسير بشكل طبيعي نحو النهاية.

ومن الصعب على بشر عادّي ، أن يـربّي جيلا كـاملا ، ويرفعه الى سماء القيم ، لأن ذلك يستوجب ان يبث فيهم وعيا وثقافة وروحا إيمانيّا يستحيل على البشر

العـــادي امتلاكه ، فكيف ببثّه في جيل كامل ، وعليه أيضا ان يتحدى الثقافة الموجودة ، ومن يقف خلفها.

ويجب أن نقف إجلالا لـذلك الفكر الـذي يصـيغ أجيـالا مؤمنة. أن نقف إجلالا أمام صبر الرسل وتضحياتهم كنــوح على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام.

كان يعيش مجتمع نـوح الطبقية والتجـبر في الأرض ، فكـانوا يحتجـون على نـوح (ع) بقـولهم : كيف نـؤمن لك واتّبعك الأرذلون؟! وكـانوا يهـددون نوحا ـ عليه السـلام ـ ومن اتبعه بالرجم تجبرّا وعلوّا في الأرض.

واتباع الأرذلين لنوح ليست مبرّرا لعدم الإيمان ، فـان كانوا ارذلين ، فربهم أولى بحسابهم ، وعلى كل حـال فلم تكن نهاية قوم نوح بأفضل من نهاية قوم فرعـون أو قـوم إبــراهيم حيث دعا نــوح ربه عليهم ، وســأله أن يفتح بينه وبينهم فتحا ، فـــــأغرقهم الله ونجّى نوحا ومن معه من المؤمنين.

ومرة أخرى تجلت عزة الله بالانتقـام من قـوم نـوح ، كما تجلت رحمته بنجاة المؤمـنين ، وكـان في ذلك أعظم آية ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

بينات من الآيات :

[105] (**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ**)

الأنبيـاء خــطّ واحد ومتكامل ، أرسـلوا كلهم من قبل رب واحد ، وتقف رســالاتهم جميعا ، من ناحية المبـــادئ العامة ، وتفترق في المحتـوى الاجتمـاعي ، فموسى جـاء لإزالة طاغوت زمانه ، وإنقاذ أمّة مستضـعفة ، ونـوح جـاء لإزالة الطبقية والتجــبر ، ومجــرد التكـذيب برسـول واحد يقتضي التكذيب بسائر الرّسل جميعا.

وربما معـنى هـذه الآية أنّ الله أرسل في قـوم نـوح أنبياء كثيرين كان آخرهم نوح (ع).

[106] لقد أرسل الله الى قوم نوح الجبارين أخا لهم في النسب لكي لا تمنعهم عصـبيتهم من اتبـاع رسـالات الله ، وفي هذا غاية المنّة عليهم.

(**إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ**)

ألا تحفظون أنفسكم من غضب الرب بترك الفسـاد ، ويبدو أنّ قومه كانوا قد بالغوا في عمل السيئات.

[107 ـ 108] (**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ**)

أمـرهم بطاعته باعتبـاره رسـول الله إليهم ، وهكـذا الرسل هم قـادة فعليّـون للمجتمع ، ويعارضـون القيـادات الفاسدة.

[109] وفـــرق كبـــير بين قيـــادة الرســـول لقومه والقيادات الأخرى ، إذ أنّه ـ بخلافهم ـ لا يكتسب شـيئا من قومه ولا يطلب أجرا.

(**وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ**)

[110] (**فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ**)

[111] (**قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ**)

هـــذه هي الطبقية ، أن يتحـــول المستضـــعفون إلى أراذل ، ويمتنعون عن الإيمان لمجـرد أن هـؤلاء قد بـادروا إليه.

وجـــاء في تفســـير علي بن إبـــراهيم : إنهم عنـــوا بالأرذلين الفقراء ، وجاء في تفاسير أخرى معان مشـــابهة كأصحاب المهن الدنيئة أو المساكين.

[112 ـ 113] (**قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ* إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ**)

أي إنّي لا أعلم عنهم إلّا خـــــــيرا ، فقد دعـــــــوتهم فاســـتجابوا لي ، وما انا بمحاســـبهم ان حســـابهم الا على ربي.

[114] (**وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ**)

لست مستعدا للخضوع إليكم بطرد المؤمـــنين ، وإنّما أنا نذير لكل الناس.

وهنا نلاحظ أن نبي الله نوح (ع) رفض ان يكـــون دينه دين المســـتكبرين ، فالمستضـــعفون إن كـــانوا مؤمـــنين مخلصـــين فهم خـــير من المســـتكبرين ، والـــدين ليس ملكا لنوح (ع) انه ملك لله ، فلا يحق له طرد المؤمنين.

[115] (**إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ**)

هـــذه حـــدود مســـئولياتي ، ما أنا إلّا نـــذير مـــبين ، ومن دخل في رحاب الله فالله أولى به.

[116] (**قـــالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَـــهِ يا نُـــوحُ لَتَكُـــونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ**)

انتهى دور الحجة ، وجـــاء دور التهديد ، فهـــددوه (ع) بأنه ان لم يكفّ عن دعوته ليكـــونن من المرجـــومين ، لأنه يلحق الضـــرر بكيـــانهم الاقتصـــادي ، والاجتمـــاعي ـــ في زعمهم ـ إذ كان يحرض ـ فيما يبـــدو ـ صـــغار القـــوم على كبارهم ـ لأنه كان

ينادي بإزالة الطبقية ـ ويبدو ـ انهم كانوا حسّاسين كما غيرهم من الكفار تجاه الرسالة وأفكارها ، فلذلك ناصبوها العداء.

[117 ـ 118] (**قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ* فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**)

اي اقض بيننا قضاء بالعذاب.

[119] (**فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**)

جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر (ع) ان المراد من الفلك المشحون :

«**المجهز الذي قد فرغ منه ، ولم يبق الا دفعه**» (1)

[120] (**ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ**)

بعد ان يستيئس الرسل ومتبعوهم ، أو يظنوا يقينا أنهم كذبوا آنئذ يأتيهم نصر الله ، لأن إرادة الله اقتضت أن ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويعذب من كذب ، ولكن الله لا ينصر إلّا بعد جهد جهيد ، وهذه سنة الله.

[121 ـ 122] (**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**)

إنّ الله لا تغرّه كثرة الكافرين ، وإنّ أغلب الناس لا يتعظون بالعبرة ، ولا يؤمنون بالرسل ، ولا يستفيدون من أخطاء الماضين.

---

(1) المصدر / ص (62).

ومرة أخـرى تتجلى العـزة الإلهية بـإغراق الكـافرين ، كما تتجلى الرحمة الالهية بنجاة المؤمنين.

كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ
أَلا تَتَّقُـــــونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُـــــولٌ أَمِينٌ (125)
فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُـونِ (126) وَما أَسْـئَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِنْ
أَجْـرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعـالَمِينَ (127) أَتَبْنُـونَ
بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُـونَ (128) وَتَتَّخِـذُونَ مَصـانِعَ لَعَلَّكُمْ
تَخْلُدُونَ (129) وَإِذا بَطَشْـتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130)
فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَـدَّكُمْ بِما
تَعْلَمُـونَ (132) أَمَـدَّكُمْ بِأَنْعـامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَـوْمٍ عَظِيمٍ (
135) قـــالُوا سَـــواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ
الْواعِظِينَ (136) إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَما
نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ

---

137 [خلق] : أي عادة من أخلاق.

فَأَهْلَكْنــاهُمْ إِنَّ فِي ذلِــكَ لَآيَــةً وَما كــانَ أَكْثَــرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)

وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ

هدى من الآيات :

بعث الله لعـاد من أنفسـهم رسـولهم هـودا ، فكـان يـــدعوهم الى رســالات الله ، ونبذ قيم الأرض ـــ وثقافة الشـعراء ــ وبـالرغم من أن هـودا كـان من نفس الوسط الاجتماعي لقـوم عـاد إلّا أنه كـان حنيفا عن ثقافة قومه ، ولم يتأثر بها لأنه اتصل مباشرة بالوحي ، فتحول من بشر عادي إلى بشر رسول.

ولقد أعطى الله لقوم عاد نعما وقوة ، فكانوا ينحتون من الجبال بيوتا ، ويتّخذون مصانع لعلهم يخلدون ، فطغوا وبغوا ، فكانوا إذا بطشوا بطشوا جبارين. وفي مقابل عاد كـانت الجزيـرة العربية مليئة بقبائل لا تسـتطيع ان تـؤمن معيشتها.

وفي نهاية القصة يتعـــرض القـــرآن الى نفس العاقبة التي يختتم بها القصص في هذه السورة ، ومن ثم تستنتج نفس العبرة وهي ان الله عزيز رحيم.

بينات من الآيات :

[123] (**كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ**)

كما أسلفنا أنّ التكذيب برسول يعني التكذيب بسائر الأنبياء ، فخط هود هو خط كلّ الأنبياء من قبله ، مع الاختلاف في المحتوى الاجتماعي لكل رسالة بسبب اختلاف الظروف ، وليس اختلاف رسالات الله.

[124] (**إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ**)

كان هود من وسط قومه ، فلذلك سمّى الله هودا أخا لقومه.

[125] (**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**)

أحمل رسالته إليكم بأمانة وصدق.

والأمين كلمة تتميز عن كلمة حفيظ ، فالحفيظ هو الحافظ للشيء ، بينما الأمين هو الذي يؤتمن ويحفظ ويؤدي.

[126] (**فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ**)

أوصاهم بتقوى الله ، وتطبيق مناهجه ، والتسليم لولايته وقيادته.

[127] (**وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ**)

أي لا أطمع في التسلّط عليكم ، ولا أريد منكم أجر تبليغ رسالة الله.

[128] (**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ**)

الريع هو المرتفع من الأرض ، وجمعه ريــاع ، وكــانوا يتخـذون لهم بيوتا عالية للهـوهم وعبثهم على المرتفعـات من الأرض.

[129] (**وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ**)

كــانوا يشــيدون المصــانع (القصــور) كما في اللغة ، وبمراجعة مشتقات الكلمة (صنع ـ يصنع ـ صنعا ــ مصـنوع ـ صانع) يتبين ان قوم عاد قد بلغوا نوعا من التقـدم ، وقد بين الله ســبحانه ذلك في ســورة الأحقــاف حينما قــال سبحانه : (**وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ**).[1]

ويبدو ان الآلة كان لها أثر كبير على حضارة قوم عـاد ، واســـتخدام الآلة في خدمة الإنســـان أو في تســـخير الطبيعة شــيء حميد ، إلّا أنّ الاســتخدام الســيء للآلة هو استخدامها بغرض الخلود.

[130] وتمني الخلود أو مجرد تصوره يـدعو الإنسـان الى الطغيان ، فلذلك بنى قوم عاد مساكنهم على الأريـاع ، وشــيدوا لهم القصــور ، فــاغتروا بما صــنعوا ، وعند ما اغـتروا تجبّـروا وتكبّـروا ، فوجهـوا قـواهم وبطشـهم لمن حولهم ، قال تعالى :

(**وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ**)

ان بطشــكم ليس على المخطــئين ، ولكن بطشــكم من أجل نشر تسلّطكم ، ونشر الرعب في قلوب الآمنين.

[131] (**فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ**)

---

(1) الأحقاف / (26).

كرر الله عن لسان هود (ع) كلمة التقوى أربع مــرات ، وهــذه الآية هي المــرة الثالثة ، وربما يتســاءل البعض : لماذا كرر الله التقوى أربعا؟

والجــواب : ان التقــوى كلمة ليست ذات بعد واحد ، فأمام كل ذنب تقوى ، فالتقوى في الكذب تـرك الكـذب ، وفي الكفر الايمان ، وفي الاجـرام الـترك ، وفي الاعتـداء التورع.

وعلى هــذا فــالتقوى في هــذه الآية تتمثل في تــرك العبثية ، وإبعـاد فكـرة الخلـود ، واجتنـاب البطش بالنـاس نكاية بهم ، وهكــذا قــوم هــود كلما ذكر انحــراف عنــدهم أمرهم بالتقوى في الله لأن الانحـراف يـؤدي الى العـذاب الإلهي الذي لا بد من اجتنابه ، أما التقــوى في الآية التالية فلعل المــراد منها الشــكر ، وتــرك الكفر بنعم الله بعــدم أداء حقوقها.

وقد أرفق هـــود بكلمة التقـــوى كلمة «وأطيعـــون» للدلالة على أنّ الإصـلاح يمر عــبره ، لأنه يمثل خلافة الله في الأرض.

[132 ـ 133] (**وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَـدَّكُمْ بِما تَعْلَمُـونَ* أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ**)

ربما تشير هاتين الآيتين الى مرحلة البـداوة الـتي مـرّ بها قوم عــاد ، ويشــير الله إليها بقوله : «**بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ**» وهذه النعم عادة ما تكون لأهل الصحراء.

[134] أما المرحلة الثانية التي مر بها قوم عــاد فهي مرحلة التحضر ، وذلك في قوله سبحانه :

(**وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**)

حيث ان الزراعة نـــوع من التقـــدم في مســـيرة البشرية.

[135] (**إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**)

أشـفق هـود على قومه أن يحـلّ عليهم عـذاب يـوم عظيم ، ولعل الفـرق بين العـذاب العظيم وعـذاب يـوم عظيم الـذي ذكـره القـرآن هو : ان العـذاب إذا نسب الى اليـوم فكأنه يسـتوعبه ، ويسـتمر بامتـداده ، ولعله يكـون أكثر من نوع واحد من العذاب. فحذرهم ذلك اليوم.

[136] (**قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ**)

كلاهما سواء ، وعظت أم لم تعظ ، لن نؤمن لك.

[137] (**إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ**)

وسم قـوم عـاد نـبيّهم هـودا (ع) بالرجعية ، والأفكـار المتخلفة عند ما قـــالوا : «**إِنْ هـــذا إِلَّا خُلُـــقُ الْأَوَّلِينَ**» وذلك لأن نبي الله نوح (ع) أوصى بنيه بأن سـيكون بعـده نـــبي من ذريته ، وأعلمهم صـــفاته ، وأوصـــاهم بطاعته ؛ فكانت هذه الوصـية تراثا يتوارثها الأجيـال ، وكـان عنـدهم عيد يقيمونه كل عام ، يذكّرون أنفسهم بوصية جدهم نوح (ع) وعند ما جـــاءهم هـــود كفـــروا به ، فلعنة الله على الكافرين.

جاء في الحديث عن الامام الصادق (ع) انه قال :

«**ان نوحا (ع) لما انقضت نبوّته ، واســـــــتكمل أيّامه أوحى الله اليه : يا نـــوح! قد قضـــيت نبوتك ، واســـتكملت أيامك ، فاجعل العلم الـــذي عنـــدك ، والإيمـان ، والاسم الأكـبر ، ومـيراث العلم ، وآثـار علم النبوة في العقب من ذريتك ، فاني لن أقطعها كما لم أقطعها من بيوتـات الأنبيـاء ، الـذين كـانوا بينك وبين آدم (ع) ولن**

أدع الأرض إلّا وفيها عالم يعـرف به ديـني ، وتعـرف به طـاعتي ، ويكـون نجـاة لمن يولد فيها بين قبض النبي الى خروج النبي الآخر»

قال (ع):

«**وبشر نوح ساما (ابنه) بهود عليه السلام**» [2]

[138] (**وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**)

أي لسـنا بمعـذبين لكرامتنا عند الله ، وربما تصـوّروا أنهم ليسوا بمعذبين لاستحالة العذاب.

[139] (**فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ**)

يختصر الله المســافة بين التكــذيب والإهلاك بقوله : «**فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ**» لأن هذه الفـترة ينسـاها من يحل عليه العـذاب ، فتكـون عنـده الحيـاة يوما أو بعض يـوم ، ولحقـــارتهم أيضا عند الله عمهم بالجملة ، مختصـــرا كل حيـــاتهم وما بنـــوا وما بطشـــوا وما كفـــروا في هـــاتين الكلمتين.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ**)

أي في إهلاكهم آية ، ولكن أكـثر النـاس عند ما تمـرّ عليهم مثل هذه العـبر لا يؤمنـون بها ، فيجـري عليهم الله سنته بأن يهلكهم بعد الإنذار.

ولكن الـذي يسـتفيد من العـبر هو من آمن ، وخـاف وعيد الله ، وصدق بأن لله عقابا.

---

(2) نور الثقلين / ج (2) / ص (62).

[140] (**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**)

تتجلى عزّة الله بأن أخذ قوم عـاد أخذ عزيز مقتـدر ، وتتجلى رحمته أنه نجّى هودا ومن آمن معه.

كَـذَّبَتْ ثَمُـودُ الْمُرْسَـلِينَ (141) إِذْ قـالَ لَهُمْ أَخُـوهُمْ
صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ (143)
فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُـونِ (144) وَما أَسْـئَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِنْ
أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُـونَ
فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ (147)
وَزُرُوعٍ وَنَخْـلٍ طَلْعُها هَضِـيمٌ (148) وَتَنْحِتُـونَ مِنَ
الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُـونِ (
150) وَلا تُطِيعُـوا أَمْـرَ الْمُسْـرِفِينَ (151) الَّذِينَ
يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْـلِحُونَ (152) قـالُوا إِنَّما
أَنْتَ مِنَ الْمُسَـحَّرِينَ (153) ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَـرٌ مِثْلُنا
فَـأْتِ بِآيَـةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّـادِقِينَ (154) قـالَ هـذِهِ
ناقَةٌ لَها شِـرْبٌ وَلَكُمْ شِـرْبُ يَـوْمٍ مَعْلُـومٍ (155) وَلا
تَمَسُّوها بِسُـوءٍ فَيَأْخُـذَكُمْ عَـذابُ يَـوْمٍ عَظِيمٍ (156)
فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا

---

157 [فعقروها] : العقر هو قطع شيء من بدن الحي.

نادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَـةً وَما
كـانَ أَكْثَـرُهُمْ مُـؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُـوَ الْعَزِيـزُ
الرَّحِيمُ (159)

وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ

هدى من الآيات :

عـــاش قـــوم ثمـــود ، وهم عشر قبائل في أطـــراف الجزيـرة العربية ، في إحـدى الواحـات ، عند سـفح جبل منيع (مدائن صالح) وصنعوا بيـوتهم فيه ، وكـانوا يزرعـون أسـفل الـوادي ، فـازدهرت حضـارتهم ، وانحرفـوا عن فطرتهم بعد ما بطرت معيشتهم ، والبطر جعل قوم ثمود طبقتين : طبقة غنية متسلطة ، وأخرى فقيرة مسحوقة ، ففسدوا وأفسدوا معهم المستضعفين.

فجـاء نـبيهم صـالح (ع) لينهي النـاس عن إطاعة أمر المسرفين ، المفسـدين في الأرض ، الـذين لا يصـلحون ، وآنئذ اتهموه بأنه من المسـحّرين ، فـأت بآية إن كنت من الصـادقين ، فجـاءهم بالناقة لها شـرب ولهم شـرب يـوم معلوم ، خانوا الله فيها فعقروها فأصبحوا نادمين.

وأخـيرا يتعـرض الله لنفس النتيجة الـتي يكررها في كل درس.

بينات من الآيات :

خصائص الرسول :

[141] (**كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ**)

الذي يكذب برسـول ما ، لو فكر قليلا لـرأى ان سـنة الله في الحياة ان يبعث رسلا ، وإرسـال صـالح الى قومه ثمـود لم يكن خارجا عن تلك السـنّة ، قـال تعـالى : (**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ**). [1]

[142] (**إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ**)

والتقـوى هنا الحـذر من العـذاب الـذي يتوقّع نزوله بسبب فسادهم في الأرض.

ولعل تكرار اسـتخدام هـذه الكلمة في هـذه السـورة يهـدف زرع نبتة التقـوى في القلب ، إذ أنّ السـياق يربط بين هلاك القوم بذنوبهم وبين أعمالهم ، لعل التالي للذكر ـ انا وأنت ـ يزداد إيمانا بهـذه الحقيقة : إن الجـزاء سـيتّبع العمل ، فلا يختـار عملا سـيئا مهما كـان صـغيرا ، ذلك أن سنة الله واحدة في الحقـائق الكبـيرة والصـغيرة ، فالنـار هي النار ، طبيعتها واحدة في قليلها وكثيرها.

[143] وللداعية الى الله شـــرطان : رســـالة يعيها تماما ، وأمانة يحافظ عليها.

(**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**)

[144 ـ 145] وهكذا تنتظم الحياة اليـوم بفقه الـدين (الرســالة) والالــتزام به ، والاتســام بالعدالة الشــرعية (الأمانة).

---

(1) فاطر / (24).

ومسـئولية النـاس تجـاه الرسـالة تقـوى الله ، وتجـاه حامل الرسالة طاعته.

(**فَـاتَّقُوا اللـهَ وَأَطِيعُـونِ* وَما أَسْـئَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ**)

تأكيد لله ـ سبحانه وتعـالى ـ على هـاتين الآيـتين في هذه السورة يبيّن لنا أن من صـفات الرسل أنهم يتّخـذون رسـالتهم وسـيلة للتقـرب الى الله ، بيد أنّ الشـعراء يتخذون شعرهم وسيلة للاكتساب.

[146 ـ 147 148] (**أَتُتْرَكُـونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ* فِي جَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ* وَزُرُوعٍ وَنَخْـلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ**)

أتحسبون أنكم مـتروكون .. تتمتعـون بـالنعم والأمن ، وحولكم جنات وعيـون ، وزرع ونخيل طلعها جميل جـذاب ومنسق.

فلا تحسـبوا أنّ النعم والأمن تـدوم لكم ، وأنتم مخلـدون فيهما ، فقد يأخـذكم عـذاب بـئيس ، فلا تستطيعون صرفا ولا نصرا.

[149] وكذلك لا يأخذكم الغرور بقـوتكم لأنكم تبنـون لكم بيوتا فارهة ، غاية في القوة والمتانة والإبداع.

(**وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ**)

لقد بلغت حضـارة ثمـود مبلغا من التقـدم ، حيث اهتمـوا بالزراعة ، كما اهتمـوا ببنـاء المصـائف والمـدن الجبلية ، وقد وصف الله بيـوتهم الـتي ينحتونها بأنها فارهة ، وهـذه ليست من عـادة المنـاطق الجبلية ، وانما يبنـون الواسع من البيوت في سفوح الجبال لأنهم اسـتكبروا في الأرض.

[150 ـ 151] (**فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ* وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ**)

للإسـراف أبعـاد : إما في المـال ، أو في الظلم ، أو في المعاصي ، وهذا يؤكد انه كان في قوم ثمود كثـير من الطواغيت المتكبرين.

والملاحظة الأخرى أنّ الطبقية كـانت منتشـرة فيهم ، إذ قـال نـبيهم صـالح (ع) لهم : «**وَلا تُطِيعُـوا أَمْـرَ الْمُسْـرِفِينَ**» حيث يبـدو أن هـذه الطبقة أضـحت طائفة خطيرة تزحف نحو القيادة.

وقال لهم نبيهم صالح (ع) اطيعـوني ، ولا تطيعـوا أمر المسرفين ، وقد سبّق طاعته بتقوى الله وقال : «**فَاتَّقُوا اللـهَ وَأَطِيعُـونِ**» لكي يـبرر طاعته للنـاس بـأن طاعته امتداد لطاعة الله.

ويبـدو أن جـوهر الفسـاد ، أو العامل الرئيسي له هو الإسـراف ، فـاذا زادت النعمة على الإنسـان أسـرف في تلك التي أعطاها الله إيّاها ، وبالتالي جعلها مـادّة لفسـاده ، فقد يعطي الله إنسانا نعمة الجمال فيفسد بها ، أو نعمة الجنس فيفسد بها ، أو نعمة المـال والولد فيتجـبر بهما ويطغى على من هو دونه ... وهكذا.

فبدل أن يصل بهذه النعم إلى رضـوان الله ، وإصـلاح المجتمع ، وعمـارة الأرض ، إذا به يصل إلى عبـادة ذاته ، وبالتالي الإفساد في الأرض.

ان الله يرزقنا النعم كي نسـتفيد منها في عمـارة الأرض ، والبلوغ الى جنانه ومرضاته ـ سبحانه ـ فقد رزقنا الله اليد لنأخذ بها حقّنا لا ان نبطش بها ، والعين لنبصر بها لا ان ننظر الى الحـرام ، واللسـان كي نسـمع النـاس الحكمة لا ان نتطـاول به بالغيبة والبهتـان والسـباب ... وهكذا.

وفي يـــوم القيامة يحتج الله على العبـــاد ، فيـــأتي بيوسف حجة لمن فسد بجماله ، وبمـــــريم لمن بـــاعت نفسها ، وبأيوب لمن لم يصبر عند البلاء.

[152] من هم المسرفون؟

بعد ان كـانت ثمــود تعمر الأرض بالزراعة والبنــاء ، نمت فيها طبقة المسرفين الذين أصـبحوا بـؤرة الفسـاد ، وعند ما تنحـرف مسـيرة المجتمع ، ويتسـنّم ذروة القـرار فيها أناس همّهم الإفساد ، فان خطاهم نحو النهاية سوف تتسـارع ، وفي هـذه اللحظـات الحاسـمة من تـاريخ الأمم يبعث الله رسـله لعلهم يتوبـون اليه ، ويتقونه ويطيعـون رسله.

(**الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**)

وإذا غلب على الإنسـان حالة الإفسـاد فانه لن يكـون مصلحا ، وما يتظـاهر به من الـدعوة الى الإصـلاح هـواء ، وهذا شأن المسرفين.

(**وَلا يُصْلِحُونَ**)

واليـوم يصـنع المسـتكبرون وسـائل إبـادة البشـرية جميعا ، ثم ينــادون بالســلام أو بحقـــوق الإنســان وهم كاذبون.

ولعل من معـاني الإسـراف بالاضـافة الى الإسـراف بالمال ، الإسراف بالفساد ، وسفك الدماء.

جاء في الحديث عن الامام الباقر (ع):

«**المسـرفون هم الـذين يسـتحلون المحـارم ، ويسفكون الدماء**» [2]

---

(2) ميزان الحكمة / ج (4) / ص (447).

[153] (**قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ**)
اي أنه قد أصيب بسحر ، ويبدو ان هذا الكلام تهمة خفيفة بالجنون!

فأت بآية :
[154] (**ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا**)
أنت بشر مثلنا ، وصحيح ان الرسول بشر مثلهم إلّا أنّه يوحى إليه ، وقد كانوا يتصورون ـ كما فرعون وكفار قريش ـ أنّ الرسول يجب ان يكون متميّزا عليهم ، بأن يكون معه الملائكة ، أو يلبس الذهب ، أو يملك الخزائن ، أو أنهم من جنس آخر غير جنس البشر ، وإنما أرسل الله الرسل من جنس البشر لكي يكون الايمان به بحرية ، وعن يقين وعلم تاميّن ، فلو أرسل الله الرسل كما يتصورون إذا لانتفى أساسا الاختبار.
(**فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**)
يؤمن بعض الناس بمجرد رؤية شواهد الرسالة ، كأن يؤمنون لأنّ رسلهم السابقين أشاروا الى هذا النبي ، بينما يؤمن بعضهم لما يراه من صفات الرّسل ، وهناك أناس لا يؤمنون الا بالمعجزة ، ويبدو أن قوم ثمود كانوا يعرفون رسولهم ، ولكنهم يفقدون الثقة به ، فهم يحتاجون الى دليل صارخ على صدقه.
[155] (**قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ**)
أتى لهم صالح بمعجزة الناقة وفصيلها التي تشرب الماء يوما ، ويشربون الماء يوما ، وفي اليوم الذي تشرب فيه تدر عليهم اللبن.

[156] (وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَـذابُ يَـوْمٍ عَظِيمٍ)

وأمـرهم بـأن لا يمسـوا الناقة بسـوء ، فيأخـذهم الله بعذاب يوم عظيم.

فالانضـباط ، والـتزام الأوامر لهما الفضل الأكـبر في ديمومة الحضـارة ، وبعكسـها التسـيّب والاعتـداء ، لأنهما يخالفان سنن الحياة الطبيعية.

[157] (فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ)

انهم شـــعروا بالنـــدم على قتلهم الناقة (والقتل من الذنوب التي تورث الندم) كما في الحـديث الـذي اسـتدل بقوله في قصة ابـــــني آدم : «فقتله (فَأَصْـــــبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)».

[158] (فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ)

نزل بهم العذاب ، وكان طاغية عليهم.

(إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

فهل من معتبر؟! فبـالرغم من ان إهلاك القـوم نـذير صاعق الّا أن آذان أكثر الناس تصمّ دون هذا النذير.

[159] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

جمع في نفسه العزة والرحمة ، فهو شديد العقـاب ، ولكن رحمته سبقت عذابه الا على القوم الكافرين عند ما يسلط عليهم العذاب ، فآنئذ لا محل لرحمته.

كَـذَّبَتْ قَـوْمُ لُـوطٍ الْمُرْسَـلِينَ (160) إِذْ قـالَ لَهُمْ
أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُـونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ
(162) فَـاتَّقُوا اللَّـهَ وَأَطِيعُـونِ (163) وَما أَسْـئَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعـالَمِينَ (164)
أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ
لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَـوْمٌ عـادُونَ (166)
قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَـهِ يا لُـوطُ لَتَكُـونَنَّ مِنَ الْمُخْـرَجِينَ (
167) قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي
وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَـهُ أَجْمَعِينَ (
170) إِلاَّ عَجُـــوزاً فِي الْغـــابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَّرْنَا
الْآخَـرِينَ (172) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَـراً فَسـاءَ مَطَـرُ
الْمُنْذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَـةً وَما كـانَ أَكْثَـرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175)

---

168 [القالين] : القالي هو المبغض.

أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ

هدى من الآيات :

في سياق بيان رسالات الله واهدافها الاصلاحية يــبين ربنا قصة قوم لـوط الـذين انحرفـوا جنسـيا ، فأرسل الله إليهم رسـولا من أنفسـهم انبـأهم بأنه يحمل إليهم رسـالة ربهم بأمانة ، وأمـرهم بتقـوى الله وطاعته وقـال : بأنه لا يطلب منهم اجـرا ، ولكنه يعمل لهم في سـبيل الله الـذي يرجو ان يعطيه الأجر الـــــوافي ، ثم واجه انحرافـــــاتهم الكبرى وهي الاباحية والشذوذ الجنسي ، حيث كانوا يأتون الذكران من أيّ قوم كانوا ، ويـذرون ما خلق الله لهم من أزواجهم ، ونعتهم بالتعدي عن الحق والجور.

فهـددوه بـالإخراج ان لم ينته من معارضـتهم ، ولكنه تـــبرّأ من عملهم ، وســأل الله ان ينقـــذه من ذلك العمل القبيح ، فنجاه الله وأهله جميعا سوى زوجته العجوز الـتي هلكت وأضحت عبرة.

ودمر الله الآخـــرين ، وذلك بـــان أمطر عليهم مطر السوء ، وبئس المطر كان

لأولئك الــذين تم ســلفا إنــذارهم وبقيت من قصــتهم آية وعلامة لعل الناس يهتدون ، الا أن أكثر الناس لا يؤمنـون. وخلاصة الحقيقة الــتي يمكن معرفتها بهــذه الآية هي ان الله عزيز رحيم.

وهكــذا تختلف صــور الفســاد ونهايته واحــدة مهما اختلفت صـــوره ، ولعل الســـبب الرئيسي للفســـاد هو الإسراف.

بينات من الآيات :

(**أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ**)؟

[160 ـ 164] (**كَذَّبَتْ قَـوْمُ لُـوطٍ الْمُرْسَـلِينَ* إِذْ قـالَ لَهُمْ أَخُـوهُمْ لُـوطٌ أَلا تَتَّقُـونَ* إِنِّي لَكُمْ رَسُـولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ* وَما أَسْـئَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ**)

ذات الكلمات ، وذات النـبرة نسـمعها من لـوط (ع) ، لان جــوهر الانحــراف عند كل قــوم واحد ، بــالرغم من اختلاف صوره ، فلا بد ان يكون جوهر الرســالات واحــدا ، بـــالرغم من اختلاف كل رســـالة عن غيرها في مجـــال الإصلاح الذي يستتبع نوع الانحراف.

[165] (**أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ**)

ولعل هـــذه الآية تشـــير الى طبيعة فســـاد الاباحية والشــذوذ الجنسي حيث إنه ينتشر ويتعــدى حــدود البلد ، وقد انتشر فعلا الفساد الخلقي عند قوم لـوط حـتى قـال آسفا : أليس منكم رجل رشـيد؟! ، وتعـدى فعل الفاحشة الى كل العالمين.

[166] (**وَتَذَرُونَ ما خَلَـقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ**

(**عادُونَ**)

عادون : اي تتعدون.

كـان تـركهم الأزواج وإقبـالهم على الـذكران تعـديا وتجاوزا ، بل وتمردا على الفطرة التي فطر النـاس عليها ، ولم يكن هدفهم ـ والله أعلم ـ إشباع شـهوتهم ، بـالرغم من ان الله يلقي على الملاط به ــ والعيـاذ بالله ــ شـهوة النساء ، فمقاربة النساء أكثر شـهوة من مقاربة الرجـال ، ولذا سماهم الله سبحانه بالعادون.

والـزواج في الإسـلام ضـمان من الانحـراف ، وهو صمام أمـان لمثل هـذه الانحرافـات والـتي صـارت تجتـاح البشرية بشكل مريع.

اني من القالين :

[167] (**قـالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَـهِ يا لُـوطُ لَتَكُـونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ**)

هـددوا نـبيهم بـالنفي والإخـراج ، لأنهم صـاروا لا يتحملـون كلمة وعظ أو إرشـاد ، بل ان الشـذوذ الجنسي صـار عرفا اجتماعيا ، وكل من ينتقد هـذا العـرف يعتـبر شـاذا ، فالغـارق في الشـهوة ، لا يحب من يكـدّر صـفو شهوته.

[168] (**قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ**)

رافضا لعملكم ، متحد لعـاداتكم. فهو أراد الابتعـاد النفسي عن عملهم ، ومعـروف ان من رضي بعمل قـوم حشر معهم ، ومن رفض عملهم لن يحشر معهم.

والميل النفسي المجرد لعمل قبيح سبب من أسـباب ممارسـته ، بينما تقـبيح العمل ، والعـزوف النفسي عنه يمنعان من ممارسته ، والانغماس فيه.

والتحــدي من صــفات الأنبيــاء العظــام (ع) ، إذ أنهم يتحــدّون الانحرافـات بقـوة وصـراحة ، ولا يخشـون بطش مجتمعاتهم.

[169] (**رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ**)

تــبرّأ إلى الله ســبحانه من عملهم ، ورجــاه بــان لا يكونــوا شــركاء قومه في فواحشــهم ، فهو يخــاف على عائلته ان يصـيبهم مثل ما أصـاب قومه ، فلـوط (ع) ذلك الأب الــذي يحــاول ان يجنب أهله الفســاد ، ويحصــنهم بالتربية ، وليس هو ممن يــترك لأولاده الحرية المطلقة ، ويترك تربيتهم على أمثالهم أو على الناس.

[170 ـ 171] (**فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ**)

عند ما يـأتي الضـيوف للـوط (ع) ــ وكـان مضـيافا ــ كـانت امرأته تشـعل النـار على سـطح بيته ليلا ، أو تنفخ الدخان نهارا ، لتعلم قومها بـأن في بيتها ضـيوفا ، فيهـرع قومه الى بيته ، يطلبون الفاحشة من ضيوفه ، وكان لوط يسـتغل مثل هــذه المناســبات ليعظ قومه من أجل ذلك كـانت زوجته في الغـابرين ، والغـابر من الغبـار المتخلف عن الكنس ، ونســتوحي من هــذا التعبــير انها ألقيت في مزبلة التاريخ.

[172] (**ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ**)

التدمير هو الابادة التامة ، وكان تدمير الله لهم قويا ، بحيث إنه لم يـترك حجـرا على حجر ، وكـانت قـرى لـوط سبعا.

[173] (**وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَــراً فَســاءَ مَطَــرُ الْمُنْذَرِينَ**)

ما هو هذا المطر؟

يبــدو ان هــذا المطر أحد شــيئين ، إما حجــارة من السـماء كالنيـازك والشـهب ، وهو أمر مسـتبعد نوعا ما ، لان السماء لا تسقط بهذه الكثافة من الحجارة حتى تدمر سبع قـرى كاملة ، وان كـان ذلك ليس على الله ببعيـد. أو ان المطر هو انفجار بركاني ، من قمة جبل قريب منهم ، وهو احتمال يمكن ان يكون صحيحا.

[174 ـ 175] (**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**)

ما أرحم الله بعباده ، حتى بعد انحرافهم وفسـادهم لا يأخذهم حتى يبعث فيهم رســولا ، ويقيم عليهم الحجة بعد الحجة.

وما أعـزه من اله مقتـدر جبّـار ، يأخـذهم إذا تمـردوا على رسله بأشد العذاب في الدنيا ، ولعـذاب الآخـرة أشد وأخزى.

ومع كل تلك الآيات ترى أكثر الناس لا يؤمنون ، حـتى يحل بهم العذاب مباشرة.

كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ

---

183 [ولا تبخسوا] : لا تنقصوا ، والبخس هو النقص فيما يجب على الإنسان إعطاؤه.
[ولا تعثوا] : العثيّ أشد الفساد.
184 [الجبلة] : الخليقة.

مِنَ الصَّـادِقِينَ (187) قـالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُـونَ (
188) فَكَـذَّبُوهُ فَأَخَـذَهُمْ عَـذابُ يَـوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كـانَ
عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيَـةً وَما كـانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الـرَّحِيمُ
(191)

وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

هدى من الآيات :

وأصحاب الأيكة أيضا كذبوا الرسل ، إذ قال لهم نبيهم شعيب (ع) : أوفوا الكيل ولا تكونوا من المفسدين ، وزنوا بالقسطاس المسـتقيم ، ولا تعثـوا في الأرض مفسـدين ، فكذبوا رسـولهم ، وتحـدّوه ان يـأتيهم بآية ، فأخـذهم الله بعذاب يوم الظلة ، انه كان عذاب يوم عظيم.

وأصـــحاب الأيكة هم قـــوم يســـكنون جانبا من غابة خضراء ، والأيكة هي الأشجار الملتفة حول بعضها.

إنهم أصـبحوا سـباعا على بعضـهم البعض ، كل يبحث عن الـرزق من غـيره ، فبـدل ان يتعـاونوا مع بعضـهم من أجل اسـتخراج خـيرات الطبيعة ، واسـتثمار تلك الغابـات أصبحوا يطففون الميزان ، وعصوا رسولهم شعيب.

بينات من الآيات :

(**وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ**) :

[176] (**كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ**)

الأيكة وجمعها أيائك وهي الغياط والحدائق الكثيفة.

[177 ـ 180] (**إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ* وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ**)

كل الأنبياء جاؤوا بمحتوى عقائدي واحد ، ولذلك فالتكذيب برسول تكذيب بكل الرسل ، ولعل تأكيد الأنبياء على أنهم لا يطالبون بأجر يعتبر بمثابة إسقاط حقوقهم سلفا.

[181] (**أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ**)

[182] (**وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ**)

زنوا بالعدل والقسط. والقسطاس هو الميزان ، وليس ميزانا فحسب بل ميزانا مستقيما ، ويبدو ان الواجب هو العطاء بمقدار الوزن لا زيادة ولا نقصان ، وجاءت الروايات لتجعل الوفاء بالميزان من المستحبات ، فواجبك ان تعطي مستقيما ، ولكن من المستحب ان تزيد في الكيل.

[183] (**وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**)

كـانت علاقة أصـحاب الأيكة ببعضـهم علاقة إفسـاد ، فبـدل ان يتعـاونوا على الانتـاج ، إذا بهم يفسـدون في الأرض ، وكـان البعض يأكل من الآخر ، فكـان الـزارع لا يعتمد على زراعته ، والمنتج لا يعتمد على انتاجه ، لأنهما كلما زرعا وانتجا أكل ريعهما الرأسـماليون الجشـعون ، فكـانوا مضـطرين ان ينضـموا الى هـذا الكيـان الفاسد اقتصاديا ، ويبدو أنّ السلطة كانت للسارقين شأنهم شـأن الانظمة الرأسمالية اليـوم والواقع : نفسـية الحـريص هي نفسـها نفسـية الفـاتح العسـكري ، الامـبراطور و.. و.. ، ونفسية هؤلاء وغيرهم هي نفسية الاستعلاء ، قال تعالى : (**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**) [1] وجاء في الحديث :

«**ان ابن آدم لو كـان يملك مثل أحد ذهبا لتمـنى آخر**»

وهذه النفسـية قد تكـون عند الفقـير ، فهنـاك فقـراء متكبرين ، وجـاء في قصة : ان الرسـول (ص) مـرّ وبعض أصحاب أحد طرقات المدينة ، وإذا بامرأة عجـوز شـمطاء دميمة الخلق ، تمـــــلّ رزقها من القمامة ، فقيل لها : افسـحي الطريق لرسـول الله (ص) فقـالت : ان الطريق ليس ضيقا ، فنهرها الاصحاب ، فقال لهم الرسول (ص):

«**دعوها فانها امرأة جبارة**»

[184] (**وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ**)

اتقـوا الله الـذي خلقكم والـذين من قبلكم ، ولا تتعاملوا بينكم بالتطفيف.

[185] (**قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ**)

لماذا قالوا إنك من المسحرين ، اي المسحورين؟

---

(1) العاديات / (8).

قالوا ذلك لأنهم كانوا يحترمون شعيبا (ع) وكـان فيهم مرجوا ، وكانوا يعقدون الآمال عليه لسعة عقله.

قال تعـالى : (**قالُوا يا شُـعَيْبُ أَصَـلاتُكَ تَـأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشـؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**).[2]

فما نسـبوه الى الجنـون ، وانما قـالوا : أنت متـأثر بسحر الآخرين.

[186] (**وَما أَنْتَ إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ**)

أنت بشر مثلنا ، فهل يمكن ان تكـون رسـولا؟! انا نظنك من الكاذبين.

[187] (**فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**)

لم يصـدقوا ان الله قـادر على ان يزيل النعم عنهم ، فتحـدوا رسـولهم ان يسـقط عليهم كسـفا من السـماء ، فكيف يـؤمن من عـاش محاطا بـالنعم بعـذاب من عند الله؟!

ويبدو ان شـعيبا (ع) خـوّفهم عـذاب الله ، وهل هو الا نذير بين يدي عذاب مبين؟!

[188] (**قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ**)

لم يدع على قومه بالعذاب ، وانما أو كل أمـرهم اليه سبحانه ، فهو أعلم بهم ، وأعلم بما هو الأصـلح ، ان شـاء هداهم وان شاء عذبهم.

---

(2) هود / (87).

[189] (**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَـذَهُمْ عَـذابُ يَـوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**)

فلما كذبوا رسولهم أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، إذ أصيبوا بحر شديد ، واستمر ذلك الحر ستة أيام ، فمات الكثيرون ، ولم تنفعهم ايائكهم وغياطهم ، فلما كان يوم السابع ، أرسل الله عليهم سبحانه تظللهم ، فصاروا يمشون معها كلما مشت ، فلما توسطوا الصحراء ، أنزل الله عليهم من السحابة صاعقة ، فاذا هم خامدون ، نعم كلما أحدث الناس ذنبا أحدث الله لهم بلاء مناسبا لذلك الذنب ، ويبدو ان نوع العذاب الذي نزل على أصحاب الايكة كان متناسبا مع ذنبهم ، حيث انخدعوا بالسحابة بمثل ما غشّوا بعضهم ، وطففوا في الميزان.

[190] (**إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيَـةً وَما كـانَ أَكْثَـرُهُمْ مُؤْمِنِينَ**)

كل انحراف في أية أمة يتبعه نوع محدد من العذاب ، وكل انحراف في الماضي هناك ما يشابهه في الحاضر ، وكل عذاب هو آية لمن يمارس نفس الانحراف.

[191] (**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**)

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيـلُ رَبِّ الْعـالَمِينَ (192) نَـزَلَ بِــهِ الـرُّوحُ
الْأَمِينُ (193) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194)
بِلِسـانٍ عَـرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُـرِ الْأَوَّلِينَ (
196) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَـــةً أَنْ يَعْلَمَــــهُ عُلَمــــاءُ بَنِي
إِسْـرائِيلَ (197) وَلَـوْ نَزَّلْنـاهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (
198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذلِكَ
سَلَكْناهُ فِي قُلُـوبِ الْمُجْـرِمِينَ (200) لا يُؤْمِنُـونَ بِـهِ
حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا
يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَـلْ نَحْنُ مُنْظَـرُونَ (203)
أَفَبِعَـذابِنا يَسْـتَعْجِلُونَ (204) أَفَـرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنـاهُمْ
سِنِينَ (205) ثُمَّ جاءَهُمْ ما كـانُوا يُوعَـدُونَ (206) ما
أَغْـنى عَنْهُمْ ما كـانُوا يُمَتَّعُـونَ (207) وَما أَهْلَكْنا مِنْ
قَرْيَةٍ إِلاَّ لَها مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ (
209) وَما تَنَـزَّلَتْ بِــهِ الشَّــياطِينُ (210) وَما يَنْبَغِي
لَهُمْ وَما يَسْــــتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّـــــمْعِ
لَمَعْزُولُونَ (212)

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

هدى من الآيات :

محتـــوى رســـالات الله واحد ، وانما اختلفت حسب الظــروف ، لانّ كل رســالة اســتهدفت إصــلاح الفســاد المستشــري في المجتمع الــذي أنــزلت فيه ، وكــذب كل قوم رسـولهم ، فانتصر الله للرسـول وللمؤمـنين ، وأهلك الآخرين بعذاب شديد.

هذا ما اسـتوحيناه مما مضت من آيـات ربنا ، أما هـذا الـدرس الـذي هو خلاصة حقـائق السـورة ـ هو والـدرس التــالي والأخــير ـــ فانه يحــدد معــالم الرســالة الالهية وخصائصها المميزة :

الف : لا تخص رسـالات الله بقـوم أو أرض أو زمن. أ ليست هي من رب العـالمين فهي كـالغيب تشـمل بركاته كل بقعة؟.

باء : انها رسالة حق تعكس حقائق الحيـاة المشـهودة والمغيبة ، المادية والمعنوية ، وتمتد من الدنيا الى الآخـرة ، وتتجاوز المصالح العاجلة الى المنافع الآجلة ، أ ليس قد

نزل بها الروح الأمين؟

جيم : انها تهدف الإصلاح الجـذري الـذي ، يتم بـاقتلاع جذور الفساد والانحراف.

دال : وتخــاطب النـــاس بلغتهم ، ولغتها ليست كلغة الشعراء غامضة معقدة ، انما هي لغة الواقع التي تكشف الحقائق جليّة واضحة «**بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**».

هاء : خطها ممتد عبر العصور من آدم (ع) الى النـبي الخـاتم محمد (ص) فهي في زبر الأولين ، ويعلمه علمـاء بني إسرائيل.

وانما يتمرد عليها الجاهلون بعصبيتهم ، فلو أنزل على بعض الأعجمين ما كانوا به مؤمنين.

وشـــأنها شـــأن الرســـالات الاولى ، لا يـــؤمن بها المجرمون حتى يـروا العـذاب الأليم ، الـذي يـأتيهم فجـأة فيطلبون فرصة أخـرى بينما هم اليـوم يسـتعجلون عـذاب الرب.

وحتى لو تطاول بهم العمر سـنين فما ذا ينفعهم حين يأتيهم العذاب ، ويختم عمرهم بسوء؟

ولكن الرب لا يعذبهم حتى يبعث من ينـذرهم ، كـذلك سنة الله في كل قرية يعذبها ، وما كان الله ظلاما للعبيد.

وليست الرســالة من وحي الشــياطين ، ولا يتناسب معهم ، ولا يقـــــدرون على ذلك ، لأنهم معزولـــــون عن السمع.

بينات من الآيات :

[192] من أعظم شـواهد الحق في رسـالات الأنبيـاء انها تتجاوز الحواجز المادية بين الإنسان ونظيره الإنسان ، مما يشــهد على أنها تنزيل من الله الــذي خلق العــالمين ودبر أمره.

(**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

الضـمير المتصل في «انـه» يرجع الى القـرآن أو الى الوحي ، الذي هبط مرة على آدم ومن بعده نوح ، وهـود ، وصالح ، وإبراهيم ، و.. و.. ، لان جــوهر الرسـالات واحد ، وأما تفضيل القرآن عليها جميعا ، فلأنه خـاتم للرسـالات ، ومهيمن عليها جميعا.

[193] (**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ**)

نـزل به جبرئيل (ع) الـذي كـان أمينا على وحي اللـه. ولعلنا نسـتوحي من هـذه الكلمة : ان الرسـالة هي فـوق مادية ، وانها دقيقة حيث تعكس الحقـائق بلا أية زيـادة أو نقيصة.

[194] (**عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ**)

الإنذار هو محاربة الوضع المنحرف بقوة ، والإنذار هو التخويف مع التحذير ، فـالقرآن جـاء منـذرا قبل ان يكـون مبشـرا ، وقد جـاءت بعض الآيـات تحصر عمل النـبي في الإنذار.

[195] (**بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**)

تأكيد الله على كلمة العربي للقرآن ، يدل على أهمية هـذه اللغة وضـرورة تعلمها ، لأنها لغة القـرآن ، والعربية هي أوسع اللغات لتقبل مثل هذا القرآن.

وقد جاء في معـاجم اللغة : ان اعـراب الكلام إيضـاح فصاحته ، والعربي المفصح ، والاعراب ـ بالكسر ـ البيان.

وفي الحديث عن قول الله تبارك وتعـالى : «**بِلِسـانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**» قال :

«**يبين الألسن ، ولا تبينه الألسن**» [1]

ولعل معنـاه ان اللغـات لا تـترجم ـــ بدقة ـــ العربية وليس العكس.

[196] (**وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ**)

ان من شـواهد صـدق رسـالة النـبي (ص) توافقها مع رســالات الله الســابقة ، وتبشـــير الأنبيـــاء بها ، وتعاهد المؤمنين على التواصي بها جيلا بعد جيل.

[197] (**أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَـهُ عُلَمـاءُ بَنِي إِسْرائِيلَ**)

أو ليس دليلا كافيا أن يـــؤمن به بعض علمـــاء بـــني إســرائيل مثل عبد الله بن ســلام ، وأســيد بن خضــير ، وغـيرهم؟ وايمـان مثل هـؤلاء حجة قوية ، أولا : لأنهم من بـني إسـرائيل ، وثانيا : لأنهم من علمـائهم وتقـاتهم ، وقد أكد الله في سـورة الأحقـاف مضـمون هـذه الآية عند ما قال : «**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْـدِ اللـهِ وَكَفَـرْتُمْ بِـهِ وَشَـهِدَ شـاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْـرائِيلَ عَلى مِثْلِـهِ فَـآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ**».

[198 ـ 199] وبعد ان يبين السـياق شـواهد الصـدق في رسالة الإسلام شرع

---

(1) تفسير نور الثقلين ج (4) / ص (65).

يبين عوامل الكفر بها من قبل أولئك الجاهلين ، ومن أبرزها :

أولا : العصبية.

(**وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ* فَقَـرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ**)

لو نزل هذا القرآن على نبي اعجمي ما كانوا ليؤمنـوا به إذ تستبد بهم العصبية ، فمنّ الله عليهم إذ أرسل فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، وجـاء في الحـديث عن أبي عبد الله (ع) انه قال في تفسير الآية :

«**لو نزلنا القرآن على العجم ما آمنت به العـرب ، وقد نـزل على العـرب فـآمنت به العجم ، فهـذه فضيلة العجم**» [2]

ثانيا : العامل الثاني لكفرهم ارتكابهم الجرائم.

[200] (**كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ**)

الجريمة من أهم الأسباب التي تمنع قبـول الرسـالة ، لان الـذي سـقط في وحل الجريمة ، وسـمح لنفسه ان يكون طعمة للشهوات الرخيصة لا يـؤمن بالرسـالة ، لان الرسـالة أعلى من ان يطولها ، كمن هو في بـئر عميقة ظلماء ، كيف يرى نور الشمس ، بل كيف يستوعب معنى نور الشمس؟!

فحينما يكـون عقل الإنسـان محكوما بشـهواته ، ومضـروبا على قلبه بالأسـداد ، مليئا بـالهوى ، يـنزاح عنه الحق لان قلبه أصلد من ان يستقبلها.

---

(2) المصدر.

وقـال بعض المفسـرين : ان معـنى الآية ، كما أنزلنا القرآن عربيا مبينا أمررنـاه وأدخلنـاه وأوقعنـاه في قلـوب الكافرين ، بـأن أمرنا النـبي (ص) حـتى قـرأه عليهم وبينه لهم. [3]

ويبدو ان سياق الآيات يوحي بالتفسير الاول كما جـاء في آية كريمة : (**وَنُنَـزِّلُ مِنَ الْقُـرْآنِ ما هُـوَ شِـفاءٌ وَرَحْمَـةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ وَلا يَزِيـدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسـاراً**) [4] وكما جاء في آية أخرى : (**وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفْراً**) [5] ، وهكـذا تكـون كلمة سلكناه أجريناه بحيث أصـبحت تلك سـنة تجـري لا فكـاك منها!

[201 ـ 202] فطبيعة المجرمين انهم لا يؤمنون بهذا الرسـول العـربي ـــ بغض النظر عن الاعجمي. هنـاك يتساءل المجرمون هل هناك فرصة أخرى لنا فهم :

(**لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ* فَيَـأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**)

[203] (**فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ**)

[204] (**أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ**)

أما اليـوم فـتراهم لا يؤمنـون حـتى يـأتيهم العـذاب وكأنّهم يستعجلون العذاب.

[205 ـ 207] (**أَفَـرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنـاهُمْ سِـنِينَ* ثُمَّ جـاءَهُمْ ما كـانُوا يُوعَـدُونَ* ما أَغْـنى عَنْهُمْ ما كـانُوا يُمَتَّعُونَ**)

---

(3) مجمع البيان / ج (5) / ص (185).
(4) الإسراء / (82).
(5) المائدة / (68).

لو أخّرنا عنهم العـذاب ، ومتعنـاهم سـنين ، وجـاءهم العذاب ، هل تنفعهم هذه السـني وهـذا التمـتيع ، فما الله بمزحزهم من العذاب ان يعمـروا الف سـنة ، والله بصـير بما يعملون.

لقد عمر نــوح (ع) ثلاثة آلاف ســنة ، ولم يبن له الا كوخا يستر نصفه ، فجاءه عزرائيل وسأله : لم لم تبن لك بيتا يسترك؟ قال : ان الذي أنت وراءه كيف يبني بيتا.

[208] (**وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ**)

ان الله لا يعذب قرية الا بعد ان يرسل إليها منذرين ، وبـذلك تتجلى رحمة الله بـأظهر ما يكـون. قـال تعـالى : (**وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**). [6]

[209] (**ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ**)

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَـذِكْرى لِمَنْ كـانَ لَـهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**) ، وحين يعـذبهم الله فليس بظـالم ، لأنه قد أرسل إليهم رسلا من قبل.

[210 ـ 211] إن جوهر الفكـرة الـتي يـوحي بها الله تختلف عن جوهر الفكرة التي يلقيها الشيطان ، ويتنـاقض معه تناقضا كليّا ، فمصدر هـذا الهـوى ، ومصـدر ذاك نـور الله ، وهذا يضلّ ، وذاك يهدي ، وهـذا يسـتثير الشـهوات ، ويـــأمر بالفحشـــاء والمنكر والبغي ، وذاك يثـــير العقل ، ويأمر بالعدل. فكيف يختلطان؟

(**وَما تَنَـزَّلَتْ بِـهِ الشَّـياطِينُ* وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ**)

---

(6) الإسراء / (15).

لم تتنزل الشـياطين ومن اتبعهم من أدعيـاء المعرفة مثل هذا القرآن ، وما ينبغي لهم لأنه لا يتناسب وطبيعتهم ، ولا يستطيعون ذلك لأنهم.

[212] (**إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ**)

اي سماع الوحي من الله سبحانه.

وبهذا نميّز بصائر الوحي عن تخرصات الشياطين.

ان الطريق للتميـــيز بينهما يتم بمعرفة مصـــدرهما ، وكذلك بمعرفة آثارهما.

فبصائر الـوحي الـتي من عند الله أو من عند رسـوله واولي الأمر من بعـده تبعث فيك المسـؤولية ، وتنـير لك الطريق ، وتهـديك صـراطا مسـتقيما ، بعكس تخرصـات الشـياطين الـتي تبعث فيك التكـذيب والاسـتهزاء والحقد والانانية و.. و..

**فَلا تَـدْعُ مَـعَ اللـهِ إِلهـاً آخَـرَ فَتَكُـونَ مِنَ الْمُعَـذَّبِينَ (
213) وَأَنْـــذِرْ عَشِـــيرَتَكَ الْأَقْـــرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ
جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَـوْكَ
فَقُــلْ إِنِّي بَــرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُــونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى
الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَـراكَ حِينَ تَقُـومُ (218)
وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
(220) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَـزَّلُ الشَّـياطِينُ (221)
تَنَــزَّلُ عَلى كُــلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُــونَ السَّــمْعَ
وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (223) وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (
224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ
يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (226) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا
الصَّالِحاتِ وَذَكَـرُوا اللـهَ كَثِـيراً وَانْتَصَـرُوا مِنْ بَعْـدِ ما
ظُلِمُوا وَسَـيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُـوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُـونَ (
227))**

227 (أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُــونَ) : أيّ مرجع يرجعــون ، وأي منصـــرف ينصرفون.

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ

هدى من الآيات :

تختم سـورة (الشـعراء) ببيـان الفـوارق الكبـيرة بين رسالات الرب وما يوحيه الشيطان ، ويبين السـياق هنا ان محــور رســالات الله التوحيد ، ويمضي قــدما في بيــان صفات الرسول النابعة من هذا المحـور ، فالرسـول نـذير لأقـرب النـاس اليه وهم عشـيرته ، وهو بـالمؤمنين رؤف رحيم ، ويعلن براءته من العصـــــاة متـــــوكلا على العزيز الرحيم ، ويتهجد بالليل (وقد انحدر من سلالة طيبة) والله يسمعه ، ويعلم خبايا شؤونه.

وفي الجــانب الآخر يهبط الشــيطان الى كل كــذّاب فـاجر ، ويـوحي الشـياطين في أسـماع تـابعيهم وأكـثرهم كاذبون.

أما الشعراء فـان حـزبهم التـابعين لهم هم الغـاوون ، الذين يتبعـون أهـواءهم ، وكلامهم غـير مسـئول ، فـتراهم في كل واد يهيمون ، ضالين ضائعين ، وهم يقولون

ما لا يفعلون.

بلى. هناك فئة من الشعراء مؤمنة صالحة ، ويذكرون الله كثـــيراً (لكي لا يخـــدعهم الشـــيطان) وإذا ظلمهم الجبارون لقولهم الحق فهم ينتصــرون ، وان عاقبة الظلم الخيبة ،

(**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**).

بينات من الآيات :

[213] توحيد الله صـبغة رسـالاته ، فهو في السياسة : العدل ، والإحسان ، والشـورى ، والأمن ، والحرية ، وهو في الاقتصاد الإنصاف ، والقوام ، وفي السلوك : الفضيلة ، والتقوى ، وفي الثقافة : التثبّت ، واتبـاع أحسن القـول ، والاســـتماع الى النـــاطق عن الله دون النـــاطق عن الشيطان.

ومن شواهد صدق رسالة النـبي (ص) دعوته الخالصة للرب ، وحبه الشديد ، وتفانيه في سبيل الله.

[فلا تدع مع الله إلهاءاخر فتكون من المعذّبين]

[214] ومن خصائص الرسول وشـواهد صـدقه تعاليه عن الضغط من أيّ مصدر يأتي ، ولـذلك فهو يـؤمر بإنـذار عشيرته أولا.

(**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**)

وهكذا فعل الرسـول وتحـدى أول ما تحـدى عشـيرته الأقربين ، كما فعل إبراهيم (ع) إذ واجه برسـالة الله أبـاه أولا. دعنا نستمع الى حديثين في هذا الشأن :

عن أمير المؤمنين (ع) قال :

«لما نــزلت : «**وَأَنْــذِرْ عَشِــيرَتَكَ الْأَقْــرَبِينَ**» أي رهطك المخلصـــين ، دعا رســـول الله (ص) بـــني عبد المطلب وهم إذ ذاك أربعـــون رجلا ـــ يزيـــدون رجلا أو ينقصون رجلا ـ فقال أيّكم يكون أخي ، ووارثي ، ووزيــري ، ووصيي ، وخليفتي فيكم بعدي؟ فعرض عليهم ذلك رجلا رجلا ، كلهم يـــأبى ذلك ، حـــتى أتى عليّ فقلت : انا يا رســول الله ، فقـال : يا بـني عبد المطلب! هـذا وارثي ، ووزيري ، وخليفتي فيكم من بعدي ، فقـام القـوم يضحك بعضـهم الى بعض ، ويقولـون لأبي طـالب : قد أمـرك أن تسمع وتطيع لهذا الغلام» [1]

وفي رواية أخرى :

«انه لما نـــزلت هـــذه الآية «**وَأَنْـــذِرْ عَشِـــيرَتَكَ الْأَقْــرَبِينَ**» صـعد رســول الله (ص) الصــفا فقـال : يا صباحا! فاجتمعت اليه قريش ، فقالوا : مالـك؟! فقـال : أ رأيتكم إن أخــبرتكم أن العـدو مصـبحكم أو ممسـيكم ما كنتم تصدقونني؟ قـالوا : بلى. قـال : فـإني لكم نـذير بين يدي عذاب شـديد ، قـال أبو لهب : تبا لك أ لهـذا جمعتنا ، فأنزل الله : «**تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**» [2]

ونسـتوحي من هـذه الآية أن عامل الرسـالة الإلهية لا يعتمد على أية قــوة أرضـية في إبلاغ رســالات ربه ، إنما يتوكّل على الله ، لــذلك يســتطيع ان يتحــدى انحرافــات الناس جميعا ، حتى ولو كانوا عشيرته الأقربين.

كما تشير الآية الى أن مجـرد القرابة من رسـول الله لا يخلّص الإنسان من نار جهنم. بالرغم من أن النبي (ص) يشفع في أمته ، وقد قال له الـرب سـبحانه : «**وَلَسَـوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى**» أي من الشفاعة.

---

(1) علل الشرائع / الشيخ الصدوق / ص (170).

(2) تفسير مجمع البيان / ج (7) / ص (204).

جـــاء في خـــبر مـــأثور عن أبي أمامة ، فيما أخرجه الطبراني وأبي مردويه قال : لما نزلت «**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْـرَبِينَ**» جمع رسـول الله بـني هاشم فأجلسـهم على البـاب ، وجمع نسـاءه وأهله ، فأجلسـهم في الـبيت ، ثم اطلع عليهم ، فقال :

«**يا بـني هاشـم! اشـتروا أنفسـكم من النـار ، واسعوا في فكاك رقابكم ، وافتكوها بأنفسـكم من الله ، فإني لا أملك لكم من الله شيئا**»

ثم أقبل على أهل بيته فقال :

«**يا عائشة بنت أبي بكر ، ويا حفصة بنت عمر ، ويا أم سلمة ، ويا فاطمة بنت محمد ، ويا أم الزبـير عمة رسول الله! اشتروا أنفسكم من الله ، واسعوا في فكاك رقـابكم فـإني لا أملك لكم من الله شـيئا ولا أغني ...**» (3)

[215] وفي الـوقت الـذي ينـذر عشـيرته الـذين هم أقـرب النـاس اليه ، يـؤمر بالرحمة للمؤمـنين ، حـتى ولو كـانوا بعيـدين عنه ، فهو كالطـائر الـذي يخفض جناحيه لأولاده الصغار.

(**وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**)

ان هـذا السـلوك يسـاهم في صـنع المجتمع المبـدئي المتسامي عن العلاقات المادية ، ونستوحي من هذه الآية أهمية التواضع وبالذات عند من يحمل رسالة ربه.

جاء في كتاب مصباح الشريعة المنسـوب الى الامـام الصادق (ع):

وقد أمر الله أعز خلقه ، وســـــيد بريته محمد (ص) بالتواضع ، فقال عز وجل :

---

(3) تفسير الميزان / ج (15) / ص (334).

«**وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**» والتواضع مزرعة الخشوع ، والخشـية ، والحيـاء ، وأنهن لا تتـبيّن إلا منها وفيها ، ولا يسلم الشرف التام الحقيقي الا للمتواضع في ذات الله [4]

[216] وتتجلى مبدئية الموقف في التــــــبري ممن يخالف الشرع الإلهي.

(**فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**)

ان الرسول لا يقدم تنازلات أمـام رسـالات ربه ، وقد كان (ص) شديدا إذا عصي الله ، وكان يغضب بشدة على من يحاول أن يشفع عنده في حدّ.

وكذلك كان خلفاؤه الراشدون ، فهذا أمـير المؤمـنين (ع) يقدم عليه أشراف قومه ، وقيادات جيشه ، يعرضـون عليه العفو عمن ارتكب منه ما يســتحق الحد ، فيعــدهم بــــأن يعطيهم ما يملك ، ثم يقدمه ويضر به الحد ، وحين يسألونه يقول : هذا مما لا أملكه.

[217] ولكي يتابع مسيرة الإصلاح بحـزم واسـتقامة يتوكل الرسول على ربه الذكي يؤيد بقوته المؤمـنين على الكافرين.

(**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ**)

ان التوكل على الله لبّ استراتيجية أصحاب الرسـالة ، وكلّما كان إيمـانهم برسـالتهم أعمق ، كلما كـان للتوكل على الله في استراتيجيتهم نصيب أكبر.

ومن الواضح أن اسمى «**الْعَزِيزِ الـرَّحِيمِ**» ذكـرا في فاتحة هـذه السـورة ، وأيضا بعد بيـان كل قصة من حيـاة النبيين (ع).

(4) تفسير نور الثقلين / ج (4) / ص (69).

[218] لقد جـاء الجـواب واضـحا عند ما عـدد موسى (ع) عند نزول تباشير الوحي على الله الصعوبات ، وتبعهم فرعون وجنده «**إِنَّا لَمُـدْرَكُونَ**» جـاء الجـواب قويا وقـال موسى لهم : «**كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ**».

وهنا حين أمر الله رسوله بالتوكل على العزيز الرحيم أنبأه بأنه مهيمن عليه ، يراه حين يقوم للتبتل اليه ، وحين يقدم بمهامه الرسالية.

(**الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ**)

[219] وهكذا يراه حين يقوم للصلاة.

(**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**)

جاء في حديث مأثور عن الامام الباقر ـ عليه السـلام ـ في تفسير هذه الآية :

«**في أصلاب النبيين صلوات الله عليهم**» [5]

واعتمادا على هـذه الرواية فـان الآية تـوحي بطهـارة مولد الرسـول وآبائه وأمهاته ، فقد اختـار الله لنـور محمد (ص) أنقى الأصـلاب ، وأطهر الأرحـام ، ايمانا وشـرفا وفضيلة.

الأفّاكون والشعراء :

[220] كما لرسـالات الله خصائصـها ومعالمها وشـواهدها كـذلك الثقافـات المادية ، والأفكـار الجاهلية ، وإذا تبصر الإنسـان بسـمات هـذه وتلك اهتـدي الصـراط السوي ، إذ أضحى قـادرا بتوفيق الله ونـوره ان يمـيز بين فكرة خاطئة يوحي بها

---

(5) المصدر /.

الشيطان ، وحقيقة يهتدي إليها بالوحي والعقل.

والحق والباطل يختلطان في الـدنيا لتكـون الـدنيا دار ابتلاء ، ليس فقط لإرادة البشر ، وانما أيضا لوعيه ، فمن عرف كيف يميّزها عن بعضـهما آمن شر الضـلالة ، وأكـثر الناس يضلون بأهوائهم.

دعنا نشرع من أصل تكوّن الفكرة ومصـدرها : القلب كصفحة بيضاء تنعكس عليها حقائق الخلق بما أعطاه الله من نــور العقل والعلم ، ولكن قد يــتراءى للقلب أشــياء ولكن من دون ان تكـون لها ــ أساسا ــ حقيقة خارجيـة. كيف يتم ذلك؟

دعنا نضــرب مثلا : انك تعلم أن العين تــرى الأشــياء عـبر الضـياء ، ولكن هل حـدث لك ان اصـطدمت بشـيء فتراءى لعينك بريق شديد ، أو هل داخ رأسك فرأت عينك مثل الأنجم. ما هـــــذه؟ انها ارتعاشة اعصـــــاب العين ، وليست أشعة الأشياء تنعكس عليها ، أنها ـ بالتالي ـ حركة ذاتية للعين ترى حركتها الداخلية. أليس كذلك؟!

ومثل آخر : هل أصبت بنزلة برد ، وهل حـدثت لـديك قشـعريرة شـديدة؟ إن مصـدرها الاعصـاب في الـداخل ، وليست عاصفة ثلجية في الخارج.

وهـؤلاء الـذين يسـتخدمون المخـدرات يـرون أشـياء كثيرة ليس لها واقع. انما هي حركة أعصابهم من الــداخل ، كـذلك في داخل القلب مصـدران للأفكـار لا يمتّـان إلى الحقائق بصلة :

أولا : الأهـواء : حيث ان السـماح للهـوى بـاحتلال كل القلب يجعله اســودا لا يبصر نــورا ، انما يبتــدع الأفكــار ابتداعا ، وهذا هو الإفك بذاته.

ثانيا : الخيال : الذي هو بــدوره حركة ذاتية للقلب ، لا شأن لها بالواقع

الخارجي ، إلا أنه أخفّ وطأة من الإفك.

ولعل السياق يشـير الى هـاتين الطـائفتين في فاتحة حديثه عن إيحاءات الشيطان ، يقول ربنا :

(**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ**)

الشيطان كما يبدو من التدبر في سياق الآيات ـ الـتي ذكر فيها ـ هو كل غاو يغوي البشر ، سـواء كـان من الجن أو الإنس. قال تعـالى : «**وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُـلِّ نَبِيٍّ عَـدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ**». [6]

وجـاء في آية كريمة : «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا ادْخُلُـوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ**». [7]

وقال الله تعالى : (**وَإِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ**). [8]

[221] (**تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**)

قال العلامة الطـبري : الأفـاك الكـذاب ، وأصل الإفك القلب ، والأفـاك الكثـير القلب للخـبر ، من جهة الصـدق الى جهة الكذب ، والأثيم : الفاعل للقبيح ، يقال : انه يأثم إثما إذا ارتكب القبيح. [9]

---

(6) الانعام / (112).

(7) البقرة / (20).

(8) البقرة / (14).

(9) مجمع البيان / ج (7) / ص (207).

[222] (**يُلْقُونَ السَّمْعَ**)

اي يلقــون الأفكــار المســموعة في قلب الأفــاكين الآثمين.

[223] (**وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ**)

ويبــدو ان الأفــاكين هم أئمة الكفر ، وقــادة فتــات الضــلال ، وهم المغضــوب عليهم ، الــذين نســأل الله الا يجعلنا منهم ، وهم الغــاوون الــذين يصــفون العــدل ولا يطبّقونه ، وهم بالتــالي صــانعوا القــرار في معســكر المستكبرين.

إن مصــدر أفكــارهم اهــواؤهم الــتي يعبــدونها ، وانحرافهم وفسادهم انما هو بوعي منهم ، وسابق إصـرار ، والشياطين يوحون إلى هؤلاء لأنهم أولياؤهم.

جاء في الحديث المأثور عن الامام الباقر (ع):

«**انه ليس من يــــــــوم وليلة إلّا وجميع الجن والشياطين تزور أئمة الضلال ، ويـزور إمـام الهـدى عددهم من الملائكة**» (10)

وبـالرغم من وجـود بعض الصـدق في أقـوالهم إلّا أن الصفة العامة لأحاديثهم هي الكذب.

وهكذا نعرف طبيعة هؤلاء بأمرين :

الاول : قلبهم للحقائق.

الثاني : ارتكابهم الإثم.

---

(10) تفسير نور الثقلين / ج (4) / ص (70).

[224] والفئة الضـــالة الثانية هم الشـــعراء ، الـــذين يستوحون خيالهم وتصوراتهم استيحاء.
يقول ربنا عنهم :
(**وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ**)
ولعل تسمية هذه الفئة بالشعراء جاءت :
أولا : لأن طبقة الشعراء في ذلك العهد وأكـثرهم في العصور التالية كانوا من هذه الفئة الضالة.
ثانيا : لأن الشعر يعتمد على الخيال والتصور.
حقا ان المـــراد من الشـــعراء في هـــذه الآية ليس خصـوص من أنشد شـعرا ، انما يشـمل كل من أتبع خياله وترك وحي الله ، وكـان من هـذه الفئة الضـالة : فلاسـفة اليونـــان وتـــابعوهم الـــذين اعتمـــدوا على تصـــوراتهم في معرفة حقائق الكون ، دون إثـارة من علم أو اتبـاع لإمـام حق.
والعرفاء والمتصوّفة ، وطائفة من المتكلمين ، وبعض المتفقهين من علماء السوء ـ انصـاف المثقفين ـ الـذين يتبعون أهواءهم وأهواء من يدفع لهم ، ويشتري أقلامهم.
كل أولئك وغـــيرهم من فئة الشـــعراء ، وقد جـــاءت النصوص الاسلامية تترى في وصفهم ، والبراءة منهم :
1 ـ «**نزلت في الذين غـيروا دين الله ، وخـالفوا أمر الله ـــ عز وجل ـــ هل رأيت شـــاعرا قط يتبعه أحد؟! انما عني بذلك الذين وضعوا دينهم بآرائهم ،**

فيتبعهم الناس على ذلك» [11]

2 ـ عن الامام الباقر (ع) في تفسير هذه الآية قال :

«هل رأيت شـاعرا يتبعه أحـد؟! إنما هم قـوم تفقهوا لغير الدين فضلّوا وأضلّوا» [12]

3 ـ وروي عن الامام الصادق (ع) قال :

«هم قوم تعلموا ـ أو تفقهوا ـ بغير علم. فضلوا وأضلّوا» [13]

4 ـ وفي حديث آخر عنه (ع) انه قال :

«هم القصّاص» [14]

ومن هنا نعـرف ان الـذين يقولـون الشـعر دفاعا عن الحق ليسوا ضمن هذا الإطار ، فقد أثر عن الرسول (ص) انه قال لحسان بن ثابت (الشاعر):

«أهجهم أو هاجهم وروح القدس معك» [15]

[225] ومن خصائص هـؤلاء : استرسـالهم في الكلام دون التقيد بحدود المعرفة أو المصلحة.

(**أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ**)

---

(11) المصدر / ص (70) نقلا عن علي بن إبراهيم.
(12) المصدر /.
(13) المصدر /.
(14) المصدر / ص (71).
(15) المصدر /.

والهائمة الضـالة الـتي تمشي على غـير هـدى ، ولعل الآية تدل على أنهم لا يملكون نهجا محددا في مسيرتهم.

[226] ومن علامـاتهم : أنهم يستعيضـون الكلام عن العمل ، وأن قولهم غير مسئول.

(**وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ**)

ان دغدغة الأمـاني ، وإثـارة الخيـال ، وصـنع الأحلام الوردية ، كل ذلك من طبيعة الثقافات المادية ، وعـادة ما يكـون أصـحاب هـذه الثقافـات أقل النـاس التزاما بما يقولـون ، والسـبب أن الكلام هو بـديل عن العمل في تصورهم.

[227] وفي الآيات الاخيرة من هذه السورة يبين ربنا صفات صاحب الرسالة حقا ، فيقول :

(**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحاتِ وَذَكَـرُوا اللـهَ كَثِيراً**)

ان صاحب الرسالة يتعرض لضغط التيّارات الثقافية ، والقـوى الاجتماعية المختلفة ، وعليه أن يـذكر الله كثـيرا لكي لا تخـور عزيمته ، ولا تشـوش رؤيته ، بل يبقى نافذ البصـيرة بـرغم الشـبهات والـدعايات ، وصـامدا بـرغم همـزات الشـياطين ، وذكر الله حقّا هو ذكـره في القلب عند ما يعرض عليه الحرام فيجتنبه ، والحلال فينتفع به.

يقول الامام أمير المؤمنين (ع):

«من ذكر الله عز وجل في السر فقد ذكر الله كثيرا. إنّ المنـافقين كـانوا يـذكرون الله علانية ، ولا يذكرونه في السر ، فقال الله عز وجل : (**يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا**

(**يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً**)

[16] ولعل أظهر سمات صاحب الدعوة الإلهية تحمله مسئولية الجهاد ضد الظلم ، كما أنّ أبرز سمات الشعراء : (**أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ**).

(**وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا**)

ان مقاومة الظلم وعدم الاستسلام للظالمين تلازم الرسالي الصادق ، الذي يتخذ من رسالته سلاحا ضد المنحرفين.

(**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**)

هكذا تختم سورة الشعراء بشحنة أمل مباركة تعطيها للمظلومين ، وصعقة إنذار شديدة يخوف بها الظالمين ، ليبقى قلب المؤمن مستقيما بين الأمل والخوف ، بين اسمي الرحمة والعزة لرب العالمين.

وقد تحققت هذه الآية الكريمة في حقّ ظالمي آل محمد (ص) أجمعين ، حيث أهلك الله الظالمين ، ورفع ذكر أهل البيت عاليا عبر العصور.

---

(16) المصدر / ص (73).

سورة النّمل

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

عن كتــاب ثــواب الأعمــال باســناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال :

«**من قـــرأ ســـور الطواســـين الثلاث في ليلة الجمعة كان من أولياء الله وفي جواره وكنفه ، ولم يصبه في الدنيا بؤس أبدا ، واعطى في الآخــرة من الجنة حــتى يرضى وفــوق رضــاه ، وزوّجه الله مــأة زوجة من الحور العين**»

(تفسير نور الثقلين / ج (4) / ص (74)

وعن ابن عبــاس قــال : قــال رســول الله صــلى الله عليه وآله :

«**وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى**»

(المصدر)

الإطار العام

الاسم :

ذكر «النمل» في قصة سليمان فجاءت السورة بهـذا الاسم. أو ليس طريفا أن يقارن أكبر ملك آتـاه الله لواحد من عباده باسم النمـل؟! بلى. ان مملكة العـدل الالهي لا بد أن تكون بحيث يشعر النمل بالأمان في ظلهـا. إنّ هـذا ما تبشّـــر به رســالات الله ، ولعلّه لــذلك ســميت هــذه السورة باسم «النمل».

لا تخرج موضـوعات هـذه السـورة عن الإطـار العـام للطواسين الثلاث (الشعراء والقصص بالاضافة الى سورة النمل) وهو بيـان خصـائص الـوحي مع التركـيز على بيـان الأمثلة من تــــاريخ رســـالات الله الأولى ، وكأنها جميعا تفصيلات لما ذكّر به القرآن في سورة الفرقان.

تطلع علينا فاتحة الســورة بــذكر القــرآن الــذي جعله الله هدى وبشرى للمؤمنين ، أما الــذين يكفــرون بــالآخرة فان الله زيّن لهم أعمالهم وسلبهم بصائرهم ، ولهم سوء

العذاب.

وان الرسول يلقّى القرآن من لدن حكيم عليم.

ويبدو ان هـذين الاسـمين الإلهـيين يتجليـان في آيـات هذه السورة كما تجلّى اسـما العزيز الـرحيم في السـورة السابقة «الشعراء».

وتلقي الآيــات حزمة ضــوء على قصة موسى : كيف تلقى الــوحي ، حين آنس نـارا ، فباركها الله ومن حولها ، وناداه : (**إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ**) ، وأعطـاه معجـزة العصى واليد البيضاء في تسع آيات ، وأمره بإبلاغ فرعون رسالات ربه.

فلما جحدوا بها ـ بعد ان اسـتيقنتها أنفسـهم ـ نبـذهم في اليمّ.

وبعدئذ يفصل القــول في قصة سـليمان ، ويبــدو ان هناك تقابلين فيها : اولا : بين فرعـون أعظم ملك كـافر ، وســليمان أكــبر ملك عــادل ، ثانيا : بين بلقيس الملكة العربية الـتي آمنت ، وثمـود القـرى العربية الـتي كفـرت فدمرها الله شر تدمير.

ونقـرأ في قصة سـليمان عن تسـخير الجن والطـير ، وعن مملكة النمل الــتي شــملها عــدل ســليمان ، وعن اســتخدام الهدهد والــريح وســيلتين حضــاريتين ، وأيضا الانتفــاع بالاسم الأعظم في نقل عــرش بلقيس لتكتمل صورة مملكة الحق في الأرض.

أما في قصة بلقيس فنقــــرأ استشــــارتها قومها ، واتخاذها القــرار الحكيم ، الا أنّ حكمتها لم تجــدها نفعا حين كفـرت بالله ، وسـجدت للشـمس من دونه ، ولكنها بالتالي آمنت مع سليمان بالله رب العالمين.

أما في قصة ثمــــود فنقــــرأ قصة الصــــراع بين المستضـعفين والمسـتكبرين ، وكيف أنّ الكفّـار تطيّـروا بصـالح ومن معه من المؤمـنين ، وكيف فسد ثمّة النظـام القبائلي ،

وبدل ان يكونوا حماة الضعفاء تآمروا على نبيهم ، ومكروا ومكر الله ، ودمرهم أجمعين.

ويختم السـياق قصص المرسـلين بقصة قـوم لـوط الذين نهرهم نبيهم عن شذوذهم الجنسي ، فلما أرادوا ان يخرجوه ومن معه أمطر الله عليهم مطر السوء.

ويبـدو أنّ السـورة تضـرب لنا في القسم الاول (1 ــ 58) أمثلة عن النظم الاجتماعية الفاسـدة الـتي لا بد ان تـنزع عن فسـادها (كما فعلت بلقيس) والا دمـرت شر تدمير ، ويقارنها بمثال رائع من النظـام الالهي في الأرض لا بد ان تتطلع اليه البشرية متمثلا في قصة سـليمان وأما في القسم الثاني فان الآيات تذكرنا بالقرآن بعد ان تهدينا الى آيات ربنا في الخلق والـتي تـدل على ان الله واحد لا شريك له ، لا في أصل الخلق ولا تقديره وتدبيره.

الله هو الـذي خلق السـموات والأرض وأجـرى فيهما أنظمة لحياة البشر ، وهو الـذي يلجأ اليه المضـطر فيجيبه ويكشف عنه السـوء ، ويهـدي النـاس في ظلمـات الـبر والبحر ، ويرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته.

ثم يـذكّر بأنه عـالم الغيب لا يعلمه الا هو ، وانه مالك يوم الدين حيث يقف دونه علم الآخرين.

ويمضي السياق قدما في التذكرة بالآخرة ، ويـأمرهم بـأن يسـيروا في الأرض ليعتـبروا بمصـير المجـرمين ، ولا يسـتعجلوا العـذاب فعسى أن يكـون قريبا منهم ، أما القرآن وخصائصه فهي التالية :

أولا : يحتوي على علم ما يغيب عن الناس.

ثانيا : يحل الخلافات التي لا زالت عند أصحاب الكتب السابقة.

ثالثا : انه هدى ورحمة للمؤمنين.

رابعا : يقضي بين الناس بالحق.

ويـــأمر الله رســـوله بالتوكل عليه ، والا يأبه بأولئك الجاحــدين الــذين يشــبههم بــالموتى والصم المــدبرين ، ويوجهه الى المؤمنين الذين هم لربهم مسلمون.

ويحذّر من حلول العقاب في يوم يخــرج الله لهم دابة من الأرض تكلمهم.

وحين يحشر بعض المجرمين ويسألون : لماذا كــذبتم بآيات الله؟ فيقع عليهم القول بما ظلموا.

ثم يذكّر القرآن بالله ، وكيف جعل الليل سكنا والنهار معاشا ، ولكنه سوف يفزعهم بنفخة الصـور ، ولا ينجو من ذلك الفـزع العظيم الا المحسـنون ، أما من جـاء بالسـيئة فهو يساق الى النار على وجهه.

وفي خاتمة الســورة يوجه الخطــاب الى الرســول باعتباره حامل رسـالات الله ، وانه يعبد الله وحـده ، ويتلو القـرآن ، فمن اهتـدى فانما يهتـدي لنفسه ، اما الضـالون فان الرسول لم يكلّف الا بإنذارهم.

وتختم الســـورة بحمد الله ، وبإنــــذار مبطن لأولئك الجاحدين بان آيات الله الخارقة ستأتيهم بحيث يعرفونها ، وان الله ليس بغافل عما يعملون.

سورة النّمل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(طس تِلْكَ آياتُ الْقُـرْآنِ وَكِتـابٍ مُبِينٍ (1) هُـدىً
وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكــاةَ وَهُمْ بِــالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُــونَ (3) إِنَّ الَّذِينَ لا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4)
أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُـوءُ الْعَـذابِ وَهُمْ فِي الْآخِـرَةِ هُمُ
الْأَخْسَـرُونَ (5) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُـرْآنَ مِنْ لَـدُنْ حَكِيمٍ
عَلِيمٍ (6)

---

4 [يعمهون] : العمه عمى القلب أي يمشــون في المعاصي كما يمشي الأعمى في الطريق لا يهتدي سبيلا.

هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ

هدى من الآيات :

تتمحور دروس سورة النمل ـ كما هي سورة الشعراء ـ حول الرسالات الالهية ، ميزاتها وخصائصها ، وبالتالي الشواهد الفطرية والوجدانية التي تدل على صدقها.

وتبدأ السورة بالاشارة الى القرآن الحكيم ، ذلك الكتاب الذي تكفينا الاشارة اليه والى واقعه علما ومعرفة بحقيقته ، لأننا لسنا بحاجة إلى أكثر من الاشارة للحقائق الواضحة في الكون ـ والتي حجبتنا عنها الأهواء والغفلة ـ لكي نعرفها ، بالذات إذا كنا ممن يلقي السمع وهو شهيد ، لان العقل والوجدان والفطرة ، وبالتالي لان الإنسان بما يمتلك من أدوات الفهم ، ووسائل المعرفة ، هو الذي ينبغي ان يتعرف على الحقائق ، وانما الهادي والمنذر والمذكر ليس عليه سوى البلاغ والتذكرة «**فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ**» وهكذا تبدأ كثير من سور

القرآن الحكيم بالإشارة الى القرآن ذاته.

ان في القــــرآن آيــــات وتشــــريعات ، فهو من جهة علامات وإشارات تهدينا الى الله ، والى أسـمائه الحسـنى ، والى السـنن الكونية وغيرها الـتي أجراها في الحيــاة ، وهو من جهة أخرى دسـاتير ثابتة ، وقـوانين مسـتمرة في حياة الإنسان التشريعية.

وفي البدء يهـدينا القـرآن الى الله عن طريق إعطـاء الأمل والهداية «**هُـدىً وَبُشْـرى لِلْمُـؤْمِنِينَ**» ثم يأمرنا بمختلف الفرائض كالصلاة والزكاة.

أما لمـاذا لا يـؤمن فريق من النـاس بـالقرآن؟ فلأن أعمالهم السابقة ـ اجـرامهم وفسـقهم وضـلالتهم ـ الـتي اكتسـبوها باختيـارهم تصـبح حجابا بينهم وبين الحقيقة ، والمشكلة الحقيقية إذا تحـولت هـذه الأعمـال الى عـادة ، ذلك ان حجـاب العـادة من أمتن الحجب وأصـعبها أمـام الإنسـان ، والـذي ينتصر على عاداته وسـابقيّاته الفكرية فانه يتجـاوز سـائر الحجب والمشـاكل بسـهولة ، الا ان اختراق هذا الحجاب من أصعب الأشياء على البشر.

وفي الوقت الذي تشير هذه الآيات لهذا الحجاب تبين ان هـذه سـنة كونية جعلها الله في الحيـاة ، فالـذي يبـدأ بالصلاة تخف صـعوبتها عليه شـيئا فشـيئا حـتى يصـير من المستأنسين بها ، وأما حين يقـدم الإنسـان على الفاحشة فانه يسـتوحش منها ويلاحقه تـأنيب الضـمير بسـببها في بادئ الأمر ، ولكنه لو عاد إليها المرة تلو الأخـرى فسـوف تتحـول الى عـادة عنـده لا يحس حين ممارسـتها بـأدنى تأنيب ، ومثال على هـذه الفكـرة هو إدمـان الجريمة لـدى الطغـاة ، فهم أول ما يقـدمون على جريمة القتل يكـون الأمر بالنســبة إليهم صــعبا ، ولكن حينما تتكــرر منهم الجريمة يصل بهم الأمر الى حد يقــول أحــدهم : (لكي أبقى حاكما لا يضر لو قتلت ثلــثي الشــعب) وليس لا يستقذر هذا العمل بل ويسـتأنس به ، وتلك سـنة الهية ان يزين الشيطان للإنسان عمله.

والشجاع الحق هو الذي يغلب نفسه وهواه ، فيخترق سد العادة ليصل الى نور الحقيقة ، ويتمسك بها حتى لو كلّفه ذلك التنازل عن كل سابقياته الخاطئة.

ثم تشير الآيات الى ان التدبر في القرآن يصل بالإنسان الى معاني الحكمة والعلم التي يشتمل عليها ، فآيات الحكمة وشواهدها واضحة في القرآن عبر الأحكام التي نجدها فيه ، فكل حكم يراعي كل الجوانب والجهات من دون ان يحيف بأحد لحساب أحد ، أو لجانب على حساب جانب آخر ، وأما حقائق العلم فهي باطن آيات الحكم ، ومن خلال هذا وذاك يعرف المؤمنون اسمي الحكيم العليم لربهم.

وفي نهاية هذه الآيات يضرب الله مثلا من واقع موسى (ع) فموسى كان طاهرا ونقيا ، الا ان الوحي أو قد مصباح عقله بنور الله ، إذ نزل عليه في عمق الصحراء وفي الليل المظلم ، حيث البرد والضياع والزوجة الحامل ، وهكذا يهبط الوحي على الأنبياء عند لحظات النقاء والطهر والتجرد والتي ترافق لحظات الشدة والعسر.

ان الوحي الذي تلقاه موسى لم يكن ليعالج مشاكله الشخصية ، بل جاءه الوحي ليعالج مشاكل الامة كلها ، وهذا دليل على انه اتصال غيبي من الأعلى ، فلو ان الرسالة التي جاء بها كانت من عنده كنا نجد فيها اثار الظروف الصعبة المحيطة به ، وما كان ليهتمّ بمشاكل الامة جميعا بل البشرية كلهم ، لان الثقافة الارضية تنبع من وسط الإنسان وتتأثر به ، أما موسى (ع) فانه يسمع نداء في ذلك الحين : انني انا الله رب العالمين ، وهنالك ينسى كل شيء ، ويتوجه الى ربه خالصا ، ويهدف حل مشاكل أمته ، متجردا عن ذاته الى الله ، وهذه هي خلاصة قصة الرسالة : من جهة الخروج عن الوسط الذي يعيشه الفرد ، ومن جهة أخرى تلقي فكرة شاملة مطلقة لا تحدها الظروف الخاصة التي يعيشها الفرد ذاته ، وعبر هذه القصة والقصص المشابهة يكشف لنا القرآن الحكيم عن حقيقة الوحي ، وجوهر فرقه

عن الثقافات البشرية.

بينات من الآيات :

[1] (**طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ**)

«تلك» اشارة الى «طس» بأنها آيـات القـرآن الثابتة من جهة (فالكتاب هو الشيء الثابت) والواضـحة من جهة أخرى ، إذ عرّفتها الآية بأنها مبينة.

[2] (**هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ**)

يحمل القرآن في آياته الهدى والبشــرى ، ولكن ليس لكل أحد بل لمن يريد الهداية وبالتـــالي البشـــرى ، فمن ناحية تتحـرك أنت نحو القـرآن فيتحـرك القـرآن نحـوك ، لتلتقي أنت والسـعادة والفلاح ، أما إذا جلست دون حركة نحو القرآن فلن تتلقى الهدى ولا البشارة.

[3] (**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكـاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**)

الصلاة والزكاة رمزان لجـانبين من أعمـال الإنسـان ، فـــالاولى رمز للعبودية المطلقة لله ، وبالتـــالي التحــــرر المطلق من قيــود الــذات والواقع الســلبي ، والثانية رمز للعطـــاء ، وهـــذه هي العلاقة الـــتي يجب ان تقـــوم بين الإنســـان ونظـــيره الإنســـان ، والمفارقة بين العلاقـــتين واضـــحة ، فمع الله تكـــون علاقة العبودية ، ومع النـــاس تكون علاقة الإحسان لا الشرك ، ويعبّر القرآن عن هـاتين العلاقتين في آية أخرى حين يقـول : «**وَاعْبُـدُوا اللـهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً**» [1]

---

(1) النساء / (36).

[4] (**إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُــــونَ بِــــالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ**)

ان الذي يضع لنفسه هدفا بعيدا كـالآخرة يكيّف نفسه مع ذلك الهدف ، فلا يتأثر بالعادات والظروف المحيطة به ، لأنه يجعل سائر اعمال الحياة وسيلة لهدف اسـمى ، فلا يعبد ذلك العمل ولا يحبه أو يمارسه الا من أجل الهـــــدف الــذي يــؤدي هـذا العمل اليه ، اما الـذي لا هـدف له فهو يحب الوسيلة ويقف عندها كالذين لا يؤمنون بـالآخرة فهم يستمرون على اعمال الدنيا لان عملهم محـدود بـالظواهر فقط ، ولعل قوله تعالى : «**زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمـالَهُمْ**» اشـارة الى هـذه الفكـرة ، فالكـافرون لا ينظـرون الى الجـوانب المختلفة من العمل ، وانما يربطون أنفســهم بالعمل ذاته فيعمهون اي (يعمون) عن عواقبه.

[5] (**أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُــوءُ الْعَــذابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ**)

وان أعمالهم لا تورث لهم الا العذاب والخسران.

[6] (**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**)

الله يلقي الكتـــاب على قلب الرســـول ، والرســـول يتلقــاه بـــوعي وعلم ، والله حكيم والقــرآن آية حكمته ، وعليم يتجلى علمه في القرآن.

وهكـذا كـان ظـاهر القـرآن حكما صـائبا لأنه من الله الحكيم ، وباطنه علما لأنه من الله العليم.

**إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِـهِ إِنِّي آنَسْـتُ نـاراً سَـآتِيكُمْ مِنْها
بِخَبَــرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِــهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْــطَلُونَ (7)
فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُـورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها
وَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (8) يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللـهُ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها
جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَـفْ إِنِّي لا
يَخـافُ لَـدَيَّ الْمُرْسَـلُونَ (10) إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَـدَّلَ
حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِـلْ يَـدَكَ
فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْـعِ آيـاتٍ
إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِــقِينَ (12)
فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِـرَةً قـالُوا هـذا سِـحْرٌ مُبِينٌ (
13) وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُـهُمْ ظُلْمـاً وَعُلُـوًّا
فَانْظُرْ كَيْفَ**

---

7 [تصطلون] : الاصطلاء الاستفاء بالنار ، من يصلي ، وأصله اصتلى.
10 [يعقب] : أي لم يرجع ولم يلتفت ، فكـــأن الراجع والملتفت يعقب الأمر السابق.

كــــانَ عاقِبَـــةُ الْمُفْسِــــدِينَ (14) وَلَقَـــدْ آتَيْنا داوُدَ
وَسُـلَيْمانَ عِلْمـاً وَقـالا الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّـلَنا عَلى
كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُـؤْمِنِينَ (15) وَوَرِثَ سُـلَيْمانُ داوُدَ
وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِـقَ الطَّيْـرِ وَأُوتِينا مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هـذا لَهُـوَ الْفَضْـلُ الْمُبِينُ (16) وَحُشِـرَ
لِسُـــلَيْمانَ جُنُـــودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْـــرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ (17)

بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها

هدى من الآيات :

جاء موسى (ع) في تلك الليلة الشاتية ليقتبس شـهابا من تلك النار التي آنسـها من بعيد ، وليهتـدي على أثرها ، ويحمل الـدفء والهـدى الى اهله ، فـاذا به يسـمع نـداء يبتدئ بالبركة ، ولعلها تعبير عن التكامل والنمو.

إنّ لـدى الإنسـان صـفات فطرية متنوعة وهي بحاجة الى التنمية والتزكية لتنتهي الى البركة ، فهو يملك العلم والإرادة والصحة بالقوة ـ يعني انه يملك امكانية كل ذلك ـ والتربية هي الـتي تتعهد هـذه الصـفات بالتنمية والتزكية ، فـــاذا بامكانية العلم تتحـــول الى علم ، وامكانية التعقل تتحـول الى عقل ، وامكانية الصـحة الى سـلامة ، وحسب التعبـير الفلسـفي يتحـول الشـيء من القـوة الى الفعل ، وذلك بحاجة الى منهج متكامل هو رسالات الله التي تفجر طاقـــات الإنســـان وتنميها وتوجهها ، لـــذلك تتكـــرر كلمة البركة في القـــرآن ، فـــالقرآن بركة ، والرســـول بركة ، والبيت الحرام مبارك ، وهكذا.

وأول ما تلقى موسى (ع) من الــوحي هو الاشــارة بالبركة : «**أَنْ بُــورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها**» وربما يقصد بمن في النار الله تعالى ، ومن حولها موسى.

أما عن منطلق البركة في حياة الإنسـان فهو الايمـان بالله سـبحانه وتعـالى ، لـذلك يـأتي النـداء الآخر بعد ذكر البركة ـ وفيه تعبير عن التوحيد ــ فالله هو منشأ كل خـير في عـالم الطبيعة ، والايمـان بالله هو منشأ كل خـير في عالم التشريع.

وبعد ان يشير السياق الى الآيات الـتي تجلت على يد موسى (ع) يتنــاول قصة سـليمان (ع) الــذي ورث العلم والملك من داود ، فأصبح ملكا نبيا ، وذلك ليبين لنا فكــرة هامة هي : ان الالـتزام بالرسـالة لا يعـني تحمل المشـاق والمتــاعب الا انها بــالطبع تــؤدي بأصــحابها الى النصر والملك.

والقرآن الحكيم كثير ما يبين لنا أحكامه وأفكاره عـبر الامثلة التاريخية والقصص ، فبقصة يعقـــوب مع ولــــده يوسف (ع) يثـير فينا عاطفة الابـوة ، وبقصة إبـراهيم مع ابنه إسماعيل (ع) ـ حين أراد ذبحه ـ يبين تحـدي الإنسـان لهـذه العاطفة ، أما من قصة سـليمان (ع) فاننا نسـتوحي ان الــدنيا والآخــرة يمكن ان يجتمعا على صــعيد واحد ، فبإمكان الرسالي صياغة حيـاة ملؤها الفضـيلة والتقـوى ، ويجمع إليها القــوة والنعم الدنيوية ، والقصة تفيد أيضا ان التفكـير السـليم يمكّن من جمع الـدنيا والآخـرة ، حسب مستوى الإنسان وطموحه وقدراته ، ويستشف من القصة معنى البركة الذي جاء ذكره في أوّل الآيـات ، فإنسـان ما قد يصـبح كسـليمان نبيا ، يتلقى الـوحي من الله سـبحانه مباشرة ، وفي الوقت ذاته يكون ملكا بملك لا ينبغي لأحد من قبله ولا لأحد من بعده.

بينات من الآيات :

[7] لكي لا يستغرب أحد كيف يتلقى الرسول الـوحي من لدن حكيم عليم ،

ولكي يعرف المؤمنون مزيـدا من خصـائص الـوحي وكيف يتلقاه الرسول ، وما هي ظروف التلقي! يـبين ربنا قصص الأنبيــاء ، وها هو موسى (ع) يســير بأهله فيــأنس نــارا فيذهب ليأتي منها بخبر (عن الطريـق) أو قبس ليصـطلي ويستضيء به.

(**إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِـهِ إِنِّي آنَسْـتُ نـاراً سَـآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**)

[8] (**فَلَمَّا جاءَها**)

حين اتجه موسى (ع) نحو النــــار ووصل على مقربة منها.

(**نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها**)

قال البعض ان من في النار هم الملائكة ، ومن حولها هو موسى (ع).

وقال البعض ان «**مَنْ فِي النَّارِ**» هو الله الذي تجلى هنا لك ببعض أسـمائه ، وقد قـال ربنا : «**وَسُـبْحانَ اللـهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**» وقد جـاءت الخاتمة لبيـان تقـديس الـرب من الحلول في مكان.

ويحتمل ان يكون المقصود بمن في النار هو موسى ، ومن حولها الذين يقتبسون منه ، وينتهجون خطه.

(**وَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

اي تعالى الله ان يكون حـالّا في النـار ، لأنه أكـبر من ان يحدّه شيء.

[9] ان النداء الـذي تلقـاه موسى (ع) هو المسـؤولية الــتي تتمثل في الرســالة الالهية المنزلة اليه ، ينــذر بها قومه ، ويتحدى بها النظام الفاسد.

(**يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)
وهذا هو المنطلق.
[10] (**وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌ**)
يقــول المفســرون ان الجــان هي الحية الصــغيرة سريعة الحركة ، ولكنا نعلم ان عصى موسى (ع) تحـولت الى ثعبان ضخم ، وعليه فقد يكون التعبـير بكلمة «جـان» وهي الحية الصـغيرة لبيـان معنـيين الاول : جـانب الخفّة والسرعة في الحركة حتى كـأن هـذا الثعبـان الضـخم في خفته حية صـغيرة ، والثـاني : انه كـان في ضـخامته كأنه الجن.
وموسى (ع) حين رأى هذا المنظر الرهيب :
(**وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ**)
اي هــــرب ولم يلتفت الى خلفه ، أو لم يتعقب الأمر ويتابعه مرحلة فمرحلة ولحظة فلحظة ، الا ان العناية الالهية تحوط موسى وتمـده بـالعون في كل حين ، لـذلك جاءه النداء تثبيتا له :
(**يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ**)
الرسالة هي عطاء الهي جديد يضـاف الى الرسـول ، وليست نبوغا فطريا ، ولا نمــوا طبيعيا في حياته ، لـــذلك نجد موسى (ع) يخشى ويخـاف من العصا الـتي ألقاها هو نفسه ، إذ لم يكن يعلم انها ستتحول الى جان.
لقد سما موسى (ع) في لحظة الى أفق النبـوة ، من حملة الرسـالات الالهية فأضـحى ينفذ الأمر بلا خشـية ولا تردد ، حقا ما أعظم التحول الذي ينشأوه الوحي في هذا

البشر الضعيف. ان يعـرج به الى قـوة تتسـامى فـوق كل قوة مادية لأنه يقر به الى رب القدرة والجبروت.

والرسـول يجب ان لا يخـاف ، لأنه يعتمد في تحركه على قوة غيبية مطلقة.

[11] (**إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**)

الذي ينبغي ان يخـاف امـام الله ليس موسى (ع) ولا الأنبيـاء والمرسـلون ، وانما الظـالمون بسـبب ذنـوبهم وسيئاتهم ، ولمـاذا نخـاف من الله وهو ارحم الـراحمين؟! الا ان المشـكلة تبـدأ منا وتنتهي إلينا بسـبب الـذنوب والمعاصي ، فالطبيعة مثلا خلقها الله لنا فلا نخـاف منها ، بل نخاف من عدم قدرتنا على الاستفادة السليمة منها.

وحـتى الظـالم صـاحب الـذنوب يمكنه أن يتـوب ليجد الله غفورا رحيما ، فلا يبقى ما يقلقه أو يخيفه.

[12] (**وَأَدْخِلْ يَـدَكَ فِي جَيْبِـكَ تَخْـرُجْ بَيْضـاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**)

قد يصـيب البيـاض يد الإنسـان بسـبب الـبرص وهـذا سـوء ، ولكن يد موسى لم يكن بها ذلك المـرض ، وانما خرجت بشعاع من نور.

(**فِي تِسْعِ آياتٍ**)

سبع منها آيات إنـذار وعـذاب وهي : الـدم ، والقمّل ، والجـراد ، والضـفادع ، والطوفـان ، والثعبـان ، وانفلاق البحر ، واثنتـان منها آيتـان للرحمة وهما : اليد البيضـاء ، وانبجاس عيون الماء من الصخرة حين ضربها موسى (ع) بالعصا.

(**إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ**)

والفسق هو تجـــاوز الحد ، وانحـــراف الســـائر عن الطريق يسمّى فسقا.

[13] (**فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ**)

الآيــات كــانت جلية ولا تقبل الشك ، ولكنهم اتهمــوا موسى (ع) بالســحر ليــبرّروا كفــرهم بها ، ولأنهم أرادوا ظلم الناس والاستكبار في الأرض فكانت الرسـالة الالهية تمنعهم منها لذا فإنهم اتهمـوا الرسـالة بالسـحر ، وكفـروا بها بعد ان أيقنت أنفسهم بصدقها ، وأفسـدوا ، وأنهى الله كيانهم ، وأغرقهم في اليمّ ، وجعلهم عبرة للمؤمنين.

[14] (**وَجَحَدُوا بِها وَاسْـتَيْقَنَتْها أَنْفُسُـهُمْ ظُلْمـاً وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**)

[15] ان فرعــون وملأه اسـتكبروا ، وحـاولوا فـرض سـيطرتهم الفاسـدة على النــاس ، بينما داود وســليمان شكروا الله حينما منحهم العلم والهـدى والسـلطة ، وهـذا هو الفرق بين البركة الالهية واتباع خط الشـيطان في نعم الدنيا.

(**وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالا الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ**)

[16] (**وَوَرِثَ سُـلَيْمانُ داوُدَ وَقـالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**)

وبهــذه الكلمة أعلن ســليمان (ع) أنّه ملك النـــاس. لماذا؟

لأنه وصل الى أرفع مســتوى من العلم ، حــتى صــار يعلم منطق الطير ، ولأنه صـار لديه كل ما يحتاجه النـاس كالإدارة ، وقيادة الحرب ، وهذا يدل على ان الإسلام

ينظر الى القيـادة من خلال الكفـاءة لا النسب والحسب ، فسليمان لم يرث الحكم لو لم تكن لديه الكفاءة.

ويبدو من بعض النصوص : ان سليمان ورث أبـاه منذ صباه لما أودعه الله فيه من علم وكفاءة.

في أصـول الكـافي عن بعض أصـحابنا عن أبي جعفر الثاني (ع) قـال قلت له : انهم يقولـون في حداثة سـنك؟ فقال : «**ان الله تعـالى أوحى الى داود ان يسـتخلف سـليمان وهو صـبي يـرعى الغنم ، فـأنكر ذلك عبّـاد بـني إسـرائيل وعلمـاؤهم ، فـأوحى الله الى داود : أن خذ عصى المتكلمين وعصى سـليمان واجعلها في بيت ، واختم عليهما بخواتيم القوم ، فـإذا كـان من الغد فمن كـانت عصـاه قد أورقت وأثمـرت فهو الخليفة ، فـأخبرهم داود (ع) فقـالوا : قد رضـينا وسلمنا**» [1]

[17] (**وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ**)

وربما كانت مهمة الطيـور إيصـال الرسـائل كالحمـام الزاجل ، أو التجسس كما فعل الهدهد.

(**فَهُمْ يُوزَعُونَ**)

اي يوزّعون حيث يقسّم سليمان المهام على جنوده ، والحشر لا يعني انهم مجموعون بشكل فوضوي ، بل انهم موزّعون بشكل منظم.

ويبدو ان الحضارة قد تطـورت في عهد سـليمان (ع) وانه كان خبيرا بلغات شتى.

---

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (75).

جاء في تفسير علي بن إبراهيم عن الصادق (ع):

«أعطي سـليمان بن داود ــ مع علمه ــ معرفة المنطق بكل لسـان ، ومعرفة اللغـات ، ومنطق الطير والبهائم والسباع ، وكـان إذا شـاهد الحـروب تكلم بالفارسـية ، وإذا قعد لعماله وجنـوده وأهل مملكته تكلم بالروميّة ، وإذا خلا بنسـائه تكلم بالسريانية والنبطية ، وإذا قام في محرابه لمناجـاة ربه تكلم بالعربية ، وإذا جلس للوفـود والخصـماء تكلم بالعبرانية» [2]

وجاء في حديث آخر :

«اعطى داود وسـليمان (ع) ما لم يعط أحد من أنبياء الله من الآيات ، علمهما منطق الطـير ، وألان لهما الحديد والصـفر من غـير نـار ، وجعلت الجبـال يسـبّحن مع داود (ع)» [3]

(2 ، 3) المصدر ص (78).

حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُـودُهُ وَهُمْ لا يَشْـعُرُونَ (18) فَتَبَسَّـمَ ضـاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَقـالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْـــكُرَ نِعْمَتَـــكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِـدَيَّ وَأَنْ أَعْمَـلَ صـالِحاً تَرْضـاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِـكَ فِي عِبـادِكَ الصَّـالِحِينَ (19) وَتَفَقَّدَ الطَّيْـرَ فَقـالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُـدَ أَمْ كـانَ مِنَ الْغـائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَــذاباً شَــدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَــأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْـرَ بَعِيـدٍ فَقـالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَـبَإٍ بِنَبَـإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها

---

19 [أوزعني] : أي ألهمني ، من وزع بمعنى كف.
22 [فمكث] : المكث البقاء اليسير.

عَــــرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَـــدْتُها وَقَوْمَها يَسْــــجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمـالَهُمْ فَصَــــدَّهُمْ عَنِ السَّــــبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَـــدُونَ (24) أَلاَّ يَسْــجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْــرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُـونَ وَما تُعْلِنُـونَ (25) اللـهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)

---

25 [الخبء] : الخبيء المخبـوء ، وهو ما أحـاط به غـيره حـتى منع من إدراكه.

وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ

هدى من الآيات :

لقد ملك ســـليمان جنـــودا لم يملكها أحد قبله ، ولن يملكها أحد بعـــده ، وحشر له جنـــود منظّمـــون من الجن والانس والطـير ، وكـانوا يسـيرون في الأرض ، ويسـعون فيها عمرانا وبنـاء. وفي بعض أسـفارهم مـرّوا بـواد النمل فاذا بملكتهم تناديهم : ان يا أيّها النمل ادخلوا مســاكنكم ، فـانّ سـليمان وجنـوده قـادمون ، وأخشى ان يحطمـوكم باقــدامهم وحــوافر خيــولهم ، فتبسم ســليمان منها حين سمعها.

قد تكون للإنسان معارف وأفكار لا تستثار الا بحوادث تطرأ على حياته ، فينتبه لها ، وقد يكـون غـافلا عن نفسه فـــاذا بظـــاهرة أو حادثة طارئة تثـــيره لتفتح له أبـــواب المعرفة والعلم ، فقد بدأ العالم المعروف (نيــوتن) أبحاثه عن الجاذبية لأنه شــاهد تفاحة تســقط من الشــجرة الى الأرض ، فتسـاءل : لمـاذا لا تصـعد الى السـماء؟! وانتهى الى نظرية الجاذبية.

وقد بلغ سليمان (ع) من القوة والسلطة شأنا بعيـدا ، فغفل أو تغافل حـدود سـلطانه ــ وهـذا هو شـأن الأنبيـاء والصالحين ـ فهم كلما زاد ايمانهم زاد تواضعهم لله ، ولم يأبه ســـليمان (ع) بـــالجوانب المادية للملك ليخرجه عن توازنه وعبادته لله ـ كما هو شـأن سـائر الملـوك ــ بل لم يكن الملك بالنســبة اليه وسـيلة للتكـبر والاسـتعلاء ، بل وسيلة لإقامة العدالة على الأرض ، فقد كان يقضي النهار صـائما والليل قائما متعبـدا لله سـبحانه ، ولم يتـذكر (ع) مـدى سـلطانه الى ان سـمع خطـاب النملة مما أثّر فيه ، فاندفع نحو ربه شاكرا له على نعمه المتوالية ، وهذا يؤكد حقيقة هامة وهي : انعكـــاس ما يحـــدث للإنســـان على العـوالم المحيطة به ، فالعدالة تشـمل الإنسـان والطبيعة من حوله ، وهكـــذا الظلم. وقد تعجب ســـليمان (ع) من خطاب النملـة! فكيف به وهو العبد الضـعيف ان تبلغ قوته حـدا يخشـاه حـتى النمـل! لـذلك انـدفع نحو الشـكر لله ، خشـية ان يكـون شـعوره بـالقوة سـببا للكفـران بـالنعم والطغيان. لذلك بـادر طالبا من الله التوفيق الى شـكره ، ليس فقط شـــكرا نفســـيا ولفظيا بل وعمليا أيضا ، وذلك بـأن يسـتخدم ما وهبه الله من القـوة والمنعة والملك في سبيل عمل صـالح يرضـيه تعـالى ، فليس كل عمل صـالح بذاته يرضي الله ، فلو انقطع شـخص لله بالعبـادة صـياما وصلاة ولكنه انعـزل عن النـاس والكـدّ على من يعـولهم ، فان هـذا العمل لا يرضي الله وان كـانت الصـلاة في ذاتها عملا صالحا.

كما جـرت لسـليمان (ع) حادثة أخـرى تكشف لنا عن ملكه وطريقته في الحكم ، حينما غـــاب الهدهد فظن في بـادئ الأمر انه خـالف قواعد الانضـباط ، فهـدّده وتوعّـده بالعذاب حتى يصير عبرة لسائر الجنـود ، فلا يفكـرون في مخالفة النظـــام فتعمّ الفوضى في الجيش ، وكـــان من عادة سليمان (ع) نتف ريش الطائر المخالف والمتخلف ، الا ان الهدهد فاجأ سليمان (ع) حين نقل له خبرا مفـاده : انه رأى مملكة ســـــبأ في بلاد اليمن ، ولم يكن لـــــدى سليمان علم ظاهر بها ، لأنه كان يعيش في

فلســطين ، إذ يجب ان تلتقي الحضــارتان (وهــذه ســنة الحياة) وأضحى الهدهد هو الرابط.

بعد ذلك قرر سليمان (ع) ان يتبين الأمر ، فان صـدق أكرمه والا أحلّ به العذاب ، لذلك دفع اليه رسـالة وأمـره ان يلقيها الى ملكة ســـبأ ، وفي القصة عــــبر ودروس سنتعرض لها في البيّنات.

بينات من الآيات :

[18] (**حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْـلُ ادْخُلُـوا مَسـاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُـلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**)

ولم تقل النملة ان ســـليمان وجنـــوده لا يملكـــون الاحساس أساسا ، وانما قالت بأن اهتمامهم بأشياء أخرى قد يجعلهم لا يدركون بأن تحت أرجلهم شيئا وهذه اشـارة للإنســان المقتــدر بــأن لا ينسى النملة بل يهتم بها ، لأنها ذات روح وشعور.

والحـاكم العـادل يأخذ حسـاباته حـتى بالنسـبة لهـذه النملة ، ولنستمع إلى كلمة الإمـام علي (ع) وهو يومـذاك حاكم على إمبراطوريّة عظمي :

«**والله لو أعطيت الأقـــاليم الســـبعة بما تحت أفلاكها ، على أن أعصي الله في نملة أسـلبها جلب شـعيرة ما فعلته ، وإنّ دنيـاكم عنـدي لأهـون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لعليّ ولنعيم يفنى ، ولذّة لا تبقى**» [1]

أما الطغاة فـإنهم يتجـاهلون شـعوبا بأكملها ، فأمريكا تفكر ان تضــغط على روســيا في افغانســتان ما دامت الاخرى تضغط عليها في بولونيا وفي كلتا البلدين

(1) نهج البلاغة / خ (224) / ص (347).

شـــعب مستضـــعف الا ان المهم عنـــدهم ان تمشي سياسـتهم ومصـالحهم ولو دفع ملايين المستضـعفين الى الجحيم.

كما تزرع كلتا الدولتين صواريخها النووية المرعبة بين ملايين البشر ، وتسـلبهم الراحة والاطمئنـان ، فـالمهم عنـدهم ان يكونـوا أقويـاء ، وهـذا هو الفـرق بين مملكة الإيمان وإرهاب الطغاة.

[19] (**فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها**)

قيل : ان سـليمان (ع) لما سـمع كلام النملة ، أمر الجيش بـالتوقّف في الصـحراء حـتى دخل النمل أجمعهم الى بيـوتهم ، فـأمرهم بعد ذلك بمواصـلة المسـير ، وفي الـوقت ذاته تعجب سـليمان من كلام النملة ، وعـرف انه وصل ذروة رفيعة من القـوة والسـلطة ، وانه اسـتجيبت دعوته التي قال فيها : «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ**» [(2)] لذلك توجه بالشكر الى الله لكي لا تبطره النعمة فيطغى.

وهناك حديث شريف ينقل حوارا بين سليمان والنملة :

في عيـون الاخبـار باسـناده الى داود بن سـليمان الغازي ، قـال : سـمعت علي بن موسى الرضا (ع) يقـول عن أبيه موسى بن جعفر (ع) في قوله : «**فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها**» وقـال : لما قـالت النملة : «**يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ**» حملت الـريح صـوت النملة الى سـليمان (ع) وهو مـارّ في الهـواء ، فـالريح قد حملته ، فوقف وقـال : عليّ بالنملة ، فلما أتي بها قـال سـليمان : يا أيتها النملة اما علمت اني نبي الله واني لا أظلم أحدا؟! قـالت النملة : بلى. قال :

---

(2) سورة ص / (35).

سـليمان : فلم تحـذرينهم ظلمي وقلت : «**يا أَيُّهَا النَّمْـلُ ادْخُلُوا مَسـاكِنَكُمْ؟**» قـالت النملة : خشـيت ان ينظـروا الى زينتك فيقيسـوا بها ، فيبعـدون عن الله عز وجل ، ثم قالت النملة : أنت أكبر أم أبوك داود؟ قـال سـليمان : بل أبي داود ، قالت النملة : فلم يزيد في حروف اسمك على حروف اسم أبيك داود؟ قال سـليمان : مـالي بهـذا علم ، قالت النملة : لان أباك داود داوى جرحه بودّ فسـمى داود ، وأنت يا سليمان أرجو ان تلحق بأبيك ، ثم قالت النملة : هل تدري لم سـخرت لك الـريح من بين سـائر المملكـة؟ قال سليمان (ع) : مـالي بهـذا علم ، قـالت النملة : يعـني عز وجل بذلك لو سـخرت لك جميع المملكة كما سـخرت لك هذه الريح لكان زوالها من يديك كزوال الريح ، فحينئذ تبسم ضاحكا من قولها [3]

(**وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ**)

لقد كان سليمان ملكا ونبيا ، كما كان أبــوه ملكا ونبيا ، وأمّه مؤمنة صالحة ، وكان يعمل الصالحات التي يرضاها الله ، ولكنه لم يكتف بتلك الصـفات بل دعا الله ان يجعله مع الصـــالحين ، فما ذا ينفع الإنســـان ان يكـــون أبـــواه صـــالحين إذا لم يكن هو كــذلك كما ينبغي على من أوتي الحكم والنبـــوة والصـــلاح ان لا يتخذ ما أوتي من الفضل اداة للتفرقة بينه وبين الصالحين الآخرين.

[20] (**وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُـدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ**)

---

(3) نور الثقلين / ج (4) / ص (82).

[21] ولعله خشي ان خروجه من غير إذن قد يشـجّع الآخرين على عدم الانضباط ، لذلك توعّده بالعذاب.

(**لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ**)

ان كان غيابه لعذر ، والا فالعذاب الشديد أو الذبح العاجل ينتظره.

[22] (**فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ**)

عاد الهدهد فبادره سليمان بالسؤال : اين كنت؟!

(**فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**)

لا يقبل الشك.

تقول رواية شريفة :

«قال ابو حنيفة لابي عبد الله (ع): كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير؟

قال : لان الهدهد يرى الماء في بطن الأرض كما يرى أحدكم الدهن في القارورة ، فنظر ابو حنيفة الى أصحابه ، وضحك قال ابو عبد الله (ع) : ما يضحكك؟ قال : ظفرت بك جعلت فداك قال : وكيف ذلك؟ قال : الذي يرى الماء في بطن الأرض لا يرى الفخ في التراب حتى يؤخذ بعنقه؟ قال ابو عبد الله (ع) : يا نعمان اما علمت انه إذا نزل القدر أغشي البصر؟!» [4]

[23] (**إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ**)

---

(4) المصدر ص (85).

اي تحكمهم وتقودهم.

(**وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**)

لديها أنواع الخير والملك.

(**وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ**)

نقل ان عــرش بلقيس كــان خمسة وعشــرين ذراعا طـــولا وعرضا وارتفاعا ، وكـــانت مقدمته من الـــذهب ، وكانت بلقيس بنت شرحبيل تحكم قومها بمجلس شــورى ، يضم أكثر من (313) رجلا ، يمثّل كل واحد منهم قبيلة.

[24] (**وَجَـدْتُها وَقَوْمَها يَسْـجُدُونَ لِلشَّـمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ**)

الناس نوعـان : نـوع يعمل بعد التفكـير ، ونـوع يعمل من دون تفكير ، ولو كـان هـؤلاء يفكـرون قبل ان يتعبّـدوا للشمس لاهتدوا الى الصواب ، ولكنهم عطلوا تفكـيرهم ، واكتفوا بالواقع الموجود أو المورث.

بلى. هو كما قال الإمام علي (ع):

«**ولو فكّروا في عظيم القدرة ، وجســيم النعمة ، لرجعـــوا إلى الطريق ، وخـــافوا عـــذاب الحريق ، ولكن القلوب عليلة ، والبصائر مدخولة!**» [5]

(**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ**)

عبر التبرير والتضليل.

---

(5) نهج البلاغة / خ (184) ص (270).

(**فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ**)

وكيف يهتـدي من استسـلم للشـيطان ، وجعله يفكّر ويخطط بالنيابة عنه؟!

[25] (**أَلَّا يَسْـجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْـرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

وليس الشـمس هي الـتي تخـرج القـوى والطاقـات الكامنة حتى نعبدها.

(**وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ**)

[26] (**اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**)

الـذي لا يقـاس به عـرش بلقيس وسـائر السـلاطين حـــتى نخضع لهم من دونه ، ولا بســـائر المخلوقـــات كالشمس حتى نؤلهها ونتصورها ربّا.

هكـذا كـانت البداية للقـاء حضـارتين (حضـارة عربية وأخرى عبرية).

دروس من القصة :

1 ـ ان الإنســان قد يتقــدم ويتكامل في حياته الى درجة معرفة منطق الطير ، والاستفادة منه ، وهـذا يعـني اننا من أجل الوصـول الى حضـارة انسـانية متكاملة في المستقبل يجب أن نسعى للاستفادة من الأحيـاء والطبيعة من حولنا الى أقصى حد.

2 ـ ان الانضـباط ضـرورة ولا سـيما بالنسـبة للجنـدي في الخط العسـكري الا ان للمبـادرة أهميتها أيضا ، فـاذا بادر الجندي الى مهمة ناجحة فعلى القائد أن يكرمه حـتى لا تموت روح المبادرة عند الجيش.

3 ـ ان الطيور كما البشر يعرفـون الطريق الى الله ، لذلك عرف الهدهد أن عبادة الشمس انحراف وضلال.

**قــالَ سَــنَنْظُرُ أَصَــدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكــاذِبِينَ (27)
اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَـانْظُرْ
ما ذا يَرْجِعُونَ (28) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ
كِتـابٌ كَـرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُـلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّـهِ
الـــرَّحْمنِ الـــرَّحِيمِ (30) أَلاَّ تَعْلُـــوا عَلَيَّ وَأْتُـــونِي
مُسْلِمِينَ (31) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْـرِي
ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) قــالُوا نَحْنُ
أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما
ذا تَـأْمُرِينَ (33) قـالَتْ إِنَّ الْمُلُـوكَ إِذا دَخَلُـوا قَرْيَـةً
أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَـذلِكَ يَفْعَلُـونَ (
34)**

---

32 [قاطعة] : ممضية أمرا.

أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ

هدى من الآيات :

لقد ساعد غياب الهدهد على التقاء حضارتين عظيمتين في زمانهما ، وهما الحضارة العبرية ويمثّلها سليمان (ع) وهي الحضارة الالهية التي تستمد قيمها من الوحي ، والحضارة العربية وتمثلها بلقيس ، وهي الحضارة الارضية التي تستمد قيمها من عقل الإنسان حينا ، وشهواته في الأغلب.

وكما ان جوهر رسالة الله يختلف عن واقع الثقافة الارضية ـ حسبما ذكّرتنا به سورة الشعراء ـ فان سلوكيات الرسل وشخصياتهم تختلف عن شخصيات وسلوكيات أصحاب ثقافة الأرض ، فمع ان سليمان (ع) كان ملكا ومن عادة الملوك الاستعلاء والفساد استجابة لاغراءات الملك ، الا انه كان ملكا صالحا مترفّعا عن كل الرذائل ، وهكذا يكون الملك حين يتّصل بالرسالة الالهية مثالا ساميا للسلوك الفاضل ، وان دلّ هذا على شيء فانما يدل على ان قدرة الرسالة تفوق الظروف ، وان الروح المعنوية التي تبعثها في كيان الفرد ، تجعله فوق المتغيّرات والمؤثرات السلبية في

الحيــاة ، وان شــئت فقل فــوق ما يســمى بالحتميــات العلمية.

فلو نظرت الى مصادر علم الاجتمـاع لوجـدت قائمة من الحتميـــات الاجتماعية ، وهكـــذا تجد أمثالها في علم النفس والتاريخ ، ولكن قد يـأتي إنسـان ما فيتجـاوز هـذه الحتميـات المـدّعاة ، ويحـدث في مجتمعة تغيـيرا يبـدّل مجرى التـاريخ ، ويخلق تيـارا معاكسا لواقع المجتمع دون ان يخضع للمسـيرة التاريخية ــ حسب نظرية مـاركس ــ فــبرغم انتمائه الطبقي والعـائلي الا انه يصـير شـيئا آخر تماما ، وهذه من ميزات النور الالهي الذي ينفذ في قلوب الصـادقين من عبـاد الله ، ويضـرب لنا الله مثلا بسـليمان (ع).

لقد عامل ســليمان الهدهد ـــ وهو طـــائر يعمل في خدمته ـ معاملة كريمة ، حيث لم يعاقبه ، بل منحه فرصة كي يكتشف مدى صحة ما جاء به ، فكتب رسالة وسـلمها له ، وأخـذها الهدهد وألقاها على عـرش ملكة سـبأ ، فلما بصرت بها امتلكها العجب.

فشهرة سليمان (ع) كـانت قد سـبقت رسـالته إليها ، وكـــانت بلقيس على علم بما يجــري في البلاد الاخــرى ، وهي تـدري بـأن بلاد فلسـطين وبلاد الشـام يحكمها ملك كريم ، وعلى أثر اسـتلامها كتـاب سـليمان جمعت أعضـاء مجلســها الاستشــاري ، والــذي كــان حسب قــول بعض المفســرين يضم (313) رجلا ، وأخــبرتهم بأنها اســتلمت رسالة كريمة مختومة بخـاتم سـليمان ، وفي داخلها أوامر حكيمة ورشيدة ، فيها دعـوة للخضـوع لملكه وسـيطرته ، ولكنه لا يفعل ذلك من أجل فـــرض ســـيطرته وهيمنته ، ومن أجل ضـــــمّ ملكها الى ملكه ، وإنّما لنشر راية الحق والعدالة الالهية.

ثم طلبت بلقيس من مجلســـها أن يشـــير عليها بما يجب ان تفعله في أمر خطـــير كهـــذا ، فـــترك المجلس المسألة إليها ، وأبدوا استعدادا لتنفيذ كل ما تقرره وتـأمر به ، فكان

القرار النهائي لبلقيس الاستسلام لسليمان ، لأنها عــرفت أنه أكـثر نفـوذا وقـوة منها ، وانها ان لم تشـتر اسـتقلال بلادها بالتعاون مع سليمان ، فانه وجنوده سيدخلونها عنوة ويؤدي ذلك الى خرابها ودمارها.

والقرآن الحكيم لا يبيّن لنا الاحـداث التاريخية لمجـرد العلم أو التسـلية بها ، وإنما يبينها للاعتبـار والاتعـاظ ، كما أنّه لا يحتـــــــوي على لغو وعبث ، إذا فعلى كل جيل ان يستفيد منه بما يتناسب وقدرته للاستيعاب.

ونســـــتفيد من القصة ان أفضل حكومة تقـــــوم بين النـاس هي الحكومة الـتي تجمع بين المشـورة في الـرأي والحزم في القرار ، ذلك لان الذي يحرك العـالم أمـران : العلم والارادة. فيجب على المـــرء ان يعـــرف الطريق ثم يقرر المضي فيه ، إذ قد يكون القرار خاطئا ومهلكا بـدون علم ، والقرار الذي لا إرادة معه سيكون هشّا ، والسـلطة يجب ان تكون مجسّدة لهذين العـاملين الأساسـين لحركة التاريخ.

ان الحكومات النيابية الـتي يضـيع فيها القـرار بسـبب اختلاف الإفـراد لا تفـرز قـرارات حازمة ، وأما الحكومـات المســتبدة فــالحزم موجـــود في قراراتها الا انها ينقصـــها الـــرأي الصـــائب أو القـــرار العلمي ، لأن الفكر الواحد لا يسـتطيع اسـتيعاب المزيد من المعـارف والتجـارب ، وأما الحكومــات الــتي تبقى فيها القــرارات لأعلى ســلطة اي للفرد الذي يمسك زمام الأمور بيده ، ولكنه لا يتخذ القرار الا بعد ان يستشير مجموعة من الناس ، سواء كانت هـذه المجموعة من الخـبراء أو المستشـارين أو النـواب ، فانها تكون أقرب الى الصواب ، لأن هـذا النـوع من الحكومـات يجمع بين علم المشورة وحزم القرار ، ويتضح هـذا النـوع من الحكومات في الآية الكريمة التي تقول : (**وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ**) [1]

(1) آل عمران / (159).

إذ يخـاطب الله رسـوله مرشـدا إيـاه الى مشـاورة المسلمين في أموره ، على أن يبقى القرار حقا خاصا به.

ونستوحي سلامة هذا النوع من الحكم من خلال قصة بلقيس حيث شاورت الملأ من قومها واستشـارتهم بقولها : «افتوني» ففعلوا ولكنهم ـ بدورهم ـ خوّلوها حق القـرار النهائي ، وهذه نقطة مهمة في الحكم. ان بلقيس لم تكن لتفرض عليهم سيطرتها ، بل هم الذين خولوها حق القرار ، ومن طرائف الحكم الاســـلامي ولطائفه ان النـــاس بأنفســـهم ، وبملىء إرادتهم ، وكامل حـــريتهم يخوّلـــون شخصا حق القـــرار النهـــائي ، وذلك عـــبر ولاية الفقيه ، فالفقيه الحـــاكم والقاضي وليّ أمـــرهم بـــإذن الله ، وهو منتخب من قبل النـــاس بطريقة الانتخابـــات الاســـلامية ، ويخوّل حق اتخاذ القرار ، فيسلم له الناس نفسـيا قبل ان يتبعوه عمليا.

وبالرغم من ان حكومة بلقيس كانت من أفضل أنواع السلطة الا انها حيث كانت بعيدة عن روح الايمـان وهـدى الرسالة فقد كـانت منحرفة فاسـدة ، فسـلامة القـوانين ، وصـحة الانظمة ، وحـتى سـلامة تطبيقها لا تـدل على ان البشـرية تصل بها الى شـاطئ السـعادة والسـلام ، انما القوانين بمثابة جسد يحتاج الى روح ، وروحها هـدى الله ، فعلى الرغم من ان حضارة العرب في مملكة سـبأ كـانت جيدة ، وقوتهم كبيرة ، الا انهم فقدوا الصلة بالله ، فعبدوا الشـمس من دونه ، ولأنهم فقـدوا روح الايمـان اضـطروا للخضوع الى سلطان يملك تلك الروح الايمانية.

والفرق بين بلقيس وسليمان لم يكن سـلامة الانظمة أو عدم سلامتها ، وصـحة القـوانين أو عـدم صـحتها ، انما كـان في الجـانب الغيـبي (الايمـان باللـه) وحينما كـانت بلقيس خلـوّا من هـذا الجـانب اضـطرت الى الخضـوع لسليمان وهـذا هو قـانون الحيـاة ، فلو كـان هنـاك حـاكم يملك الجانب الايمـاني للقـوة وهي التوكل على الله وآخر لا

يملكه ، وكانا متسـاويين في سـائر الأمـور فـان الاول هو الذي سينتصر بإذن الله.

إذا نحن بحاجة من بعد المشـــورة (العلم) والعـــزم (الحزم) إلى قوة أخرى لانشـاء حكومة مثالية ، وهي قـوة التوكل على الله.

بينات من الآيات :

[27] (**قـــالَ سَـــنَنْظُرُ أَصَـــدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ**)

أي سنستكشف صـــحة ما تقـــول عن طريق الأمر المخوّل إليك.

[28] (**اذْهَبْ بِكِتـابِي هـذا فَأَلْقِـهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَـوَلَّ عَنْهُمْ**)

كلّف سـليمان الهدهد بمهمـتين حين بعثه بالكتـاب : أولاهما : إيصال الرسالة ، وثانيهما : التجسس.

(**فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ**)

لمعرفة ردّ فعلهم تجاه الرسالة.

وبالفعل أخذ الهدهد الرســالة وطــار بها ، ولما وصل وجد بلقيس نائمة ، فوضعها على نحرها ، فانتبهت وقرأتها ، وفي الحال دعت المستشارين للاجتماع بسرعة.

[29] (**قـالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتـابٌ كَرِيمٌ**)

الملأ : الاشراف ، قالت لهم : لقد وصلني كتاب كريم يدل على أنّ مرسلة رجل عظيم ، وأنّ في الكتـاب كرامة ، ثم قرأته عليهم :

[30] (**إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْـمِ اللـهِ الـرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**)

ويبـدو ان شـروط الرسـالة الكريمة قد اجتمعت في كتـاب سـليمان لبلقيس ، أو ليس كتـاب المـرء رسـول عقله؟!

لقد افتتح الكتــاب باسم الله الــرحمن الــرحيم مما عكس روح التوحيد ، ومعـــــــاني العطف والرحمة عند صاحب الكتاب ، وقد كـان من سـليمان ذلك الـذي طبقت شـهرته الطيبة الافـاق ، وكـان مختوما ، وقد حمله طـير السعد من الفضـاء ، ووضـعه بهـدوء على نحرها ، مما دل على مزيد من الاحترام لها.

[31] (**أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**)

لا تحـاولوا ان تحـاربوني ، انما تعـالوا مسـلمين. ولا ريب ان كتابا بهـذا الإيجـاز والأسـلوب يحمل في طيّاته الوعيد.

[32] (**قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي**)

افتـــــوني : اي طلبت منهم الفتيا ، وهي في الواقع حكم نـابع من القواعد والأصـول العامة الـتي يلـتزم بها ، فلو طبّقنا القاعدة المسمّاة بقاعـدة الـبراءة الفقهية على حادثة معينة أو على حكم خاص فإنّا نسـمّي هـذا التطـبيق بـالفتوى ، وملكة سـبأ طلبت من الملأ المستشـارين البتّ في المسـألة وفق القواعد والتقاليد والأفكـار السـائدة ، وتطبيق تلك القيم على واقع الحياة.

(**ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ**)

إنني لا أسـتطيع أنّ أتخذ قـرارا حازما وقطعيّا ، ما لم تكونوا شهودا معي في اتخاذه. انها كانت تتخذ القـرار بعد ان تستفتيهم وتشهدهم عليه.

[33] (**قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ**)

نحن نملك القـــوة والارادة للمقاومة ، وهاتـــان هما الصـــفتان اللتـــان يجب توفرهما في الأمة ، يقـــول ربنا سبحانه وتعالى : (**وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُـوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ**). [2]

ان القـوة الـتي لا ينتفع بها في إنجـاز عمل ما لا تنفع شـيئا ، وان القـوة بـدون الاسـتعداد الفعلي للحـرب تظل عقيمة ، هنـاك مليـارد إنسـان مسـلم يلـتزمون ظـاهرا بـواجب الجهـاد في العـالم ، ولكن حينما تعتـدي إسـرائيل على المسـلمين لا نحشد القـوة لمواجهتها لاننا نعـاني من عدم الاستعداد.

(**وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ**)

الـرأي رأيك ، والأمر إليـك. إنك لا تحكمين بـالهوى ، ولكن فكّري جيدا ثم أمري.

[34] (**قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً**)

لقد عبّرت عن وجهة نظرها في الأمر قائلة : لو ذهبنا الى مملكة سـليمان لسـلمت بلادنا منهم ، ولكن لو جاءنا بجنوده لدمرت بلادنا تحت سنابك خيلهم ، ذلك ان الملوك حينما يـدخلون بلادا ما يحـاولون الاسـتفادة من خيراتها ، وبذلك يستنزفون مواردها لمصـلحتهم فتخـرب ، فصـاحب الأرض وأبنـاء البلاد بطبعهم يحرصـون على مـوارد بلادهم وخيراتها ، ويحزّ في أنفسـهم ان يـروا خـيرات بلادهم نهبا للأجنبي المسـتغل ، فـالفلاح ـ مثلا ـ يحافظ على أرضه ، ويهتم بها ، ولا ينهكها بالزراعة ، فيزرعها سنة ويتركها في السنة التي تليها لتستعيد التربة قوتها وخصوبتها ، وحين

---

(2) الأنفال / (60).

يــزرع الأرض يحتفظ بقسم من الحنطة ــ مثلا ــ كبـذور ، ويشــتري بقسم منها ســمادا للأرض ، وهـذا هو الأســلوب المعتاد ، ولكن حين يغزو الاجنبي البلاد ينـتزع كـلّ الحنطة ، ويترك الأرض يبابا ، غير قابلة للإنتاج حـتى ولو بعد عشر سنين.

إذا لو ابتعدنا عن قوى الشرق والغــرب لاســتطعنا ان نخطط لأنفســنا تخطيطا ســليما ، فنســتخرج من النفط بقــدر ما يحتاجه بلــدنا من نفقــات ، فنخصص قســما من المــوارد الــتي تــدرّها علينا الصــادرات النفطية للزراعة ، وآخر للصـــناعة وعمـــارة الأرض ، وقســـما للمواصـــلات ولسائر نفقات البلاد ، ولكن حينما تكـون مواردنا البترولية مرتبطة بــالغرب والشــرق فلن نحصل منها على شــيء ، لان هذه الموارد تذهب الى خزائن الأموال الاجنبية لتصدر لنا الســلاح والســلع ، ومنتجاتها الى ان تغــرق الأســواق ، بالاضافة الى امتصاصها ما نحصل عليه من أتعاب.

إنّ نفقــات التســليح تفــرض علينا فرضا ، والســلع الكمالية وأســباب الإفســاد تغــزو بلادنا وأســواقها ، لان الاجنـبي لا تهمه مصـلحة البلد وشـعبه ، ولهـذا فهو يفسد أهل البلاد وأرضها ، فمــزارع القطن في مصر دمــرت من قبل المســتعمرين ، والإصــلاح الــزراعي الاســتعماري في إيران في زمن الشاه المقبور جعل من إيــران ــ المكتفية زراعيا والتي كانت تصدر منتوجاتها الزراعية والصــناعية ــ بلـــدا بلا زراعة ، وتحـــوّلت من دولة مصـــدّرة الى دولة تستورد كافة المحاصيل الزراعية الاستهلاكية من الخارج ، بعكس ما يحصل الآن بعد ان تحـــــرّرت إيــــــران على يد القيادة الرشيدة والجماهير المستضعفة.

ولطالما ســعى المســتعمرون في ســبيل إفســاد المجتمع عن طريق أفراد المجتمع ذاته ، وذلك بأن يبحثـوا عن مجموعة من المنبــوذين بســبب ابتعـــادهم عن قيم المجتمع ، فيســتخدمونهم لبث الفرقة والفســاد بين أبنــاء الشعب الواحد ، ولو بحثت عن أصول

الأسر الحاكمة لوجــدت أنهم ينتمــون الى أســوأ وأحط الأسر والعشائر ، فالمستعمرون يبحثـون عن هـؤلاء تحت كل حجر ومدر ، ويحكّمونهم في رقاب أبناء البلد.

إنّهم لا يبحثون عن الشـرفاء ، لان الشـريف لا يرضى ان يسلّم مقادير بلده للأجنبي ، ويرفض التعاون معه ، ولا يستســـــيغ رؤية بلاده وقد نهبت من قبل الغربــــــيين والشرقيين.

ولو خـــرج الاجنـــبي من البلاد فســـيحكمها أبناؤها الملتزمون بالقيم الاسلامية ، ويتحوّل المجتمع الى مجتمع ملتزم بالإسلام وأحكامه ، وشرائعه ، وأخلاقياته ، وبالتالي يصــبح مجتمع الفضــيلة ، ولكن الاجنــبي يفعل العكس ، وكما يقول القرآن الحكيم : «**وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً**».

حينما دخل البريطــانيون العــراق مســتعمرين نشر إعلان في النجف الأشــرف بــأنّ الحكومة الاســتعمارية بحاجة الى شرطة ، ويجب ان يكـون عمر من يتقـدم الى الخدمة في الشـــرطة بين الثامنة عشــــرة والخامسة والثلاثين من العمر ، فــاجتمع بعض النــاس ممن كــانوا بحاجة الى العمل ، ولمّا رأى الحاكم البريطـاني كـثرة من جـــاء في طلب العمل في ســـلك الشـــرطة ، ولم تكن الحكومة المسـتعمرة بحاجة الى أكـثر من عشـرة ، قـام الحاكم فيهم خطيبا ، وقال لهم : إنــني لست بحاجة إليكم ، ولكن لو كــان فيكم عــدد من أولاد الزنا فليبقــوا ، فأخذ كــلّ واحد من الحاضــرين ينظر الى صــاحبه ، ثم تفــرّق الجميع الّا عدة قليلة ممن لفظهم المجتمع ، وممّن لا يأثم لو نسب الى الزنا ، وربما لم يكونـــوا أبنـــاء زنا ، ولكنهم كانوا سفلة ، لا تهمهم التضـحية بشـرفهم ليصـبحوا خـدما للاجنــبي ، والشــريف لا يرضى أن يكــون شــرطيّا يخــدم الاجنـــبي ضد أبنـــاء وطنه ، ولا يرضى التضـــحية بقيم مجتمعة.

(**وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ**)

وفي هـــــذا المقطع من الآية تأكيد من قبل الله على الحقيقة التي طرحتها بلقيس عن الملوك.

وَإِنِّي مُرْسِــــلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنـــاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِـــعُ
الْمُرْسَـلُونَ (35) فَلَمَّا جـاءَ سُـلَيْمانَ قـالَ أَتُمِـدُّونَنِ
بِمالٍ فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَـدِيَّتِكُمْ
تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَـأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُـودٍ لا قِبَـلَ
لَهُمْ بِها وَلَنُخْـرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صـاغِرُونَ (37)
قـالَ يا أَيُّهَا الْمَلَـؤُا أَيُّكُمْ يَـأْتِينِي بِعَرْشِـها قَبْـلَ أَنْ
يَـأْتُونِي مُسْـلِمِينَ (38) قـالَ عِفْـرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا
آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْـهِ لَقَـوِيٌّ
أَمِينٌ (39) قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتـابِ أَنَا آتِيـكَ
بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْـدَهُ
قـالَ هـذا مِنْ فَضْـلِ رَبِّي لِيَبْلُـوَنِي أَأَشْـكُرُ أَمْ أَكْفُـرُ
وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِـهِ وَمَنْ كَفَـرَ فَـإِنَّ رَبِّي
غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي
أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جاءَتْ قِيـلَ
أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُـوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها
وَكُنَّا مُسْلِمِينَ

(42) وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُـدُ مِنْ دُونِ اللـهِ إِنَّها كـانَتْ
مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (43) قِيـلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّـرْحَ فَلَمَّا
رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَـرْحٌ
مُمَــرَّدٌ مِنْ قَــوارِيرَ قــالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِــي
وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (44)

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

هدى من الآيات :

بعد ان استشـــارت بلقيس قومها في أمر الرســـالة الــتي جــاء بها الهدهد ، قــالوا : إنّنا أولــوا بــأس وقــوة ، ومســتعدّون للحــرب ، لكنّها قــالت : إنّنا سنشــتري رضى سليمان بالهدايا الثمينة ، فـان كـان من الـذين تسـتهويهم الدنيا قبل ، وان لم يكن كـذلك وكـان نبيّا فـالأمر يختلف ، ولا مجال لدينا يومئذ لمعارضته.

والذي نستفيده من هـذه العملية ــ حين بعثت بلقيس بالهـدايا ــ ان من عقل هـذه الملكة ــ واعقل النـاس من جمع عقـول النـاس الى عقله ــ انها لم تحـزم في القـرار بالحرب أو السلم ، انما تركت لنفسها فرصة ـ حـتى يعـود الرسول ـ تفكّر فيها ، حتى لو اتخذت قرارا يكــون قرارها سليما ، وهكذا فان القرار الناجح هو الـذي يتخـذه صـاحبه بعد توافر كل مكوناته : (المعلومـات والخـبرات والتفكـير السليم).

وهكذا تحرك رسول بلقيس حتى وصل الى سليمان ، فلمّا سلّمه الهدايا

استصـغرها واستصـغرهم أيضا ، ولمّا عـاد الرسـول الى بلقيس وأخبرها بما جرى عرفت أنّ سليمان ليس كسـائر الملـوك ، ولمّا كـان الرسـول يحمل تهديـدا بـالزحف نحو مملكتها إن لم تـــأت بلقيس وقومها مســلمين ، جمعت أمرها على المسـير الى سـليمان ، وقبل أن تتحـرك من اليمن كان سليمان يبحث عمن يأتيه بعرشـها الـذي يبلغ (25) ذراعا طـــولا وعرضا وارتفاعا وكـــان ذهبا ، فقـــام عفـريت من الجن وقـال : (**أَنَا آتِيكَ بِـهِ قَبْـلَ أَنْ تَقُـومَ مِنْ مَقامِكَ**) ، فقـام (آصف بن برخيـا) وصـيّ سـليمان ، وكان عنـده علم الاسم الأعظم ، فقـال : انا آتيك بعرشـها قبل ان يرتدّ إليك طرفك ، فأمره سـليمان بـذلك ، فـرأى العرش أمامه في لحظة ، وآنئذ أمر سليمان بإجراء تغيـير بسيط فيه ، وذلك بـأن تجعل مقدمته فضة بـدل الـذهب ، وسأل بلقيس ان كـان هـذا عرشـها ، فنظـرت اليه نظـرة تفكّر ، ثم قـــالت : كأنه هو ، وتـــدلّ إجابتها على رجاحة عقلها ، إذ تعرّفت على عرشـها رغم تنكـيره ، ولم تتعجب من انتقاله من تلك المسافة البعيـدة الى قصر سـليمان ، ولكن الذي أثار دهشتها ، أنّ عرشها كان في سبعة أروقة متداخلة ، وكلها مغلقة ، ويحيطها الخــدم ، والجيش ، ولم يكن قد طرأ تغيير في ملكها سوى انتقالها هي الى مملكة سـليمان (ع)، فكيف انتقل عرشـها؟! فعـرفت أنّه انتقل بقدرة قادر عظيم.

إنّ هـدف سـليمان من إحضـار العـرش هو تـذكير بلقيس بأن معرفتها لم تنفعها ، وإنّ قوتها ليست بكبيرة ، وان ما بنته ليس سـوى نسج للعنكبـوت ، لأنه لا يسـتند على قوة الإيمان ، ولكنها لم تفهم المغـزى إذ كـانت تفقد بصيرة الايمـان الـتي تهـديها الى بـواطن الأمـور ــ كما هو حال الكثير من المثقفين في عالم اليـوم ــ ولكي يختبرها ويعرفها على الحقيقة أكثر أمر سليمان بـأن يوضع عرشه في مكـان ما ، وأجـرى بين عرشه والبـاب مـاء ، ووضع على الماء جسرا من الزجاج ، جعل تحته بعض الأسماك ، والأحيـاء المائية ، ثم أمر بإدخـال بلقيس ، فلمّا فـوجئت بالماء ، ظنّت أنّ

سليمان يريد إهلاكها غرقا ، لكنها قررت اقتحام اللجّة ، فكشفت عن ساقيها تهيؤا للعبور ، وإذا بها تصطكان بجسر الزجاج ، الأمر الذي جعلها تنتبه الى أنها لا تملك علما بكل شيء ، وأنّ كبرياءها خادع ومزيّف ، وأنّها من الناحية العقائدية على خطأ ، فأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

بينات من الآيات :

[35] (**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**)

قالت : انني سأرسل الى سليمان وحاشيته بهدية ، وانتظر ردّ الموفدين.

[36] (**فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ**)

وعند ما وصل المرسلون الى سليمان وقدموا هداياهم لم يأبه بها ، وقال لهم : إنّكم تريدون ان تغروني بالمال ، وأنا لست بحاجة إليه ، فالله منحني من الملك والمال ما هو خير من هديتكم التي لا قيمة لها. إنّ المال لا يفرحني ولا يسرّني ، ولكنّكم أنتم الذين تفرحون بالمال ، لأنكم عبيد الدنيا ، ومتاع الدنيا لا قيمة له عندي ، وإنما يفرح بالمال من اتخذه هدفا وغاية ومعبودا.

بلى. إنّه لم يغترّ بزخارف زينة الحياة الدنيا ، وفدى نفسه من أسرها ، ولهذا فقد استصغر إغراءات الملكة وتابعيها لسببين :

1 ـ فما يملكه أفضل من هدايا بلقيس بكثير ، إذ أعطي ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، ولم يبلغه أحد قبله.

2 ـ ولأنّه لم يكن يبحث عن الملك ، بل كان يسعى لنشر الرسالة والوعي ،

لذلك أجابهم : بأنكم أنتم الذين تفرحون بالهديّة ، أمّا نحن فلا نفــرح بالــدنيا وما فيها ، وإنّما هــدفنا نشر الرســالة ، وإقامة الحق.

[37] (**ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُـودٍ لا قِبَـلَ لَهُمْ بِها**)

لم تكن غاية سليمان المال ، وإنّما كانت غايته إرشـاد الضّـالين إلى الطريق الصـحيح ، فلـذلك أمر رئيس الوفد البلقيسي بالعودة إلى ملكته ، وهدّدهم بالحرب ، وتســيير جيش جرّار إلى بلادهم لا يستطيعون مقاومته.

(**وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ**)

ونخرجهم من أرضـهم وهم مهـانون ومحقّـرون ، وهنا لك فارق كبير بين بلد يفتح عنوة فيمتلكه الفـاتحون بقيمة الـدم الـذي أراقـوه ، وبين بلد يصـطلح أهله عليه ، حينئذ تترك البلاد بيد أهلها فيتمتعون بحريتهم وكرامتهم أيضا.

هكذا عـرفت بلقيس أنّ عليها أن تسـير الى سـليمان طوعا قبل ان تســاق إليه كرها ، فلمّا حــزمت حقائبها ، وعلم سليمان ذلك طلب ممن حوله إحضار عرشها.

[38] (**قـالَ يا أَيُّهَا الْمَلَـؤُا أَيُّكُمْ يَـأْتِينِي بِعَرْشِـها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**)

ثم التفت الى من بحضــرته من حاشــيته ، طالبا أن يتــبرع أحــدهم بإحضــار عــرش بلقيس قبل أن تــأتي مستسلمة مع جماعتها.

[39] (**قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ**)

قال جنّيّ قوي بأنه يستطيع أن يحمل عـرش بلقيس إليه قبل أن ينقضي مجلسه ، الـــذي اعتـــاد أن يجلسه للقضاء بين الناس ، أي في غضون ساعات ، وإنه سـيأتي بـــالعرش بعظمته دون أن يســـرق من مجوهراته وزينته شيئا.

كيف يقتدر الجنّ على حمل هذا العرش العظيم خلال ساعات من اليمن إلى فلسطين؟! هذا مما لم يتعـرض له السياق القرآني ، ولعـلّ الأمثل بنا أن نتركه بعد أن نـؤمن به إجمالا لعدم وجود ما يدلّنا على استحالته.

[40] (**قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتـابِ أَنَا آتِيـكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**)

وقال الذي عنده علم من الكتاب ـ والكتاب هنا اللـوح المحفـوظ عند الله سـبحانه ـ بأنه سيحضـره قبل طرفة عين واحـــدة ، وأحضـــره في الحـــال باسم الله الأعظم ، وجاء في حديث مأثور عن الامام الباقر عليه السلام ـ انه قال :

«**إنّ آصف بن برخيا قـــال لســـليمان (ع) : مـــدّ عينيك حـــتى ينتهي طرفك ، فمـــدّ عينيه فنظر نحو اليمن ، ودعا آصف فغار العرش في مكانه بمـأرب ، ثم نبع عند مجلس سليمان بالشـام بقـدرة الله قبل أن يردّ طرفه**» [1]

ويبقى سؤال : هل كان سليمان أعلم أم وزيره آصف بن برخيا؟ ويجيب عن ذلك الإمام الهادي (ع) في الحـديث التالي :

روى العيّاشي في تفسـيره قـــال : التقى موسى بن محمد بن علي بن موسى ، ويحيى بن أكثم فسأله ، قال : فدخلت على أخي علي بن محمد عليهما السلام ـ إذ دار ـ

---

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (87).

بيـني وبينه من المواعظ حـتى انتهيت إلى طاعته ، فقلت له : جعلت فـداك إنّ ابن أكثم سـألني عن مسـائل أفتيه فيها ، فضحك ثم قال : هل أفتيته فيهـا؟ قلت : لا ، قـال : ولم؟ قلت : لم أعرفها ، قـال هو : ما هي؟ قلت : قـال : أخــبرني عن ســليمان أ كــان محتاجا إلى علم آصف بن برخيا؟ ثم ذكرت المسائل قال :

أكتب يا أخي : بسم الله الرحمن الرحيم ، سألت عن قول الله تعـالى في كتابه : «**قـالَ الَّذِي عِنْـدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتــابِ**» فهو آصف بن برخيا ، ولم يعجز ســليمان عن معونة ما عرف آصف ، لكنّه ـ صلوات الله عليه ـ أحبّ أن يعـرف من الجن والانس أنه الحجّة من بعــده ، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بـأمر الله ، ففهّمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته ، كما فهم ســليمان في حيــوة داود ، ولتعـرف إمامته ونبّوته من بعـده لتأكيد الحجة على الخلق [2]

بلى. إنّ ســليمان (ع) اختــار آصف بن برخيا للقيــام بذلك الدور من أجل أن يبيّن للناس أنّه الوصي من بعده ، وحين نقـرأ تـاريخ الأنبيـاء (ع) نجد أنّهم يختـارون مواقف معينة يظهرون فيها أوصـياءهم ، حـتى يكـون واضـحا عند النـاس من هو الخليفة من بعـدهم ، وهكـذا لا يرحلـون إلّا بعد أن يجعلوا لمستقبل الرسالة ضمانا.

ونســتوحي من ســورة النمل بـأن الملك يقــوم على ثلاثة أركـــــان هي : العلم ، وأعلى مراتبه أن يســــتفيد الإنسان من خبرات الآخــرين وعقــولهم «**وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**» والحـزم «**فَـإِذا عَـزَمْتَ**» والتوكل «**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللـهِ**» ولقد اجتمع لسـليمان (ع) الملك والقــوة والطاعة من رعيته ، وكان في جنـده من يسـتطيع أن يحمل عرشا كعــرش بلقيس ، ويــأتي به من بلد بعيد كـاليمن ـــ خلال طرفة عين ـــ ولكن ذلك كله لم يكن أساسا حقيقيا لملكه ، بل ان القوة الحقيقية التي استند عليها هي الأمداد

---

(2) المصدر ص (91).

الغيبي من الله ، قال تعالى : (**وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْـدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِـالْمُؤْمِنِينَ**) [3] والملاحظ أنّ القرآن قدّم نصر الله على عون المؤمنين ، لأنّ الاوّل هو الأهم.

ونحن حين نبــدأ بــأيّ عمل ترانا نســتعين ببسم الله الـرحمن الـرحيم ، وسـليمان بـدوره اسـتعان بقـدرة الله وقوته ـ حين أرسل كتابه الى بلقيس ـ إذ قـال : «**إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ**» ليبين لها أنّ سـلطانه ليس مادياً ، وهكـذا نجد نوحا يخـاطب أصـحابه قائلا : «**ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللـهِ مَجْراها وَمُرْسـاها**» [4] لأنّ كل شـــــيء لا يتم إلّا باسم الله ، ولو لا اسم الله لم يسـتطع آصف بن برخيا إحضـار عـرش بلقيس في لحظة من اليمن الى أرض فلسطين.

(**فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**)

فلما رأى سـليمان عـرش بلقيس أمامه ، قـال : إنّ إحضار العـرش لم يتم بقـوّة ماديّة أو أرضـيّة ، ثم إنّ نعم الله على المرء ليست دليلا على سلامة النية بل إنّها ابتلاء ، فســلامة الجسم والغـــنى والأمـــان كلّها نعم للابتلاء ، واختبـار الإرادة ، والفتنة ، فلا ينبغي للمـرء أن يغـترّ بها ، إنما يجب أن يؤدّي حقّها بشكرها.

(**وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ**)

ومن شكر نعم الله ، فإنّ فائدة الشكر تعود عليه.

(**وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**)

---

(3) الأنفال / (62).

(4) هود / (41).

فلو أنّ جميع العـــالم كفر بالله ، فإنّه لا يضــرّه من كفــرهم شـــيئا ، وتبقى رحمته تســعهم ، ويظل يلطف بالكــافرين ، ويعطيهم الفرصة بعد الأخـــرى ، لأنّ رحمته وسعت كل شيء.

[41] (**قـالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَـها نَنْظُـرْ أَتَهْتَـدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ**)

أي غيّروا شـكل عرشـها ومظهـره حـتى يبـدو مختلفا لنختبر عقلها ، ونتعـرف على طبيعتها ، ونهـديها الى الحق والرسالة.

[42] (**فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قـالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ**)

وعند ما جاء بلقيس سئلت عن الســرير الـذي أتى به آصف بن برخيا ، وهل أنّه يشــبه ســرير ملكها ، فقــالت : كأنه هو بعينه ، ثم يقول سليمان (ع) : أنه تفوّق على هذه المــرأة بــدرجتين : العلم وهي خلــوّ منه ، والإيمــان وهي تفقده ، وأساس الملك هو العلم المقرون بالإيمان.

[43] (**وَصَـدَّها ما كـانَتْ تَعْبُـدُ مِنْ دُونِ اللـهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ**)

إنّ بلقيس كانت وثنيّة على دين آبائها وقومها ، ولذلك عبـدت الشــمس والنجــوم ، ولم تعبد الله الــذي خلقهنّ ، وضربت تلك العبـادة الخاطئة بينها وبين العلم حجابا منعها عن معرفة الله التي هي أوّل العلم.

[44] (**قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْـهُ حَسِـبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها**)

الصرح : القصر الكبير الواسع ، حسبته لجة : أي مياه عميقة ، ورفعت ذيل ثيابها لئلا تبتلّ حين تخوض فيه.

(**قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ**)

ممـرّد : مسـتوي ، وهي لفظة مـأخوذة من الأمـرد ، والأمـرد الـذي ليس عليه شـعر ، وبلغت الأرض الزجاجية حدا من الإستواء بحيث لا يبدو فيها أثر للتعرج ، ويبـدو أنّ الزجـاج كـان معـروف الصـناعة على عهد سـليمان (ع) وكانت صناعته متقدمة كالكثير من الصناعات الأخرى.

(**قـالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِـي وَأَسْـلَمْتُ مَـعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**)

وهنا عـرفت بلقيس الحقيقة ، وتبـدّد الضـباب الـذي كـــان يلـــفّ عقلها ويحجبها عن رؤية الحق ومعرفته ، وأخـذت تنظر إلى الحيـاة بمنظـار جديد ليس فيه مكـان للكبرياء.

لمـاذا حـدث هـذا التحـول التـام الـذي يشـبه لحظة الاعتراف عند المجرمين بعد طول المراوغة؟

حينما يصطدم الإنسان بقضية مّا كان يجهلها فإنّ هذه القضـية تثـير عقله ، فيبـدأ بإعـادة النظر في أفكـاره ومعتقداته ، وتـؤدي إعـادة النظر هـذه الى انهيـار النظـام الفكري الذي كـان يعتمد عليه ، فيتحـرر عقله من الأغلال القديمة ، ويأخذ بـــالتفكير من جديد حـــتى ينتهي الى الحقيقة .. هكذا آمن السحرة بموسى حين هزموا ، وهـذا ما حدث لبلقيس حين اصطدمت بما أعدّه لها سليمان من اختبار ، حيث أخذت تجدد نظرتها للحيـاة ، بعد أن وجـدت أنّ نظرتها السابقة لها كانت غير صحيحة ، فقررت

ان تتبنّى الفكر الصحيح الـذي يسـتند على الإيمـان بالله ، ونبذ عبـــادة الأنـــداد ، فـــآمنت وأســـلمت وجهها لله رب العالمين.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُـدُوا اللـهَ فَـإِذا هُمْ فَرِيقـانِ يَخْتَصِـمُونَ (45) قـالَ يا قَـوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْـلَ الْحَسَـنَةِ لَـوْ لا تَسْـتَغْفِرُونَ اللـهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُـونَ (46) قـالُوا اطَّيَّرْنا بِـكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَـلْ أَنْتُمْ قَـوْمٌ تُفْتَنُـونَ (47) وَكـانَ فِي الْمَدِينَـةِ تِسْـعَةُ رَهْـطٍ يُفْسِـدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْـلِحُونَ (48) قــالُوا تَقاسَــمُوا بِاللــهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِـهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْـراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْـرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ

---

47 [اطيّرنا بك] : أي تشاءمنا منك.

لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُـوا وَكـانُوا يَتَّقُونَ (53)

أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ

هدى من الآيات :

لقد تحــدّث القــرآن الكــريم في ســورة الشــعراء السابقة عن قصة نبيّ الله صـالح (ع) وقومه ثمـود ، وهنا يذكر تلك القصة مرّة أخرى وظاهرة التكـرار واضـحة في القرآن ، فمثلا قصة موسى (ع) مع فرعون ذكرت سبعين مــرّة ، وإنّما تتكــرّر قصص الأنبيــاء في القــرآن حسب المناسبات ، وفي كل مرّة بهدف متميّز يختلف عن المـرة السـابقة ، والهـدف العـام من ذكر القصص هو بث الـروح الإيمانية فينا من خلال الحوار والصراع الجاري بين الأنبياء والجاهلين من قومهم ، وتكرار الفكـرة ذاتها يفيد التـذكرة ، لأنّ غفلة الإنسان وشـهواته لا تنفـكّ تحجبه عن الحقيقة حينا بعد حين ، وحينما لا يتـــذكر الإنســـان يغفل ، فتهجم عليه حجب الشّـــــــهوات لتحجب عقله ، فهو بحاجة إلى التذكرة باستمرار.

(**إِنَّ الصَّـــلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشـــاءِ وَالْمُنْكَـــرِ**) ، والإنسان لا يكتفي بصلاة واحـدة في اليـوم والليلة ، وإنّما يجب أن يصـــلّي خمس مـــرات في اليـــوم ليمحي آثـــار الشهوات ،

وليرصد الشــــــهوات الطارئة ، ويطهّر قلبه من آثارها .. وهكـذا يسـتمر المـرء يحـارب بالصـلاة حـتى يختتم عمله وسلوكه بخير.

وكلما ذكرنا القــــرآن بالله ســــبحانه وبرســــالاته ، والصــــراع الأيــــدي بين الحق والباطل ، والرســــاليين والجـاهليين ، كلّما ضغطت علينا الظـروف باتجـاه تناسي ذلك الصـراع ، وجرّتنا نحو الغفلة عما يجـري في أنفسـنا وفي السـاحة الاجتماعية من صـراع بين الكفر والإيمـان ، ويكرّر الذكر الحكيم قصص المرسلين للتذكرة بهذا الأمر.

أما الهـدف الخـاص من تكـرار القصص القرآنية فهو تبيـان الفـارق بين النـور الالهي الهابط من عند الله باسم الرســــالة ، وبين الثقافة الأرضــــية الموغلة في وحل الشهوات والأهواء. وبين هاتين الثقافتين فرق كبـير جـدّا ، وقد حدّد القرآن الكريم هـذا الفـرق عـبر التميـيز بين من يحمل هذا النور الإلهي ، وبين من يتأثر بالثقافة الأرضـية ، فبينما تجد الشعراء في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلـون ، تجد الأنبيـاء على نقيض مما يفعله الشـعراء ، يتحملون مسئوليتهم ، ويتصدون للصراع.

وفي هذه السّورة يتابع السياق تأكيد وإيضـاح الهـدف ذاته ، ليــبيّن لنا أن رسل الله على حق ، ولكن يؤكد ذلك بعد صــمود النـبي أمـام الإغـراءات الماديّة ، والضـغوط المختلفة ، لذلك نجد سليمان (ع) يصـمد أمـام الإغـراءات المادية والسـلطوية للملك ، فلا يعتـدي ولا يتجـاوز حـتى على حـــدود النملة وحقوقها ، ومن ناحية أخـــرى نجد أنّ صالحا ـ عليه السلام ـ الذي أرسل إلى ثمود يقاوم ضـغط التهديد ، فيتآمرون على قتله ، وهو منهم ، وقوانين بلدهم لا تسمح لهم بذلك بأيّ شـكل من الأشـكال ، فيخطّطـون من أجل القضـاء عليه (ع) بطريقة معيّنة ، وهي أن تختـار كل قبيلة من القبائل التسع المتواجـدة في مدينة حجر ـــ الواقعة بين الشـامات والحجـاز ـــ رجلا منها فيقتلونه ثم ينكرون قتله ، فيضـيع دمه بين القبائل .. وهكـذا أرادوا أن يشترك جميع

أبناء البلد في دمه ، وبذلك يتخلّصون من وطأة القوانين التي تمنع قتله.

وفي تلك الليلة التي قررت فيها ثمود قتل نبيّهم ، أمر الله صالحا (ع) بالرحيل عن المدينة ، ولمّا رحل عنها جاء ثمود العذاب الشديد فدمرهم تدميرا ، وتشبه قصة المؤامرة هذه قصة تآمر كفار مكة على قتل النبي (ص) ليلة هجرته ، ومبيت علي (ع) على فراشه ، والتي باءت بالفشل بسبب هجرة النبي عن مكة.

ان هذه القصة هي قصة صراع وتحدّ ، وهاتين الصفتين من سمات الرسالة الالهية ، ولهذا فإنّ الرسل يتحدّون ، ويقاومون الضغوط ، ويتعرّضون للأزمات ، فهم يسعون من أجل تغيير الأوضاع باجتثاث الفساد من جذوره ، ومن هنا نعلم أنه لا يمكن أن يكون الرسل ممّن ينعزلون عن الأعمال الجهادية ، ويتركون التحدي والمواجهة والتصدي.

بينات من الآيات :

[45] (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً**)

ان الله سبحانه يبعث للناس أنبياء ، يختارهم من بينهم ، لكي يحدّثوهم بلغتهم ، ولتكون الحجة عليهم أبلغ ، ولكيلا يقولوا : لو كان النبي من قومنا لآمنّا به.

ولقد كانت رسالة صالح كرسالة سائر الأنبياء جاءت لتقول لهم :

(**أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ**)

وفي هذه الآية تلميح الى وجود الصراع بين طائفتين ممن أرسل إليهم الرسول ، فاذا هم فريقان : فريق يؤمن برسالة صالح ونبوّته ، وفريق يكذّبه ويكفر به ،

والصراع في بدايته حـوار وجـدل ينتهي الى مواجهة عنيفة ، وعادة ما يركّز القـرآن على موضـوع المواجهة ، ونجـده أكثر وضوحا في سورة القصص.

[46] (**قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّـيِّئَةِ قَبْـلَ الْحَسَنَةِ**)

لقد قـال لهم صـالح (ع) : إنّ مخـالفتكم وتحـدّيكم للرسالة دلالة على أنّكم تستعجلون العقاب والعـذاب قبل الثواب ، وأنكم لا تعطون لأنفسكم فرصة لتجربة الرسالة ، قبل رفضها وإنكارها.

وللإنسـان فرصة لتجربة بعض الحـوادث الجديـدة ، ولكن من الحوادث ما لا تسـتطيع تجربته ، ولا بد أن تنتفع بعقلك ، ولكن التجـارب تختلف فقد تكـون سـلبية أو إيجابية.

شـخص في غابة ، يقـال له : تعـال اركب معنا ، وإلّا أكلتك الـذئاب ، فيقـول : فلنجـرّب إن كـان ما تقولونه صحيحا. هل تنفعه التجربة؟!

كلّا .. وكـذلك الـذين لا يؤمنـون بالرسـالة حـتى يـروا العـذاب بـأعينهم ، وحينئذ لا ينفع إيمـانهم شـيئا. لمـاذا لم يجرّبوا الإيمان بعض الوقت إن كانوا يؤمنون بالتجربة؟!

(**لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**)

إنّكم أخطأتم وانحـرفتم ، فـالأولى لكم أن تسـتغفروا ربّكم عسى الله أن يغفر لكم ويـرحمكم ، فلا تصـابون بآثـار ذنـوبكم. وآثـار الـذنوب قد لا تـرى ، فلو ذهبت إلى مستعمرة المجذومين ، وأردت الدخول فيها ، لوجدت من يقـول لك : لا تـدخل ، ولو دخلت لانتقل إليك مكـروب المرض ، والحديث الشريف يقول :

«فر من المجذوم فرارك من الأسد»

فتصر على الـدخول لتجـرب ذلك ، وبعد خروجك تجد نفسك ســليما لم تصب بشــيء ، فتظن أنّه لم يصــبك الجـذام ، ولكن بعد فـترة من الـزمن تجد آثـار الاصـابة بالمرض بادية على جسمك ، ويؤكد الطـبيب ذلك ، ولكنك قد لا تصـــدّق أنّ المـــرض قد أصـــابك عند دخولك دار المجـذومين ، بل تـزعم أنّ المـرض أصـابك بسـبب آخر ، والطــبيب يعــرف أنّ جرثومة الجــذام تنتقل عن طريق العـدوى من الشـخص المصـاب ، ولكن لم يظهر أثرها الا بعد تكاثرها.

والــذنوب تشــبه الجــراثيم في آثارها فهي تــؤثر في جسم الإنسان وروحه وعقله ومجتمعة ولكن بعد فترة من الوقت. ومشكلة الإنسان هي نسيانه للذنب الذي يرتكبه ، ولا يـدري أنه يخلّف آثـارا قد لا تمحى ، فالرجل الـذي زار دار المجذومين كان بوسعه أن يتقي المرض قبل ظهــوره لو ذهب الى الطـبيب ليتحصّـن ضد المـرض ، وهـذا يعـني في لغة الــدّين الاســتغفار ، وحين يــرتكب الإنســان ذنبا فعليه الإسراع إلى الإستغفار كي يتخلّص من آثاره.

[47] (**قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ**)

ولعلهم تطيّـروا به لأنه كـان ينـذرهم عاقبة ذنـوبهم ، ومن طبيعة الإنسان الاسـتيناس إلى من يضـحكه ويدغـدغ أبدا احلامه ، ويزعم له أن درب الحياة مفروش بــالورود ، أمّا من ينـــذره ويـــذكّره بعيوبه ، ويبكيه ، فهو ينفر منه ويتشاءم به.

وهناك حديث حكيم يقول :

«صديقك من يبكيك لا من يضحك»

(**قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ**)

فقـال لهم صـالح : إنّ الشـؤم الـذي لحق بكم هو بسبب ذنوبكم وخطيئاتكم ، فأنتم مذنبون ، والعذاب ينزل عليكم من عند الله ، وهو الذي بعثني نذيرا.

(**بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ**)

وإنّكم لا تعلمون بأن الله حين أنعم عليكم بهذه النعم أراد أن يفتنكم بها ، فـالنعم ليست سـوى ابتلاء ، وهي ليست دائمة ، ولا هي دائما خـير ، ولعـلّ نعمة يكـون وراءها شر مستطير.

[48] ويبدو أنّ جماعة من قوم صالح كـانت قد آمنت به ، وكاد الإيمان ينتشر بين عامة النـاس لو لا منع أشـرار ثمود عن ذلك.

(**وَكـانَ فِي الْمَدِينَـةِ تِسْـعَةُ رَهْـطٍ يُفْسِـدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ**)

وكان في المدينة تسعة شيوخ عشائر تسعى للإفسـاد ولا تصلح. إنّ النظـام القبلي إطـار للمجتمع البشـري وهو بذاته ليس مضـرا ، إنّما القـوانين والأعـراف الـتي فيه ـ والتي تعكس روحه ووجهته ـ هي الـتي قد تفسد وتفسد ، ويبدو أنّ قبائل ثمـود قد بلغت هـذا الـدرك الأسـفل ، وإذا فسد النظام بدأت نهاية المدينة ، فاذا تحول النظام الـذي أنشأ من أجل حماية الحقـوق ، ومنع الترهّل ، والمحافظة على القيم الحضـارية إلى أداة للفسـاد ، والاعتـداء ، والتجاوز فإنّ نهايته قد اقتربت.

[49] (**قالُوا تَقاسَمُوا بِاللهِ**)

حين تآمروا على قتله أقسموا بالله على ذلك ، ولعـلّ هذا يدلّ على أنّهم كانوا يستخدمون الدّين ـ أيضا ـ وسـيلة لعدوانهم وفسادهم.

(**لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ**)

أي قرّروا أن يذهبوا الى داره ليلا فيقتلوه وأهله.

(**ثُمَّ لَنَقُـولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَـهِدْنا مَهْلِـكَ أَهْلِـهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ**)

وبعد ذلك يقولـــون لقبيلته : إنّهم لم يـــروا قتله ، ويؤكّدون إنهم صادقون فيما يقولون.

[50] (**وَمَكَـرُوا مَكْـراً وَمَكَرْنا مَكْـراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**)

وحينما كانوا يخططون ، كان الله سبحانه قد دبّر لهم أمرا. إنّ الله يعلم ما في نفس الإنسـان ، بينما هو لا يعلم ما في نفسه سبحانه ، ولا بد أن يخضع لربّه شاء أم أبى.

[51] (**فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ**)

فقد انتهوا ولم يستفيدوا من الفرصة.

(**أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ**)

لماذا دمـرهم الله وقـومهم؟ ولمـاذا اسـتحقّ قـومهم العذاب؟

والجواب : لأنّهم رضوا بـالكفر وسـكتوا ، ولم يتّحـدوا أو يثـوروا ضـده ، فحينما جـاء العـذاب شـملهم أجمعين ، وكما قـال الله تعـالى : (**وَاتَّقُـوا فِتْنَـةً لا تُصِـيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ**) [1] فإذا جاء العذاب فإنّه لا

---

(1) الأنفال / (25).

يشـــمل الكفـــار فقط وإنّما من ســـكتوا عنهم ، ورضـــوا بأعمالهم أيضا ، وهكذا أيضا حال من يسكت ـ اليوم ـ عن ظلم الطغاة والمفسدين.

[52] (**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا**)

كان أهل الجزيرة عادة ما يـذهبون الى الشـام ، وفي طـــريقهم إليها يمـــرّون (بمـــدائن صـــالح) وهي حجر ، فيشـاهدون بيـوتهم الخاوية المنحوتة من الصـخر ، وإلى الآن آثارها شاخصة للعيان ، ويقال : أنهم نحتوا بيوتهم من الجبـال ، ثم نزلـوا الى الصـحراء ، فدمـدم عليهم ربهم بـذنبهم ، وأهلكهم بما ظلمـوا ، وقد جـاء في الروايـات الشريفة :

«**الظلم في الدنيا بوار ، وفي الآخرة دمار**» [2]

«**من جار أهلكه جوره**» [3]

«**من عمل بالجور ، عجّل الله هلكه**» [4]

«**حقّ على الله عزّ وجـلّ أن لا يعصى في دار الا أضحاها للشمس حتى تطهرها**» [5]

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**)

إنّ في آثارهم شاهدا ودليلا للذين يعتبرون بالمثلات.

---

(2) ميزان الحكمة ص (595).

(3 ، 4) المصدر ص (598).

(5) نور الثقلين / ج (4) ص (94).

وهنـــــاك مفارقة بين قصة ثمـــــود حيث أهلكهم الله وقصة بلقيس حيث أسلمت مع سـليمان لـربّ العـالمين ، وهما حضارتان عربيتان ، خضعت إحداهما للرسالة بالرغم من أن حاملها لم يكن عربيا وهو سليمان (ع)، بينما تحدّث الأخرى رسـالات الله مع أنّ حاملها كـان أخا لهم ، شـريفا بينهم ، بل وحاولت اغتياله لو لا نصر الله له.

[53] (**وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ**)

وأنقذ الله المؤمنين الذين يخشـون ربهم من العـذاب الذي أصاب ثمود ، فكما أنّ الكفر والظلم سبب الــدمار ، فإنّ الإيمان والتقوى سبب للنجاة.

وَلُوطــــاً إِذْ قــالَ لِقَوْمِــهِ أَتَــأْتُونَ الْفاحِشَــةَ وَأَنْتُمْ
تُبْصِرُونَ (54) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجـالَ شَـهْوَةً مِنْ دُونِ
النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَـوْمٌ تَجْهَلُـونَ (55) فَما كـانَ جَـوابَ
قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَـرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ
أُنـاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْنــاهُ وَأَهْلَـهُ إِلاَّ امْرَأَتَـهُ
قَـدَّرْناها مِنَ الْغـابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَـراً
فَساءَ مَطَـرُ الْمُنْـذَرِينَ (58) قُـلِ الْحَمْـدُ لِلَّهِ وَسَـلامٌ
عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللـهُ خَيْـرٌ أَمَّا يُشْـرِكُونَ (
59) أَمَّنْ خَلَــقَ السَّــماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْـزَلَ لَكُمْ مِنَ
السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَـةٍ ما كـانَ لَكُمْ
أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْـدِلُونَ (
60) أَمَّنْ جَعَـلَ الْأَرْضَ قَـراراً وَجَعَـلَ خِلالَها أَنْهـاراً
وَجَعَلَ لَها

رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَإِلهٌ مَـعَ اللـهِ بَـلْ
أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (61) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ
وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلهٌ مَـعَ اللـهِ
قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَـرِّ
وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ
مَعَ اللـهِ تَعـالَى اللـهُ عَمَّا يُشْـرِكُونَ (63) أَمَّنْ يَبْـدَؤُا
الْخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ وَمَنْ يَـرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـماءِ وَالْأَرْضِ
أَإِلهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هـاتُوا بُرْهـانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صـادِقِينَ (
64)

آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ

هدى من الآيات :

كان قوم لوط من الذين أصيبوا بالشذوذ ، والإسراف في الشهوة الجنسية حتى تمرّدوا على أوامر الله بسببها ، وعند ما نقــرأ حيــاة الأنبيــاء مع أقــوامهم نجد أنّ أســاس الفســاد لــدى الجميع واحد وهو : ضــعف الإيمــان بالله ، وبالتــالي الشــرك به ، مهما اختلفت مظــاهر الفســاد من قــوم لآخر ، والشــرك بالله هو الســبب المباشر لضــعف الإنســان ، وانبهــاره بزينة الحيــاة الــدنيا الى حــدّ الانهيــار أمامها ، بينما كـان عليه أن يسـخّرها لنفسه ، ولقد أسـجد الله الملائكة له تعبــيرا عن خضــوع الطبيعة ، لأنّ الملائكة الموكّلة بها ســـجدت له ، ومن جـــانب آخر علّم الله آدم الأسماء ، وأعطاه العلم والعقل وسيلة لتسخير الحياة في صالحه.

ولكنّ الإنسان كثير مّا يختار اتبـاع الهـوى ، والخضـوع لطبائعه بسـبب وسـاوس إبليس ، ولا شك انّ الـذي يعجز عن السيطرة على نفسه ، وإخضــاع طبائعه لعقله وللعلم الذي أعطاه الله إيّاه ، سوف لن يسخّر الطبيعة من حوله ، لأنه حينذاك سيصير

جـــزءا منها ، ولن يســخّر البشر الطبيعة في صـــالحه الا بالإرادة ، والسيطرة على النفس ، والنظريات الـتي تغفل جـانب الإرادة في الإنسـان هي الـتي تـؤمن بالحتميّـات ، وتسـلب الثقة من الإنسـان بنفسه أمـام ضـغط الظـروف المختلفة.

فالنظرية الماركسية تقول : إنّ الإقتصاد يدير الحياة ، وإنّ وسـائل الإنتـاج هي الـتي تصـوغ المجتمع ، وتسـيّر التـاريخ ، وبـدلا من أن يشـرف الإنسـان على الاقتصـاد ، يشـرف الاقتصـاد عليه ، والنظرية الاجتماعية تقـول : إنّ الوسط الاجتمـــاعي ، والمرحلة الاجتماعية التاريخية هي الـتي تصـوغ حيـاة الإنسـان ، وأنّ التوافق الاجتمـاعي هو أقوى إحساس يدفع البشر نحو أتجاه معيّن. وهناك نظرية متطرفة في علم النفس وضعها فرويد : ترى أنّ الإنسـان يخضع لشـهواته الجنسـية مباشـرة ، أو عن ردود أفعـال وإحباطـــات معينة ناتجة منها ، وكل هـــذه النظريـــات قد تكـون صـحيحة ، ولكن حينما يفقد البشر الإرادة والايمـان بالله ، أمّا المـؤمن فهو فـوق كـلّ هـذه الحتميّـات ، إذ يسـيطر على نفسه فلا الشـهوة الجنسـية ، ولا المجتمع الفاسد ، ولا الإقتصـاد ، أو السياسة ، أو ايّ عامل مـادي آخر يستطيع إخضـاعه والسـيطرة عليه ، وهـذا هو جـوهر الإسلام الذي تؤكّده الآيات الأخيرة من هذا الدرس.

وأيّهما أفضل للإنسـان أن يعبد الحجر ومثيله الإنسـان ، والطبيعة التي كلّف بتسخيرها ، أو أن يعبد الله؟ فعبـادة الله هي الـــتي تتوافق مع فطـــرة الإنســـان وعقله ، لأنّ الإيمان مغروس في البشر منذ عالم الذر ، يـوم قـال الله لبني آدم : «**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قـالُوا بَلى**» [1] إلّا ان العوامل المختلفة وأهمها نفس الإنســان هي الــتي تحجب البشر عن هذه الحقيقة ، ولا سبيل له للمحافظة على عهـده مع الله الا بترويض النفس والسيطرة عليها.

---

(1) الأعراف / (172).

لا يجد الإنسان ـ مهما بلغ به الإلحـاد ـ ملجأ غـير الله في لحظات الخطر ، فلو ركب سفينة ، وهبّت في عــرض البحر عليها عاصـفة فحطّمتها ، فـإلى من سـيلتجئ؟ هل سيلجأ إلى صنمه؟! أو إلى رئيسه الذي كان يخضع له من دون اللـــه؟! لن يفعل شــيئا من ذلك ، وإنما سيشــعر أنّ هناك قوة أعظم من كـلّ ذلك ، هي الـتي تحـدّد مصـيره ، وبيــــدها إنقــــاذه من الهلاك ، وحينئذ يتجه نحوها يطلب الخلاص ، وذلك هو الله ربّ العالمين.

وبــــالرغم من أنّه لم يعبد الله بل عبد الطــــاغوت والشــيطان الــذي يتمثل في النفس الأمّــارة أو المجتمع المنحرف ، إلّا أنّ الله سـبحانه يسـتجيب له ، وينقـذه من ورطته ، وعند ما يتخلّص من الهلكة ويصل الى شــــاطئ الأمـان يعـود إلى انحرافه وخطئه ، كما فعل بنو إسـرائيل حين قالوا لموسى (ع) بعد ما خرجوا من البحر : «**اجْعَـلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ**» [2] وهذه من طبيعة الإنســان في كل مكان وزمان.

إنّ قلب الإنســـان يتصل بالله في الشــــدة وأوقـــات التـــذكرة ، ولكنّه في وقت الغفلة والنســـيان والضــغوط ينسى الله وعهده معه ـ وهـذه هي بداية الانحـراف ـ فهو يبــدأ من نســيان الله ، وقدرته ، وهيمنته ، ولو لا ذلك لما اســـتعبدتنا الأهـــواء ، ولما وجهتنا الأنظمة الاقتصــــادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والعسكرية ، وغيرها.

إنّ الضــمير الحيّ النقيّ هو الــذي يبقى متــوكّلا على ربّه باستمرار ، متصلا به في كلّ ظرف.

بينات من الآيات :

[54] من أعظم ما يســــعى اليه الأنبيـــــاء إنقــــاذ المجتمعات من الانحراف ،

---

(2) الأعراف / (138).

وتوجيهها نحو الخير ، ولا يثنيهم عن ذلك شـيء مهما كـان موقف المجتمع ، ذلك أنّهم يجدون أنفسهم مسئولون عن تبليغ رسـالتهم الـتي يتحمّلـون من أجلها كل أذى ، وهكـذا كان نبيّ الله لوط :

(**وَلُوطـاً إِذْ قـالَ لِقَوْمِـهِ أَتَـأْتُونَ الْفاحِشَـةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ**)

كيف تعملون المنكر وأنتم تعلمون قبحه ، وأنه ضـلال وانحراف؟!

[55] (**أَإِنَّكُمْ**)

وخلافا للسنة الطبيعية.

(**لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسـاءِ بَـلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**)

إذ تــتركون علمكم النــابع من العقل والوجـــدان الى الجهل الــذي هو كــلّ سـلوك لا يهتـدي بنــور العلم ، ولا يتوافق مع فطرة الإنسان.

[56] والذي يحمل رسالة التغيير يجب أن يتحمّل من أجل تبليغها كلّ مكـروه ، لا أن يكـون مسـتعدا لتحمّلها ما دامت لا تســبب له أذى ، فــإذا أوذي في الله نكص على عقبيـه. ونـبيّ الله لـوط كـان يعـرف مسـبقا موقف قومه السلبي إلّا أنّه لم يتوان في تحمل مسئوليّته.

(**فَما كانَ جَـوابَ قَوْمِـهِ إِلَّا أَنْ قـالُوا أَخْرِجُـوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ**)

حينما يتبع الإنســـان الجهل ، ويعـــارض العلم ، فإنه يعارض العالم أيضا ، والذي يعارض فكر إنسـان ما وعلمه فإنّه يعارضه شخصــيا في غــالب الأحيــان ، وهكــذا نجد الصراع بين لوط وقومه يتحوّل من اختلاف حول موضــوع معين ـ هو

اللواط ـ الى صراع عـنيف يسـعى فيه المجتمع الى طـرد نـبيّ الله ، وكثـيرا ما يلجأ الإنسـان الى منطق القـوة مع الأطـــراف المخالفة له حينما يفشل في معركة المنطق ، فعند ما أراد مجتمع لوط طرد المؤمنين قالوا :

(**إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ**)

إنَّ آل لــوط يريــدون حيــاة طــاهرة ، لــذلك يجب إخـــراجهم وطـــردهم. أو ليست الطهــارة تقف مع عقل الإنسـان وفطرتـه؟! بلى. ولكنّ أصـحاب منطق القـوة لا يهمّهم مع من يكـون الحـقّ ، لأنهم لا يريـدون الحق ، بل يريدون ما يتفق مع شهواتهم ولو كان الباطل بعينه.

وهذا هو منطق الطواغيت حين يخرجـون المؤمـنين ، ويعـذّبونهم ، ويقتلــونهم بحجة أنّهم يسـعون لإقامة حكم الله ، وكـأنّ ذلك جريمـــة. إنّهم يريـــدون منا أن تنحصر صـلاتنا بين جـدران المسـاجد ، أما أن تنعكس على واقعنا السياسي والاجتماعي فلا.

[57] وعند ما أجمع القوم على إخراج لوط ومن معه أنجــاهم الله ، وبقيت زوجته معهم لأنّها منحرفة ، فــنزل عليهم العذاب الذي شملها أيضا.

(**فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ**)

[58] (**وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَــراً فَســاءَ مَطَــرُ الْمُنْذَرِينَ**)

تسـتخدم كلمة المطر في القـرآن للسـوء فقط ، أما الغيث الذي يأتي من السماء فاسماؤه مختلفة ، وما أنزل الله مطر السـوء عليهم دون سـابق إنـذار ، بل أنـذرهم فكذّبوا بالنذر ، ولم ينتفعوا بها.

[59] (**قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ**)

لقد انتهى أولئك فأحمد الله أنّك هـــديت للإســـلام. والذي يحمد الله على الهداية وكونه مع المؤمنين لا بد ان يتّصل بعباده الذين اختارهم.

(**وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى**)

وهؤلاء الذين اختارهم الله من عباده علينا المسـارعة للانتماء إليهم إذا كنّا نعبد الله حقّا ، فالخاضع لله هو الـذي يسـلّم لأوليائه الـذين اصـطفاهم على خلقه ، والتسـليم الحقيقي هو الخضـوع لهم في القـول والعمل من جهة ، والتبرّي من أعدائهم في كل شـيء من جهة ثانية ، ولهـذا جاء في زيارة الأئمة عليهم السلام :

«**أشهد الله وأشهد أني ... موال لكم ولأوليائكم ، مبغض لأعـدائكم ومعـاد لهم ، سـلم لمن سـالمكم وحرب لمن حاربكم**» (3)

(**آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ**)

وهنا تبدأ سلسلة من الأسـئلة التوجيهية : أيّهما أفضل الله ما يشركون؟ وهدف هذه الأسئلة أن يحـرك الإنسـان عقله متفكّـرا ، ليبتعد عن الشـرك عن وعي وقناعة نابعة من عقله لو أجاب على هذه التساؤلات إجابة سليمة.

[60] في إطـار بيـان القـرآن لعـبر الأمم السـابقة ، يوقفنا السياق لحظـات ليـذكرنا بربّنا العزيز عـبر آياته في الحياة :

أولا : لان معرفة الله تســاهم في معرفة الحقـــائق الأخرى ، وبالذات في حقل الرسالة.

---

(3) مفاتيح الجنان / الزيارة الجامعة.

ثانيا : لأنّ كتـاب الخليقة نسـخة صـامتة لكتـاب الله الناطق المنزل على الرسل.

ولعل القرآن يشـير في كل سـياق إلى الآية الطبيعية التي توحي بنفس الأسماء التي تبينها آيات الله.

(**أَمَّنْ خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْـزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَـةٍ ما كـانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**)

إنَّ الاجابة على هذه التساؤلات كلها تهـدينا الى الله ، إلّا أنّ البشر كثـــيرا ما يميلـــون عن الحق لأنه يخـــالف أهواءهم.

[61] (**أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً**)

بسبب الجاذبية التي لولاها لكنا نسبح في هذا الفضاء الرحب.

(**وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً**)

يستفيد منها الإنسان ، ويقوّم بها حضارته.

(**وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ**)

من شأنها حفظ توازن الأرض.

(**وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً**)

حيث تنحـدر الميـاه من الجبـال وهي عـذب فـرات ، وعلى مقربة منها البحر وهو ملح أجاج ، والـتراب لا يحجز الماء عن التسرّب ، ولكن وصول الماء إلى التراب

يتحوّل الى طين يتحصّن أمام الماء فيمنعه من التسّرب.

(**أَإِلهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

بعد أن يتعـرض القـرآن إلى هـذه الآيـات ، ويعرضـها على عقل الإنســـان ، يتســـاءل : هل يوجد مع الله إله آخر؟! والإجابة بالطبع : كلا .. فلو كان ثمّة اله آخر لوجدنا أثــره في هــذه الحيــاة في الأرض أو في الســماء أو في البحـــار أو .. أو .. ، فـــإذا أشـــركنا دون دليل فنحن إذن جهلاء.

[62] ثمّ يطرح القرآن سؤالا آخر يخـاطب به وجـدان الإنسان ، إذ يقول :

(**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**)

من هو الـــذي تلتجئ إليه فيـــدفع عنك الخطر حين يحيط بك أيّها الإنسان؟!

(**وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ**)

أ ـــ يجعلكم خلفـــاء الأرض بإعطـــائكم الســـلطة السياسية.

ب ـ يجعل بعضكم يخلف بعضا.

وسواء هذا أو ذاك ، فإنّ الذي يهلك ملوكا ويسـتخلف آخرين ، ويهلك قوما ويـأتي بغـيرهم ، هل يعقل أن يكـون له شــريك؟! فلما ذا لا تفكّــرون بعقــولكم لتتوجهــوا الى الله؟

(**أَإِلهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ**)

في كثــير من الأحيــان يعتقد الإنســان أنّ الســلطة السياسية بيد الناس فيعبدهم ،

ولكنه لا يــدري أنّه لو شــاء الله لتهــاوى جميع الــذين يجلسون على العرش ، ولتساقطوا كـأوراق الخريف ، إنّ هـذه الحقيقة قريبة من الإنسـان ، ولو عـاد إلى فطرته ، وفتّش في داخله لوجدها ، ولكنّه ينساها بسبب الشـهوات ، والمشاكل ، والضغوط.

وحين يوجّهنا الله إلى الإيمان به ، فذلك لكي نستطيع السيطرة على أنفسـنا؟ وتسـخير الطبيعة من حولنا ، وإلّا سخرنا كلّ شيء ، وكما في الحديث القدسي :

«عبــدي أطعــني تكن مثلي أقــول للشــيء كن فيكون وتقول للشيء كن فيكون»

أمّا حين يخرج البشر من حصن الله ، ويبتعد عنه فإنّ كلّ ما في الطبيعة يستعبده ويسخّره ، كالذي صار شـهيدا للحمار فلم يصلّ عليه رسول الله مع سائر الشهداء.

[63] (**أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**)

الهداية من عند الله ، فلو لم يلهمه صـناعة البوصـلة لضـلّ طريقه ، ولو لم يرسل له الأنبيـاء لما عـرف الحق والباطل.

وقد يتصور الإنسان أنّ البوصلة هي الـتي تهديه حينما يتيه في عرض البحر ، أو أنّ عقله هو الـذي يهديه ، ولكن من الذي يلهمه معرفة الطريق حينما لا تنفعه البوصلة ولا يهديه العقـل؟! ثم إذا كـانت الهداية عن طريق العقل فهو من عند الله تعالى.

والمخترعون الكبار يقولون : إنّ الاختراعات نـوع من الإلهام ، حتى أنّ بعضهم يتوصّل إلى الاكتشافات في حال النوم ، وكذلك يقول كبار الشعراء : إنّ الشـعر شـيء من الإلهام في غالب الأوقات.

(**وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ**)

لقد جعل الله الأنبيــاء رعــاة للأغنــام إلّا بعضــهم ، والحكمة في ذلك كما جـاء في حـديث لينتظـروا الغيث ، والإنسان يعلم أنّ الذي يأتي بالسحاب عبر الريـاح إنّما هو الله ، إذا :

(**أَإِلهٌ مَعَ اللهِ تَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**)

مع كل هـذه الآيـات الواضـحة إلّا أنَّ بعضا من النـاس يتصوّرون أنّ النفع والضر يأتي به الحكّام ، فيخضعون لهم ، ويشركونهم مع الله.

[64] (**أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**)

من الـذي يـأتي بـالخلق من العـدم ، ثم يعيـده يـوم البعث؟!

(**وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ**)

من أين نحصل على الــرزق؟ هل من عند أنفســنا؟! كلا .. إنّه من عند الله ، الــذي بيــده أرزاق العبــاد ، ومن الناس من ينظر إلى السبب المباشر للــرزق ، ويغفل عن ملايين العوامل الـتي يـدبّرها الـربّ من وراء ذلك السـبب المباشر.

(**أَإِلهٌ مَعَ اللهِ**)

البعض يدّعون أنّ لله شركاء كالطواغيت.

(**قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

أحد الحكــام يشــتري طــائرة خاصة فيها مستشــفى للقلب ، وطـاقم خـاص من الأطبـاء خوفا من أن يمـوت ، فهل هذا إله حتى نشتري مرضاته بمعصية الله؟!

قُــلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّــماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ
اللــهُ وَما يَشْــعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُــونَ (65) بَــلِ ادَّارَكَ
عِلْمُهُمْ فِي الْآخِـرَةِ بَـلْ هُمْ فِي شَــكٍّ مِنْها بَـلْ هُمْ
مِنْها عَمُـونَ (66) وَقـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَإِذا كُنَّا تُرابـاً
وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُــونَ (67) لَقَــدْ وُعِــدْنا هــذا نَحْنُ
وَآباؤُنا مِنْ قَبْـلُ إِنْ هــذا إِلاَّ أَســاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)
قُـلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَـانْظُرُوا كَيْـفَ كـانَ عاقِبَـةُ
الْمُجْرِمِينَ (69) وَلا تَحْـزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَـيْقٍ
مِمَّا يَمْكُرُونَ (70) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صـادِقِينَ (71) قُـلْ عَسى أَنْ يَكُـونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ
الَّذِي تَسْــتَعْجِلُونَ (72) وَإِنَّ رَبَّكَ لَــذُو فَضْــلٍ عَلَى
النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (73)

---

72 [ردف] : دنا.

تَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

هدى من الآيات :

في هذه الآيات نجد خلاصة للعبر التي استوحيناها من قصص السورة ، وهي التذكرة بالحق ، ففي القسم الأوّل يــذكّرنا الله بنفسه ، بينما يــذكّرنا في القسم الآخر بيــوم القيامة ، ولكي نعــرف الحقــائق لا يكفي أن نثــير عقولنا فقط ، بل يجب أيضا استثارة الوجدان ، لأنّ العقل يحجب أحيانا بالغفلة والعناد ، أمّا حين يهتّز الوجدان فــإنّ الحجب تتساقط عنه ، ويعود الإنسان الى ربّه ، من هنا كــان علينا عند تلاوة آيات الــذكر الحكيم أن نتفاعل معها نفسـيّا لكي نصل إلى معرفة الله حقّا ، وفي ذات الـــــوقت يجب أن نعــرض كــلّ ذلك على العقل ، إذ من الخطأ تصــديق أيّ فكـرة دون عرضـها على العقل ، ذلك أنّ الـذي يستسـلم دون العودة للعقل قد يستسلم للباطل ، وهكذا يجب على الإنســان أن يســتثير عقله ووجدانه عند كل قضــيّة حــتى يتعـرّف على الحق أو الباطل فيها ، والمقصـود بالوجـدان تلك الجوانب الخيّرة من نفس الإنسان فهو ــ مثلا ــ يحبّ من أحسن اليه ، ويخشى من هو عظيم ، والذي بيده

نفعه وضـــــره ، فعند ما نعبد الله فلأننا نجد فيه مصـــــدر العظمة والقــوة ، وإنّه حســـبنا الــذي نــأنس إليه ، وفي الوقت ذاته يجب أن نخشاه لأنّه شديد العقاب والانتقـام ، ويمكن أن يصل إلينا من عنده عذاب عظيم.

وإنّ من طبيعة الإنسـان إبعـاد الحقـائق الكـبرى عن ذهنه ، فكما أنه لا يستطيع التركـيز بنظـره ولفـترة طويلة في قرص الشمس كذلك لا يستطيع أن يركّز فكره وعقله في الحقــائق الكــبرى كــالتفكير في الله أو المــوت أو القيامة ، وعند ما يجلس الإنســان في مجــالس الــذكر فيسـتمع إلى هـذه الحقـائق أو يقـرأ كتابا يـذكّره بها فإنّه يخشع قلبه ، ويتـــذكّر القيامة ، ولكنّه لا يبقى على هـــذا الحال طويلا ، فبعد فترة تجـده وقد أنساه الشـيطان تلك الحقــائق وعــاد إلى الغفلة مــرة أخــرى ، وهكــذا يبقى الإنسان في جدل مع نفسه ، فتـارة يتـذكر الحقيقة وتـارة يبتعد عنها ، ولــذلك ســمّي مكــان الصــلاة محرابا (بينما المحراب هو موقع الحرب) لأنّه يبقى في صراع باطن مع الأهـواء والشـيطان ، ويشـبه في مسـيره إلى معرفة الله الطــائرة حين تحلّق في الســماء ، فبمجــرد أن تعطب المحركات تهبط وربما تتحطم ، وهكـذا يسـقط البشر في وحل الرذيلة والشقاء حين يغفل عن الله والحق.

والآخــرة باعتبارها مســتقبلا وليس حاضــرا ، ولكونها مرحلة أخــرى من حيــاة الإنســان ، فــإنّ علمه يصــطدم بجدارها ، كما يجتمع الماء خلف السد ، وهكذا يتجمع علم البشر خلف هذا الجدار فيــدرك الواحد الآخر ، ولأنّ أمامه حــواجز من الشك والجحــود والكفر بــالآخرة فــإنّ علمه يتوقّف عند حدود الـدنيا ، أما المـؤمن فـإنّ علمه ينفذ من الــدنيا إلى الآخــرة ، ولعلّنا نفهم حــواجز الوصــول إلى الحقائق من خلال التدبر في نهايات الآيات ، يقـول تعـالى في الآية (60) :ـ (**بَـلْ هُمْ قَـوْمٌ يَعْـدِلُونَ**) وفي الآية (61) :ـ (**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**) وفي الآية (62) :ـ (**قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ**) وفي الآية (64) :ـ (**قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**) وفي الآية (66) : (**بَلِ ادَّارَكَ**

عِلْمُهُمْ) فـأولى مصـيباتهم أنهم يعـدلون بغـيره ، وتختلط عنــدهم مقــاييس الحق والباطل ، بــالرغم من أنّ أعظم صفات العقل تمييز الحق عن الباطل ، والخير عن الشر ، والنفع عن الضــرر ، أما المصــيبة الثانية : الجهل وعــدم العلم ، وجهلهم آت من غفلتهم ، وعـــدم تــذكرهم ذلك ، والطريق إلى العلم هو التذكّر ، والإنسـان إمّا يحصل عليه عن طريق الآخـرين وإمّا عن طريق التجـارب ، والـذي لا يتـذكر لا يسـتطيع الحصـول على العلم لا من الآخـرين ولا عبر التجارب ، ثم يطالبنا القـرآن الكـريم بالبرهـان ، ومن لا يملك البرهان لا يتمكّن أن يقول شيئا ، وأخـيرا يـبيّن لنا أنّ علمهم قد توقّف عند حدود الدنيا.

بينات من الآيات :

[65] لو عـاد الإنسـان إلى وجدانه لـرفض الخضـوع للأنداد. ومن أبرز ما يخشاه البشر المستقبل وما يخبّئه له من مفاجئات قد لا تكون سارة.

ومن الـــذي يعلم الغيب إلّا الله ، وهل يقـــدر أحد أن يتحكّم في المستقبل إلّا الله؟!

فهل كان كارتر يعلم بأنّ زوبعة سـوف تـدمّر طائراته في طبس ، وهل المخــــابرات تعلم أنّ مركبة الفضـــــاء (تشـالنجر) سـوف تتحطم بعد لحظـات من إطلاقهـا؟! لو كانوا يعلمون لما أقدموا على كل ذلك.

وكلمة أخيرة :

إنّ علم الغيب ليس كـــــلّ ما يعلم الإنســـــان عن المســتقبل ، بل معرفة الأشــياء بصــورة ذاتية ، فقد ذكر الامام أمير المؤمنين أنباء عن المسـتقبل ، فـزعم البعض أنّه علم الغيب ، فأوضح لهم الفــــــارق بين علم الغيب ومعرفة حوادث المستقبل ، فقال متحدّثا

لرجل كلبيّ زعم ذلك :

«يا أخا كلب ليس هو بعلم غيب ، وإنّما هو تعلّم من ذي علم ، وإنّما علم الغيب علم السـاعة ، وما عـدّده الله سـبحانه بقوله : (**إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**) ... الآية فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر أو أنـثى ، وقـبيح أو جميل ، وسـخيّ أو بخيل ، وشـقيّ أو سـعيد ، ومن يكـون للنار حطبا ، وفي الجنان للنبيين مرافقا ، فهذا علم الغيب الـــذي لا يعلمه إلّا الله ، وما ســوى ذلك فعلم علّمه الله نبيّه فعلّمنيه ، ودعا لي أن يعيه صــدري ، وتضــطمّ عليه جوانحي» [1]

(**قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**)

إنّ هؤلاء لا يشعرون حـتى مجـرّد شـعور مـتى يكـون بعثهم.

[66] (**بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ**)

لقد توقف علمهم وانتهى عند حـدود الـدنيا لنظـرتهم المادية ، وكفـرهم بالله تعـالى ، والمـؤمن يسـأل الله أن يتجاوز علمه وإدراكه الدنيا إلى الآخرة ، ففي الدعاء :

«**ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا**» [2]

ولا ريب أنّ الـذي يفكّر في الـدنيا فقط فـإنّ مصـيبته ستكون في دينه.

---

(1) نهج البلاغة / خ (128) / ص (186).

(2) مفاتيح الجنان / في أعمال ليلة النصف من شعبان.

والسبب من اقتصار علمهم على الدنيا هو شكّهم في الآخرة.

(**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها**)

بل أكثر من ذلك :

(**بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ**)

فلا يذكرون الآخرة ، كالأعمى الذي لا يعرف النـور ولا اللـون. ويبـدو أنّ في السـياق تـدرجا في مراحل جهلهم ، فقد توقّف علمهم فلا يعرفـــون أيّ شـــيء من شـــؤون الآخرة ، وهذا وحده سبب كاف لنبذهم من قبل اتبـاعهم ، ثم بيّن ربّنا أنهم أساسا يشـــكّون في الآخـــــرة ، فكيف ينفعـون أحـدا في دار يشـكّون في وجودها ، ثم بيّن أنّهم فقدوا ما كان يمكنهم معرفة الآخرة به وهو عين البصـيرة ، ومن لا يملك جهازا للإدراك فهل يتصدّر إدراكه لشيء.

[67] (**وَقـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَإِذا كُنَّا تُرابـاً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ**)

إنّهم يشكون في البعث والجـزاء لجهلهم بالله وقدرته ، وأيضا لجهلهم بالخلق.

[68] (**لَقَدْ وُعِـدْنا هـذا نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْـلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ**)

والأساطير هي الخرافات التي تشـيع داخل المجتمع ، ولا واقع لها. ولو أنّ هؤلاء تعمّقوا قليلا لعرفـوا أنّ الحكمة تقف وراء كلّ شيء في هذه الحياة ، ثم لعرفوا من خلال ذلك حقيقة المسؤولية ، وأنّ هناك دارا للجزاء هي الآخرة ، ولعل هذه الآية تفسر الآية السابقة وتبيّن أنّ سـبب عمه هـــؤلاء الأنـــداد ، ومن يشـــرك بهم من الجـــاهلين هو استبعادهم البعث وزعمهم بأنّه لا يكون ، لأنّهم لا يعرفـون كيف يمكن أن

يكــون ، وهل يجــوز أن تنكر وجــود شــيء لمجــرد أنّك لا تعرف كيف وجد ، وما هي عوامل وجوده أو تفاصيله؟!

[69] (**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**)

ومـــاذا نشـــاهد حينما نســـير في الأرض وننظر إلى التاريخ؟

إنّنا نشـاهد آثـار تلك الحضـارات الـتي بـادت بسـبب انحراف أهلها ، ورفضهم لرسالات الله ، وبالتـالي نشـاهد آثار الجزاء الدنيوي الذي يدلنّا على الجزاء في الآخرة.

[70] وأنت الذي تؤمن بالآخرة لا تحـزن عند ما تـرى العاقبة التي حلّت بالمجرمين ، ولا تفكّر فيهم :

(**وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**)

ولا تغتّم على المجـــرمين الـــذين ينتظـــرهم نفس المصير.

ولا تخش مكرهم ، لأنّ مكـرهم عند الله ، وفي إطـار سلطانه سبحانه ، وأنّ الذين سـبقوهم كـانوا أمكر منهم ، فلم يغنهم مكرهم شيئا حين قضى الله بتدميرهم.

(**وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ**)

ويوحي التعبير القرآني بأن علينا ألّا نأبه أبدا بمكــرهم ، بل حتى لا يؤثر خوف مكــرهم في خططنا الرامية لتبليغ الرسالة.

[71] (**وَيَقُولُــونَ مَــتى هــذَا الْوَعْــدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

دليل هؤلاء على عدم وجـود الآخـرة أنّها قد تـأخّرت ، ولكن هل إنّ عدم وقوع شيء بالأمس أو اليوم دليل على أنّه لن يقع في المستقبل؟

[72] (**قُلْ عَسى أَنْ يَكُـونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ**)

إنّكم تسـتبعدون يـوم الجـزاء ، ولكن ما يـدريكم ربما يحـــلّ بكم قريبا ، وكلمة «ردف» تـــدلّ على القـــرب ، إذ ليس ثمّة مسافة بين المترادفين على دابّة واحدة ، ثم إنّ العـذاب الأشد هو عـذاب القيامة ، ومن الغبـاء اسـتعجال مثل هذا العذاب!

[73] وتسأل : لماذا يؤخر الله العذاب؟

(**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ**)

إنّ التأخير تفضّل من الله ، ولكنّ الناس لا يستفيدون من هذه الفرصة بالتوبة ، بل لا يزالون يزدادون كفرا على كفر حـــتى يحـــلّ بهم الأجل ، (**فَـــإِذا جـــاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**).

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُـدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُـونَ (74)
وَما مِنْ غائِبَـةٍ فِي السَّـماءِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتـابٍ
مُبِينٍ (75) إِنَّ هذَا الْقُـرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْـرائِيلَ
أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَـةٌ
لِلْمُـؤْمِنِينَ (77) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِـي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِـهِ وَهُـوَ
الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَـقِّ
الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَـوْتى وَلا تُسْـمِعُ الصُّـمَّ
الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُـدْبِرِينَ (80) وَما أَنْتَ بِهـادِي الْعُمْيِ
عَنْ ضَـلالَتِهِمْ إِنْ تُسْـمِعُ إِلاَّ مَنْ يُـؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ
مُسْلِمُونَ (81)

وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

هدى من الآيات :

في إطار بيان خصائص الـوحي الإلهي ، وبعد التـذكرة بالله الذي أوحى بالكتاب ، وإنّه لا يعلم الغيب في الخليقة سـواه .. يـذكّرنا ربّنا بأنّه سـبحانه يعلم ما تكنّ صـدورهم من هواجس ونيّات ، وما يعلنـون من قـول ، وأنّه ما يغيب عن علمهم من حـوادث وظـواهر مكتوبة في كتـاب مـبين (اللوح المحفوظ ، والقرآن ، وعلم الأنبياء والأئمة منه).

وإنّ القـرآن يـبيّن لبـني إسـرائيل الحق فيما هم فيه يختلفون ، مما يشهد بأنّه قد نزل من لدن حكيم عليم.

والقرآن يحمل الهدى والرحمة إلى من يؤمن به وهذا شاهد صدقه ، ويقضي بحكمه العادل وهو العزيز العليم.

ويأمر الرسول والمؤمنين بالتوكّل عليه ، وعدم التردّد لأنهم على صراط حقّ

وواضح ، وألّا يأبهوا بأولئك الجاحـدين الـذين لم يجعل الله لهم نـورا. أو يمكن أن تسـمع المـوتى أو تسـمع الصـمّ الدعاء إذا ولّوا مدبرين؟! كذلك أعمى القلب لا يهتدي عن ضلالته ، إنّما يهتدي من يسلم وجهه لله.

وإذا ذكرنا الربّ تعالى بيوم الجزاء ، فلا بد أن يـذكّرنا بالرسالة التي هي إعداد للإنسان ليوم الحساب. وهكـذا لا نجد جانبا من العقائد الاسـلامية في القـرآن مبتـورا عن سـائر الجـوانب ، لأنّها كلّها تـدور حـول محـور واحد هو الايمان بالله ، فبعمق الإيمـان وبسـعته ، وبالتـالي بمعرفة الله عبر أسمائه الحسنى ، نتعرّف على سائر أبعاد العقائد الاسلامية.

لماذا جاءت الرسالة الالهية؟

والجواب : جاءت الرسالة لتحقيق الأهداف التالية :

1 ـ رفع الاختلاف. إذ وفّر الله سبحانه فرصة الوحـدة بين الناس عـبر الرسـالة ، أمّا إذا لم يـروا الاسـتفادة منها لرفع الخلاف بينهم فهذا شأنهم.

2 ـ الهداية. ولها مرحلتان :

أ) حـلّ الالغـاز. وأدنى قـدر من الهداية أن يعـرف الإنسان الإجابة على الأسئلة الحائرة في ذهنه : من الـذي خلق هذا الكون ، ولماذا؟ ومن خلقني ، ولمـاذا؟ ومن أين أتيت ، وإلى أين أصير؟ ، حـتى لا يتيه البشر ، ويقـول كما قال إيليا أبو ماضي في قصيدته المعروفة الطلاسم :

جئت لا أعلم من أين ولكنّي أتيت ... ولقد أبصرت قدّامي طريقا فمشيت

وسأبقى سائرا إن شئت هذا أو أبيت ... كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري

ومن دون بعث الرسالة تبقى كثيراً من الألغـاز حـائرة ، يدور الإنسان حول الكون ولكنه لا يصل الى مفتـاح حـلّ الالغــاز ، وفي النهاية يمسك القلم ليكتب «الإنســان ذلك المجهــول» فـاللّغز يبقى كما هو من دون الإيمــان بالله ، وتظلّ المعادلة ناقصة.

والذين يتحوّلون من الكفر إلى الإيمان يشبهون التائه في الصــحراء ، والــذي يأتيه شــخص ما ليرشــده على الطريق فيجد السكون والاطمئنان ، وتذهب عنه الحـيرة ، إن هذا هو الهدى.

ب) مرحلة التكامــل. وهي مرحلة العــروج بــروح الإنسان في مـدارج كمـالات المعرفة ، حـتى يبلغ به الأمر أن يقول :

«**لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا**»

أو إلى أن يقــول له الله : «**إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَــاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً**» [1]

من مظــاهر رحمة الله بالإنســان ان ربنا وفر فرصة الكمال في الهداية للبشر.

3 ـ الرحمة. وهي هـدف بعث الرسل ، ونعـني بها انّه ينبغي للنــاس أن يعيشــوا في هــذه الــدنيا مطمئــنين ، ومرحــومين لا محـــرومين ، وقد وفّر الله فرصة الرحمة للإنسان إن شاء استفاد منها.

بينات من الآيات :

[74] (**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ**)

---

(1) سورة طه / (12).

من نوايا وتوجيهات وأفكار.

(**وَما يُعْلِنُونَ**)

وهو أولى بالنسبة لمن يحيط بالسرّ ، ولعل الآية تشير إلى مخالفة قولهم لنياتهم.

[75] (**وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ**)

ما من شيء يغيب عن أنظارنا أو علمنا وخيالنا إلّا ويحيط به كتاب ربّنا ، وهو القرآن الذي أودعه الله مفاتيح الغيب واسمه الأعظم ، ومعارف الحياة ، ولكنّه خصّ بعلم تأويله الراسخين في العلم فقال : «**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا**» وكان الرسول وأئمة الهدى من أهل بيته هم الذين اصطفاهم وارتضاهم الرّب سبحانه ، وبذلك جاءت نصوص عديدة [2]

[76] (**إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**)

[77] كما أنّ القرآن يحمل في طياته الهدى والبصيرة.

(**وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**)

والهدى هنا بمعنيين : الأوّل : هو المرحلة التي تعني مجرد فكّ اللغز ، والثاني : هو أن تصل الى ما تريد الوصول اليه من المعارف المعنوية ، ومن بناء الذات والعروج بالروح الى سماء الإيمان.

فالقرآن سعادة وفلاح ـ ولكن بشرط أن يفهمه المؤمنون ـ برنامج عمل ،

---

(2) راجع تفسير نور الثقلين / ج (4) ص (96).

ومنهاج حياة ، يحصلوا من خلال تطبيقهم له على السعادة والرحمة.

[78] ويقضي الــربّ ســبحانه وتعــالى بين الحق والباطل في مواقف شتى :

الف : عند المــيزان في يــوم الحســاب ، حيث آخر الموازين القسط لذلك اليوم وهم لا يظلمون.

باء : عند ما يختلف النـاس ، ويريـدون فضّ خلافـاتهم على أساس عادل يجدون القرآن الكريم الذي هو القضـاء الفصل ، كما يجـدون الإمـام العـادل الـذي يفقه الكتـاب ويحكم به وقد استحفظ كتاب ربه.

جيم : عند ما يقضي بهلاك الباطل ونصـرة الحـق. ولا راد لقضائه سبحانه.

(**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِــي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِــهِ وَهُــوَ الْعَزِيــزُ الْعَلِيمُ**)

[79] وما دام الأمر كذلك ، فلا تخشى أحدا :

(**فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ**)

ما دام الحق ينصر ، وأنت على الحق ، فتوكل على الله ، وثق بالنصر والغلبة.

[80] ولا تأبه بجحود المعاندين ، وما عليك الا البلاغ.

(**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ**)

يستحيل أن يسمع الإنسان ميتا النداء ، ليس لإشـكال فيه بل لأنّ الميت فاقد لجهــاز الاســتقبال ، وقد قــال الشاعر :

لقد أسـمعت لو نـاديت حيّا ولكن لا حيـاة لمن تنـادي

أمّا الأصم الـــذي لا يســـمع فانه قد يفهمك من خلال حاسة البصر ، عبر الإشارات وبعض حركات الفم ، أما إذا أدبر فكيف يفهم ما تقول له؟!

[81] وهؤلاء الذين لا يستقبلون كلامك ـ أيّها الرسالي ـ ينبغي أن لا يؤثّروا عليك ، فتصـاب بـردّة فعل أو تشـكك في خطّك ورسـالتك ، لأنّ الإشـكال الحقيقي فيهم ، حيث أنّهم لا يملكون جهاز استقبال.

(**وَما أَنْتَ بِهـادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَـلالَتِهِمْ إِنْ تُسْـمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ**)

الــذي أسـلم نفسه للحق ، وهيّأها لاسـتقبال الهداية يمكن أن يستمع إليك ، لا الذين عميت بصائرهم ، ومـاتت قلوبهم.

وَإِذا وَقَـعَ الْقَـوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (82) وَيَوْمَ نَحْشُــرُ مِنْ كُـلِّ أُمَّةٍ فَوْجـاً مِمَّنْ يُكَـذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّى إِذا جاؤُ قـالَ أَكَـذَّبْتُمْ بِآيـاتِي وَلَمْ تُحِيطُـوا بِها عِلْمـاً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (84) وَوَقَـعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُـوا فَهُمْ لا يَنْطِقُـونَ (85) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهـارَ مُبْصِـراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُـونَ (86) وَيَـوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِـرِينَ (87) وَتَـرَى الْجِبـالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ

---

82 [دابة] : أي حيوان ، من دبّ أي سعى على سطح الأرض.
83 [يوزعون] : أي يدفعون ، وقيل : يحبسون وهو الأقرب.
87 [داخرين] : أذلاء صاغرين ، من دخر بمعنى ذل.

صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُـونَ
(88) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَـهُ خَيْـرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَـزَعٍ
يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ
فِي النَّارِ هَلْ تُجْـزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ (90) إِنَّما
أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْـدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَـهُ كُـلُّ
شَـيْءٍ وَأُمِـرْتُ أَنْ أَكُـونَ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ (91) وَأَنْ
أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَـدِي لِنَفْسِـهِ وَمَنْ
ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
سَـيُرِيكُمْ آياتِـهِ فَتَعْرِفُونَها وَما رَبُّكَ بِغافِـلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ (93))

وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ

هدى من الآيات :

ربما تلخّص لنا الآية الاخيرة من هـذا الـدرس مفهـوم السـورة كلّها ، فهي من جهة تعرّفنا بالله سـبحانه ، وبأسـمائه الحسـنى ، مما يثـير فينا الإحسـاس بالحمد ، فتجـري على ألسـتنا كلمة الحمد عفويّا ودونما تكلّف ، ونحن لا نستطيع إلّا ذم أنفسنا التي اختـارت الشـقاء ، أما ربّنا فإنّه يسـتحق الحمد بكل تأكيد ، فقد خلق الكـون برحمته ، وأجـرى فيه سـننه ، كما أجـرى في قلوبنا تيـارا من العقل والعلم والإرادة لكي نستفيد مما في الحياة من سنن.

ولكن تبقى مشـكلتنا نحن الـذين لا نسـتفيد من تلك السنن ، ولا من هذا التيّار الخيّر ، ولـذلك فـإنّ سـنة إلهيّة أخرى سوف تقضي علينا وهي سنة الجـزاء الـتي يؤكّـدها هذا الدرس.

وحينما يفسد النـاس فلا يبقى فيهم من بركـات الرسالات الإلهية شيء ، فينتشر

الفســـاد في الأرض ، ولا يبقى إلّا لكع أبن لكع ، كما قـــال الرسول (ص) آنئذ يحين موعد السـاعة ، وتقـوم القيامة ، والتي من علاماتها وأشراطها خــروج دابّة من الأرض تكلّم النــاس ، الــذين يحشــرون يومها على صــورة مجــاميع ، طيّبين وخبيـثين ، فنشـهد على الخبيـثين بـأنّهم معرضـون عن آيات الله كما يشهدون على أنفسهم ، فيبدأ الحســاب ثم الجزاء.

ويلاحظ أنّ القرآن يـذكّرنا بحكمة الله عند ما يتعـرّض لـــــذكر القيامة ويـــــوم البعث ، فما هي العلاقة بين ذكر الآخرة ، والتذكرة بحكمة الله؟

إنّنا عن طريق الإيمان بحكمة الله لما نـراه من آثارها في كلّ أجزاء الكون ، نؤمن بالآخرة ، فما دام لكلّ شــيء غاية ينتهي إليها ، إذن فلا بد أن يكون خلق الإنسان لهدف مّا ، ولو فكّرنا لوجدنا أنه البعث من بعد الموت.

ثم يحدّثنا ربنا عن بعض آثــار الحكمة في الخلق ، فلو نظرنا الى الجبال لظننّا أنها ساكنة لا تتحرك بينما هي تمر في حركتها كالســحاب ، والــذي يخلق عالما بهــذه الدقة المتناهية ، هل خلقه بعلم أم بجهل؟!

بـــــــالطبع خلقه بعلم ، فهو يعلم أيضا ما نعمله نحن البشر.

ثم تســتعرض الآيــات بعض مشـــاهد يــوم القيامة ، وتشير إلى جزاء المحسـنين الـذين يـؤمنهم الله من فـزع ذلك اليـوم ــ الـذي لا يسـتثني أحـدا غـيرهم ــ أما الكفّـار فإنّهم يلقون على وجوههم في جهنم خالدين.

ويخبرهم الرسول (ص) بأنّ الله أمره بأن يعبــده وهو ربّ مكة الــذي حرّمها وله كــلّ شــيء ، وأن يتلو القــرآن (الذي كفاه هاديا) فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضــلّ فعليها ، وليس الرسـول (ص) وكيلا عنه ، إنّما هو نـذير ، والحمد لله أبدا.

ويختم السورة بإنذارهم بالآيات التي سيريهم ، ويبـدو أنّها آيات العذاب.

بينات من الآيات :

[82] (**وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ**)

أي انتهى أجلهم ، وصار يوم الجزاء.

(**أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ**)

ولأنّهم لم يؤمنوا تمّ القضاء عليهم قضاء مبرما ، وهذا هو بيان المحكمة الإلهية الذي تقرأه الدابة.

ولقد أختلف المفسرون في معنى الدابة على قـولين :

الأوّل : إنّ الدابّة التي تكلّم الناس حيـوان يختلف عن سـائر الـدواب ، كـأن يكـون رأسـها رأس فيل ، وجسـدها جسد وحيد القرن.

الثاني : إنّ الدابة إنسـان ، فكل ما يـدبّ على الأرض يســـمى دابّة في اللغة ، وكلامها مع النـــاس يؤكد هـــذا المعـنى ، إذ لا يتكلّم من الـدوابّ غـير الإنسـان ، وقد أكد الله سبحانه في كتابه هذا المعنى في موضعين ، إذ قال ـ عز من قائل ـ : «**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّـمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**» وقال تعالى : (**إِنَّ شَرَّ الـدَّوَابِّ عِنْـدَ اللــهِ الَّذِينَ كَفَـرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُــونَ**) [1] ونقل بعض المفســرين رواية مـأثورة عن عمـار بن ياسر (رض): أن المـراد بهـذه الدابة هو الامـام علي (ع) الـذي يخرجه الله حيّا من

(1) الأنفال / (22 ـ 55).

بعد استشـهاده ، فيقـرأ على النـاس بيـان انتهـاء الـدنيا ، وبداية عهد الآخرة ، وأنّ وعد الله حق ، إلّا أنّ أكثر الناس لا يؤمنون ، إلّا بعد فوات الأوان.

قال أبو بصير ، قال أبو عبد الله (ع):

«انتهى رسول الله (ص) إلى أمير المؤمـنين (ع) وهو قـــائم في المســـجد ، قد جمع رملا ووضع رأسه عليه ، فحركه برجله ، ثم قـال : قم يا دابّة الأرض ، فقـال رجل من أصـحابه : يا رسـول الله أ يسـمّي بعضـنا بعضا بهـذا الاســم؟! فقـال : لا والله ما هو إلّا له خاصة ، وهو الدابة الذي ذكره الله في كتابه ، فقـال عـزّ وجـلّ : (**وَإِذا وَقَـعَ الْقَـــوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ**) ثم قـال : يا علي إذا كـان آخر الزمـان أخرجك الله في أحسن صـورة ، معك ميسم تسم به أعداءك» [2]

وعلى هـــذا فهـــذه الآية تشـــير إلى الرجعة ، حيث تتظـافر أحـاديث آل الـبيت أنّ هنـاك قيامة صـغرى قبل القيامة الكـبرى ، وفي ذلك اليـوم يبعث بعض المجـرمين وبعض الصالحين ، وعلى هذا فالآية التالية تشـير أيضا الى هذا اليوم.

[83] وإذا قامت القيامة الصـغرى حشر الله من كـلّ أمّة فوجا من مجرميها ، يخرجهم إلى الدنيا قبل غــيرهم ، ليشهدوا على أنفسـهم ، ويشـاهدوا جـرائمهم ، وتكـذيبهم بآيات الله.

(**وَيَــوْمَ نَحْشُــرُ مِنْ كُـلِّ أُمَّةٍ فَوْجـاً مِمَّنْ يُكَـذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ**)

[84] وهناك تجري محاكمتهم :

---

(2) نور الثقلين ج (4) ص (98).

(**حَتَّى إِذا جاؤُ قـالَ أَكَـذَّبْتُمْ بِآيـاتِي وَلَمْ تُحِيطُـوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

من الأخطــاء الــتي يقع فيها البشر ، هو تكـــذيبهم بالحقائق لأنهم لم يحيطوا علما بجوانبها المختلفة ، كالذي لا يؤمن بوجود منطقة في العـالم اسـمها أمريكا اللاتينية ، لأنه لم يعرف تفاصيل الوضع هناك ، هـذا هو حـال الكفّـار الـذين كـذبوا بـالآخرة لعـدم إحـاطتهم بجوانبها المختلفة ، ومعنى الآية : أكذبتم بآياتي دون أن تحيطــوا بها علما ، أم كنتم تعملــون عملا آخر غــير التكــذيب؟! كلا .. إنّكم كنتم مشغولين بالتكـذيب حـتى صـار شـغلكم الشـاغل ، والآية بهذا المعنى تتشـابه وقوله سبحانه : (**بَـلْ كَـذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**) (3)

[85] وجرى قضاء الله سبحانه فيهم بالعـذاب بسـبب ظلمهم ، ولم يحتّجــوا على ذلك لعــدم وجــود حجة بالغة لهم.

(**وَوَقَـــعَ الْقَـــوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُـــوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ**)

إذ لا يجدون عذرا ولا منطقا يخلّصـهم من المسـؤولية ، لأنّ الله محيط بكــلّ شــيء ، وله الحجة البالغة ، حيث تشــهد أيــديهم وجــوارحهم عليهم ، وإذا كــان الإنســان يســتطيع المراوغة والتكــذيب في محــاكم الــدنيا فهو لا يستطيع ذلك في الآخرة.

[86] ومن احتجاجات الله عليهم أنه يقــول لهم : هل كانت الآيات والدلالات على الإيمـان قليلة أو غامضة حـتى كفرتم؟!

(**أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْـلَ لِيَسْـكُنُوا فِيـهِ وَالنَّهـارَ مُبْصِراً**)

---

(3) يونس / (39).

وكل ذلك من آثار حكمة الله التي تدلّنا على الآخـرة ، وتبعث فينا الإيمـــان بها لو كنّا نريد الإيمـــان ، فلو كـــانت الحياة كلّها ليلا أو العكس لاستحالت الحياة.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)

إنّ في اختلاف الليل والنهـــــــــار ، وما يحملانه من تغيّـرات هائلة في الطبيعة ، وتـدبير تصـريفهما بتلك الدقة المتناهية ، إنّ في ذلك علامــات تشــهد على الحقيقة ، إلّا أنّ القلوب القاسية لا تستفيد منها شيئا.

[87] ومع أنّ الآيــات واضــحة وتكفي دلالة للإنســان على الآخــرة والبعث ، إلّا أنّ أكـثر النـاس يـأتي إيمـانهم متأخرا حين تقع القيامة ، وهل ينفع ذلك الإيمان إذا ضيّعنا فرصة العمل في الدنيا؟!

(**وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**)

ويبقى المؤمنــون مطمئنة قلــوبهم ، فلما ذا يخــافون وقد عملــوا بمرضـاة الله ، واســتعدوا لهـذا اليـوم؟! إنّهم على العكس من ذلك ينتظـرون سـاعة الجـزاء ، ودخـول الجنة ، ولقاء الله.

(**إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ**)

خاشعين ، مطأطئين رؤوسهم.

[88] لقد بيّن الله لنا آية من واقع الليل والنهار تــدلّنا على حكمته ، والآن يضـــرب لنا من حركة الأرض آية على أنّه خبير بما يعمله العباد.

وهــذه من آيــات القــرآن الحكيم انه يــبيّن لنا حركة الأرض من قبل أن يكتشفها

البشر ، وضرب مثلا رائعا لها حين شبّهها بحركة السـحاب التي قد لا يحسّ بها البشر أيضا.

(**وَتَـرَى الْجِبـالَ تَحْسَـبُها جامِـدَةً وَهِيَ تَمُـرُّ مَـرَّ السَّحابِ**)

في حركتها ، ولكننا لا نشعر بذلك.

(**صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**)

فهو يؤدّي وظيفته على أكمل وجه ، وبلا أيّ خلل.

(**إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ**)

[89] الإتقــان المتجلّي في الخلق يــدلّنا على حكمة الصانع ، وأنّ للإنسان هدفا يحاسب عليه ، فإمّا ينتهي إلى الجنة أو إلى النار.

(**مَنْ جاءَ بِالْحَسَـنَةِ فَلَـهُ خَيْـرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَـزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ**)

المؤمنون الذين تكون مجمل أعمالهم حسنة يحسّون بالاطمئنان يوم الفزع ، وذلك بسبب طـاعتهم لله ـ الـذي تطمئن القلوب بذكره ـ وأوّل ما يخرج المـؤمن من قـبره يوم البعث يجد على يمينه وشماله ملكين يسـلّمان عليه ، ويفرغـان السـكينة في روعه ، كما أن الله يجعل للمـؤمن نــورا في جبهته من نــور أعماله الخيّــرة ، يضــيء له في المحشر.

[90] وفي المقابل نجد الكــافر والمنــافق يتخبّطــان في الظلمات فلا يبصران الطريق.

(**وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ**)

وهذا المصـير ليس بظلم من الله ــ حاشـاه ــ بل هو نتيجة أعمالهم ، لذلك يأتيهم النداء وهم يتجرعون العـذاب مؤكدا على أنه جزاء عادل لأعمالهم.

(**هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

[91] ثم إنّ ربّنا سـبحانه ذكـرهم بالنعمة الـتي كـانوا يرفلــون فيها ، وأنّه هو الــذي أســبغها عليهم ، وهي نعمة الأمن في الحرم المكي ، فقال :

(**إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها**)

وليس الأصنام التي وضعت فيها.

(**وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ**)

فهو ليس ربّ البلدة وحدها ، بل ربّ كلّ شيء.

(**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**)

إنّ من علامــات الرســول وآياته كما من أهم واجباته أنه يطبّق القيم التي جاء بها على نفسه ، ثم يـأمر النـاس بذلك.

[92] كما أنّ من مسـئوليات الرسـول تبليغ الرسـالة إلى الناس على أكمل وجه ، أمّا ماذا يكون بعدها أ يهتـدي الناس أو يتمادون في الضلالة فذلك ليس من شأنه.

(**وَأَنْ أَتْلُــوَا الْقُــرْآنَ فَمَنِ اهْتَــدى فَإِنَّما يَهْتَــدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ**)

[93] (**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ**)

وحينما نحمــده فإنّما نعكس نظرتنا إلى الحيــاة بأنّها قائمة على أساس الخير ، أمّا الشر فهو من أنفسنا ، ذلك أنّ الحمد تنزيه لله بأنّ خلقه كان حميدا وصالحا.

(**سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها**)

آيات الله تتجلّى في كلّ شيء من حولنا وفي أنفسـنا ، بينما أكثر الناس لا يرونها ، ولكنّ الله سيعرّف الجاحدين آياته الخارقة بحيث يرونها ، ولكن يومئذ تنتهي فرصـتهم ، وتحين ساعة الجزاء.

(**وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**)

سورة القصص

الإطار العام

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم :

جـاءت كلمة (القصـص) اسـما لهـذه السـورة الـتي احتوت على مجموعة متنـاثرة من القصص القصـيرة ذات العبرة المشتركة.

الإطار العام :

ظـاهره حكم وباطنه علم ، هكـذا وصـفت الروايـات كتـاب ربنا العزيز ، وانك إذا نظـرت الى ظـاهر سـورة القصص استفدت الكثـير من الأحكـام ، ولكنها في باطنها بصـائر علمية تهـدينا الى مجموعة متكاملة من الحقـائق ، أبرزها :

ان ظاهر الدنيا غير واقعها ، فهي تغرّ بزبرجها ، وتضرّ بمخبرها ، تبدو لناظرها ان الناس قادرون عليها ، الا أنّ يد الغيب هي الـتي تحـرك حوادثها بالنهاية ، فعلينا ـــ إذن ـــ عـدم الاطمئنـان إليها ، وعلى أصـحاب الـدعوة الّا يخـافوا من أولي القوة والثروة من أهلها.

ولكي يهدينا السياق الى هذه الحقيقة ، يفصل القــول في مسائل شتى تلتقي بالتالي وتلك الحقيقة :

أ ـ يبين السـياق بتفصـيل كيف تمتد يد الغيب لنصـرة أصــحاب الرســالة ، وكيف تجــري الألطــاف الخفيّة لربنا المقتدر الحوادث لتنتهي إلى الغاية المقدرة.

فرعــــون علا في الأرض ، واستضــــعف طائفة من الناس. هـذا ظـاهر الحيـاة الـدنيا ، أمّا حقيقتها فهي إرادة الله على وراثة المستضعفين ، والتمكين لهم في الأرض ، وان يـذيق فرعــون وهامــان وجنودهما ما كـانوا يحـذرون منهم ، وبأيدي المستضعفين أنفسهم.

لننظر كيف تتحقق هذه الإرادة العليا؟

فرعون يقتل أولاد بـني إسـرائيل الـذكور ، ولكن الله يــأمر أمّ موسى بوضع وليــدها في التــابوت ، وقذفه في النيل.

يتلقط زبانية فرعــون التــابوت فيهّم بقتله ، ولكن يد الغيب لا تدعــه. إذ يــوحي الى زوجه ان تمنعه من ذلك ، لينمو عدوه ومادة حزنه في بيته.

أم موسى تكاد تبوح بالسّـر جزعا على وليـدها ، والله يربط على قلبها.

ثم يبحثون له عن مرضعة من غير بني إسـرائيل ، بيد ان الله يحـرّم عليه المراضع حـتى يـرده إلى أمّة كي تقر عينها ولا تحزن.

يذيع الرجل سر القيادة بعد مقتل القبطي ، والقائد ـــ بدوره ـ يشـتبه (على قـول) في المبـادرة بقتل القبطي ، فيطلب من الله ان يستره ، فيفعل.

يتـــآمر فرعـــون وملأه بقتله ، فيبعث الله اليه رجلا مؤمنا ليخـبره بـذلك ، ويهـيئ له الـرب أمر الهجـرة الى مدين ، ويقدّر هناك من يستقبله.

هكـــذا يعلم حملة رســالات رب ان الله معهم ، وان هناك حوادث خفية تجري رغم الطغاة لمصلحة الرساليين فلا يهنوا ولا يحزنوا.

ب ـــ ولا تعـــني الألطـــاف الخفية لربنا ان ينـــام الرســـاليون على حرير الامـــاني ، بل عليهم ان يكونـــوا حذرين ، وان يتعـالوا على الطغـاة بـذكاء أحـدّ ، وانضـباط أشدّ ، وتضحيات سخية. كيف؟

يتلو علينا الـرب في سـورة القصص ــ الـتي نسـلتهم منها دروسا عظيمة في أساليب الحركة الرسـالية ــ قصة زوج فرعـــون ، ومـــؤمن آله فرعـــون ، اللـــذين كانا في الظـــاهر في الســلطة ، ويعملـــون في البـــاطن لصـــالح الرسـالة ، كما يـبيّن كيف كـانت الحركة حـذرة ، حيث ان أخت موسى تـــابعت بحـــذر شـــديد تـــابوت أخيها ، (ولعلها لصغر سنها أو لأنها امرأة بكر ، لم تكن تثير انتباه أحد).

اما موسى (ع) فقد دخل المدينة على حين غفلة من أهلها عملا بالتقاة ، وأذاع غـويّ من بـني إسـرائيل السر ، وورّط الحركة كلها ، مما يحـــذرنا عن مثل ذلك ، ثم يـــبين القرآن كيف كان موسى مترقّبا حين خروجه من المدينة ، وكيف اختار مدين في خطة مرنه ، لأنه كان يدعو الله أبدا ليهديه سواء السبيل.

ونقـــرأ في موضع آخر من الســـورة آية (54) ثنـــاء القـرآن على أهل الصـبر والتقية ، وهم البقية المؤمنة من أهل الكتاب ، الذين اتسموا بصفات الصـبر ، ودرء السـيئة بالحســـنة ، والإنفـــاق ، والإعـــراض عن لغو الجـــاهلين وجدلياتهم ، وهـذه الصـفات هي بـرامج أصـحاب الرسـالة في عصر التقية والعمل السري.

وفي سـياق سـورة القصص نقـرأ عن أخلاقيـات المهـاجر في سـبيل الله ، وفي طليعتها الإحسـان الى النـاس ، والاحتفـاظ بقيم الرسـالة بـالرغم من مشـاكل الهجـرة ، ووفـاؤه بـالحقوق (لقد قضى موسى أبعد الأجلين) وتجذّره في بلاد الهجرة عبر الزواج.

ج ــ وسـورة القصص تركز ــ فيما يبـدو ــ على دور شخصـية القائد وصـفاته ، فبعد بيـان إرادة الله بإنقـاذ المستضعفين نقـرأ مباشـرة قصة ولادة موسى (ع) ثم ان موسى (ع) تتجلى شخصـيته في صـورة قائد مغيّب ، ثم يحضر فجأة في ميدان الصراع لينصر واحـدا من شـيعته ، ثم تلاحقه أجهزة النظام فيها ، وتبقى صفة الإحسان أبـرز صـفاته قبل ابتعاثه رسـولا ، ويؤكد السـياق انها وراء اصطفائه بـالعلم والحكم «**وَكَـذلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ**» ونجد ذلك عند ما يتجـاوز ذاته ، وكل علاقته بالـدنيا عند ما يتلقى الوحي في الجانب الغربي عند الشجرة :

د ـ وفي الجهة المعاكسة تـبرز شخصـيته أمـام الكفر (فرعـون) ورمز المـال الطـاغي (قـارون) ومثـال البيوقراطية الفاسدة (هامان).

ه ـ وتذكر السورة بتواصل الـوحي من موسى ــ عليه السلام ـ الى محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ــ بهـدف التذكرة خصوصا لقوم ما أنذروا من قبل ، والرسـالة هـذه التي تشابه رسالة موسى (ع) حدث غيبي ينـذر بها الـرب القوم الضالين بين يدي عذاب شـديد ، وانهم انما يتبعـون أهواءهم ، لأنهم يطالبون دائما بآيات جديدة فيقولـون مثلا : لمـاذا لا يـأتي النـبي بآية شـبيهة بما ظهـرت على يد موسى ، مع أنهم كفروا بما أنزل على موسى.

وبعد ان يبين السياق صفات المؤمنين الصـادقين من أهل الكتاب ، الذين يسـارعون الى الإيمـان بـالنبي ، يـبين شبهة أخـرى يتشـبث بها الجاحـدون ، إذ يقولـون : نخشى ان نفقد لو آمنا السلام الـذي ننعم به في الحـرم ، ويردها الرب :

أولا : ان الله هو الذي وفّر هذا الأمن لهم.

ثانيا : ان البطر (الفــرح بــالأمن والغــرور بــه) أهلك قرونا ســـالفة ، ولكن الله لم يهلكهم حـــتى بعث إليهم رسولا ، يتلو عليهم آياته.

ثالثا : ان متاع الدنيا في الآخرة قليل ، وليسـوا سـواء من متاعه الله بالدنيا ، وأحضـره للحسـاب والعقـاب يـوم القيامة ، ومن وعده الله وعدا حسنا فهو لاقيه.

وـــ في خــواتيم ســورة القصص يحــذرنا الــرب من الشرك به ـ أندادا ـ أولي سلطة كانوا أو ذوي ثروة ، ففي يــوم الحســاب يحضــرهم جميعا أئمة الغي ومن اتبعــوهم (وأشركوا بالله بطاعتهم) فيتــبرءون من بعضــهم ، وتعمي عليهم الأنباء ، ولا يتساءلون ، ويذكرنا الربّ بأن من يختار لنا القيادة هو الرب ، تعالى الرب عما يشــركون. وبعد ان يـــذكرنا ربنا بهيمنته على الخليقة ، وأنه لو أعـــدم ضـــياء النهار ، أو اسكن الليل فما ذا كنا نعمل؟!

بعد ذلك يعـود السـياق الى موضـوع الشـرك ، ولكن هذه المرة يعالج الشرك بأصحاب الثروة. ابتـداء من قصة قارون الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وانتهى به المطاف الى الهلاك ، فخسف الله به وبداره الأرض ، وما قدر أحد على نصره.

وفي الدرسـين الأخـيرين يحـدد الله الموقف السـليم من السـلطة والـثروة ، وهو موقف التسـامي عليها ، ذلك لأن الـدّار الآخـرة يجعلها الله للـذين لا يريـدون علـوّا في الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين.

ويرغبنا الـــذكر في فعل الخـــيرات ، لأن من جـــاء بالحســنة فله خـير منها ، بينما لا يجـزي الــذين يعملــون السيئات إلّا ما كانوا يعملون.

ويبشر رسوله بالعودة الى معاده ، ويـبيّن ان الكتـاب رحمة من الـــرب ، وعليه أن يجاهد به الكفـــار ، ويواجه ضغوطهم.

سورة القصص

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(**طسم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا**
عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (
3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً
يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي
نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ
عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً
وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ
فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (
6) وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى

---

4 [شيعا] : أي طوائف جمع شيعة وهي الطائفة التي تتبع مسلكا خاصا.

أَنْ أَرْضِـعِيهِ فَـإِذا خِفْتِ عَلَيْـهِ فَأَلْقِيـهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخـافِي وَلا تَحْـزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْـكِ وَجـاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (8) وَقـالَتِ امْـرَأَتُ فِرْعَـوْنَ قُـرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَـكَ لا تَقْتُلُـوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِـذَهُ وَلَـداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (9)

يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ

هدى من الآيات :

تـــدور آيــات الســـورة كما يبـــدو من فاتحتها حـــول الســـلطات الفاســـدة ، وكيفية القضـــاء عليها ، كما تبحث موضوع الحركات الرسالية الـتي عن طريقها يبـدل الله ــ ســبحانه وتعــالى ــ حاكما ظالما بــآخر عــادل ، وســلطة فاســدة بــأخرى صــالحة ، ونســتطيع أن نســتوحي هــذه الحقيقة وبصورة واضحة من الصراع الرسالي الذي قــاده موسى (ع) مع بـــني إســـرائيل ضد فرعـــون بجاهليته ، والمستكبرين من ملئه.

وقبل كل شـــيء يـــبيّن القـــرآن لنا أن للصـــراع أداة إيديولوجية ، وعوامل ثقافية ، وان أبـــرز أدوات الصـــراع الرســـــالي الجـــــاهلي ، وأوسع قنواته ، وأفضل عوامله المؤثرة في انتصار جبهة الحق هو القـرآن الحكيم ، لـذلك تبدأ هذه السـورة بإشـارة مبينة الى القـرآن ذاته ، وبعدئذ يبين القرآن أسـباب الصـراع ، ولمـاذا ينهض الرسـاليون ، ويفجرون الثورات ضد السلطات الجاهلية عبر التاريخ؟

ويجيب القـرآن بـأن المسـؤول الاول عن الصـراع هو امام الجاهلية ، والنظام الذي

يجسـده ، فلأنّ فرعـون خـرج عن سـنة الله ، وعلا في الأرض ، وعـاث فيها الفسـاد بشـتى ألوانه وصـوره ، واستضعف طائفة من المجتمع فسلب حقـوقهم ، لـذلك كلّه فإنه هو المسـؤول عن الصـراع وآثـاره ، وليست الحركة الرسـالية. إذ لا يمكن للنـاس ان يسـكتوا عن سلطة تضيع في ظلها حقـوقهم وحريـاتهم ، والـذي يـزرع بـذور الثـورة بظلمه وفسـاده لا يحق له بعد ذلك ان يتهم الرسـاليين بالإرهـاب والشـغب ، وهكـذا تبـدأ السـورة بالإشارة إلى سبب الصراع وهو فرعون.

ثم يمضي السياق يبيّن سنتين في هذه الحيـاة : سـنة يرعاها قضاء الله ، وسنة يجريها قدره سبحانه ، فقدر الله في الحيـاة ان السـلطة الـتي تتمسك بأسـباب القـوة ، والاستمرار المادية وهي الإرهاب والإغراء والتضـليل فانها تبقى وتستمر ، ولكن فوق هذه السنة سنة وقـانون أعلى وهو قضـاء الله ، فالعدالة الإلهية تـأبى ان تسـتمر سـلطة جـائرة تعتمد على هـذا الثـالوث ، فيـأبى الله ذلك وهو العزيز الرحيم ، الـذي أجـرى الأشـياء بـالحق ، وخلقه كل شـيء لحكمة وهـدف. يا تـرى هل يـدع النـاس وهم عياله يسحقون تحت أقدام الجبابرة؟! كلا ..

ان هناك ارادة عليا يعبر عنها القرآن الحكيم في هـذه السـورة بصـورة واضـحة حين يقـول : «**وَنُرِيـدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْـــعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْـوارِثِينَ**» ولكن كيف تتم هـذه الارادة؟ فهل إرادة انتصـــار الحق على الباطل تتحقق بحركة كونية تنطلق من النجـوم؟ أو بإشـاعة مـرض قاتل في صـفوف المستكبرين؟

ربما يتحقق ذلك عن هـذا الطريق ، ولكن الأكـثر أن إرادة انتصـار الحق على الباطل الـتي هي ارادة الله لا تتحقق من خلال العوامل الغيبية فقط ، وإنما على أيـدي المؤمنين أنفسهم ، وقبلهم قيادتهم وأمـامهم ، لـذلك نجد السـياق القـرآني فـور ما يحـدثنا عن إرادة الله العليا في الإنتصار ، يبين لنا أن هذه الإرادة لا تتحقق إلّا بتربية قائد

رسالي فيقول : «**وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى**».

حينما أراد ربّنا إنقاذ بني إسـرائيل من هيمنة فرعـون خلق قائدا رساليّا ، ورعاه منذ الطفولة ، وتدرجت مراحل النصر بعد أن أمر الله أم موسى بـــأن اقذفيه في اليم ، ليحمله الماء الى ساحل قصر فرعـون ، فجعل الله تربيته هناك رغم إصرار فرعون على ذبح كلّ طفل ذكر ، وهكـذا تجري سنن الله إلى أن يقضي الله على فرعون ونظامه.

ان موسى (ع) تجـلّ كـريم لإرادة الله ، وكـان مركز تحقق القضـــاء الإلهي في ذلك المجتمع ، وإرادته لتحقيق العدالة الإلهية الغيبية ، وتؤكد هذه السورة كما الكثـير من سور القرآن على ان هذا القضاء يتحقق بأمرين : أحـدهما عمل النـــاس ، والآخر إرادة الله ، فمن جهة نجد موسى يقبض زمـام المبـادرة ليتحـول إلى إمـام للثـائرين ضد فرعــون وجلاوزته ، ويخــوض الصــراع ببــني إســرائيل والمؤمـــنين من حوله ، ومن جهة أخـــرى تحوطه العناية الإلهية وترعاه ، ويمكن لنا القـول بـأن سـنة القـدر يجريها الله سبحانه وتعالى ، بينما يرعى سنة القضـاء ، ولكنها قد تجري على أيدي الناس أنفسهم.

وهكذا جرى قضـاء الله ، بنصر موسى (ع) ومن اتبعه بإحسان.

بينات من الآيات :

(**وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ**) :

[1 ـ 2] (**طسم* تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ**)

ان هــذه المقطعــات اشــارة الى القــرآن ، بل هي جوهره ، وبتعبير أفضل هي المادة الأولية التي يتألف منها القــــــرآن الحكيم ، وتكتب بها كلماته ، وهي تحمل في طياتها النور والهدى ، وهو رمـوز وإشـارات يعرفها أوليـاء الله ، ولعلها مفاتيح علوم

السورة.

[3] وهـذا الكتـاب سـوف يكـون ، أداة لنقل التجربة العظمى لكم أيها البشر ، ولك أنت يا من تخـوض صـراع الحق ضد الباطل.

(**نَتْلُـوا عَلَيْـكَ مِنْ نَبَـإِ مُوسى وَفِرْعَـوْنَ بِـالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)

فالحيـــاة قائمة على الحق ، ويجـــري الحق على كل اجزائها ، ولكن من الذي يستفيد من هذه القصص؟

انهم المؤمنـون ، فلو لم تكن اسـتجابة للحق من قبل الناس ، فإنهم لا يستفيدون من القرآن الكريم ، حـتى ولو قرءوه الف مرة ، أو حفظوا آياته حروفا وكلمات.

اذن حتى تستفيد من القـرآن يجب ان تـؤمن وتسـلم له ، وما دام هـذه القصص حقّا فلا يجد لها انعكاسا إلّا في قلوب المؤمنين الذين يملكون قابلية فهم الحق.

[4] ثم يبدأ القرآن بالحديث عن فرعون رمز الفسـاد والباطل :

(**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ**)

لقد استعلى فرعـون وسـيطر على النـاس ، ولكن لم يسـتفد من السـلطة في خـير شـعبه ولا نفسه ، وفي آية قرآنية تأتي في آخر هذه السورة يقول ربنا : «**تِلْكَ الـدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيـدُونَ عُلُـوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**».

ان الـذي يحب الرئاسة والسـيطرة ، ويتحـول الحكم عنده من وسيلة إلى هدف ، فإنّه ينشر الفسـاد ، وكم من الجـــرائم وقعت في التـــاريخ ، ولا زالت على مـــذبح حب الرئاسة.

ومن طرائف التـاريخ : ان الامـام موسى الكـاظم ــ عليه السّـلام ــ دخل يوما على الرشـيد ، فأجلّه واحترمه بصــورة أدهشت الجالســين حوله ، ولما أراد الإمــام أن يقـــوم من مجلسه ، قـــام الرشـــيد وأقبل على الأمين والمـأمون قـال : يا محمد ويا إبـراهيم! سـيروا بين يـدي عمكم ، وسيدكم ، وخذوا بركابه وسووا عليه ثيابه.

فاستغرب المأمون من أبيه هذا الصـنيع ، فسـأله عن سبب هذا الاحترام والتقـدير ، فقـال الرشـيد : يا بـني انه صاحب الحق ، فقال له المأمون : إذا كنت تعلم ذلك فـرد عليه حقه ، فنظر اليه والــده وقـال : الملك عقيم ، والله لو نازعتني الذي انا فيه لأخذت الذي فيه عيناك.

وهـذه صـورة من التـاريخ عن الإنسـان حينما يضـحى الحكم عنده هدفا ، فهو يتشـبث به حـتى لو خـالف العقل والشرع في وسائله للوصول اليه ، وفرق كبـير بين الـذي يريد الحق والآخر الذي يريد العلو والتسلط.

وفرعــون كـان يريد العلو ، لـذلك أفسد في الأرض ، وأعظم إفسـاده التميـيز الطـائفي ، حيث جعل فريقا من الناس متسلطا على الفريق الاخر ، ويبدو أن هـذه طريقة كل نظـام فاسد وهو تقسـيم النـاس إلى فـريقين ، فريق يحكم وفريق يستضـعف ، وقد يكـون هـذا التقسـيم على أسـاس طـائفي ، أو عنصـري ، أو حـزبي أو غيرها ، حيث تتعدد الصور ولا يختلف الجـوهر ، وهو صـنع أداة للسـلطة الفاسدة يتحكم بها الطاغوت على الناس.

(**وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ**)

إذا كـانت الأمة متحـدة ، فـان الطـاغوت لا يسـتطيع التسلطة عليها ، لذلك سعى فرعون لتفريق بني إسرائيل أحزابا ، عملا بالقاعدة الجهنمية (فرق تسد) التي هي

أداة السـلاطين في جـرائمهم ، إلّا أنّ فرعـون لم يكتف بالتفرقة وحـدها ، وانما أضـاف لها سياسة أخـرى هي الإرهاب.

(**يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ**)

لو كان فرعون يـذبح الأطفـال الرضع الـذين عـادة ما تكـون عواطف البشر مركـزة فيهم. في هـذا الـبرعم الصغير ، وفي هذه البراءة النقية.

لكن الذي يريد السلطة ، تتبلد مشـاعره ويمـوت فيه الضمير.

(**وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ**)

اي يبقيهن أحياء للخدمة في البيوت.

(**إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**)

هذا هو الفساد والذي يلخصه القرآن في ثلاثة أمور :

1 ـ التفرقة ، وبالتـالي تحطيم الكيـان الاجتمـاعي الموحد.

2 ـ القضاء على النفوس البريئة.

3 ـ الاسـتثمار الطاقـات البشـرية بطريقة غـير مشروعة.

وهذه سنة القدر ، أن يأتي فرعـون ، ويسـتخدم هـذه الوسائل المنكرة في تدعيم نظامه وهي : إفساد المجتمع بعدم وحدته ، والإخلال بالأمن ، وتحطيم أسس الإقتصاد.

[5] (**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ**

(**أَئِمَّةً**)

ان يشافى بسبب الطـبيب مـريض أمر معـروف ، أما أن يدعي بأنه سوف يجعل هذا المريض الـذي يرتجف من مرضه أقـــوى رجل في العـــالم ، فـــذلك أمر مســـتبعد ، والقـــرآن يقـــول إن إرادة الله لا ترفع عن المستضـــعفين استضــــعافهم وحسب ، بل تجعلهم أئمة وقـــــادة للبشر ، وهذا هو الهدف الأسمى لحركة التاريخ.

انهم سوف يغنمون كلّ ما لدى المســتكبرين من نعم ، ورياش ، وأمتعة.

(**وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ**)

[6] وحينما يصل المستضـعفون الى السـلطة فـإنّهم يتمكنـــون في الأرض ، ويثبتـــون ســـلطتهم ، وذلك حينما يقتلعون جذور الفساد ، وينبـذون المسـتكبرين في العـراء كما فعل الله بفرعون وملئه.

ومن حقائق التـاريخ : أن الأقبـاط الـذين تحكمّـوا في بني إسرائيل ، ظلّوا محكـومين إلى يومنا هـذا ، ولم ترجع السلطة مرة أخرى إليهم أبدا.

(**وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَـوْنَ وَهامـانَ وَجُنُودَهُما**)

وسائر المستكبرين على مر العصور.

(**مِنْهُمْ**)

اي من المستضعفين.

(**ما كانُوا يَحْذَرُونَ**)

حينما يصل المستضـعفون إلى السـلطة فسـيذيقون المستكبرين العذاب الشديد ، وسيرون منهم كل ما كـانوا يحذرونه.

إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

[7] ولكن كيف يتم ذلك؟

يتم عند ما يوجد إمـــــام وقائد رســــالي ، يتحمل المســؤولية ، ويفجر الثــورة في الجمــاهير ، لننظر كيف أنبت الله شجرة هذا القائد الكريم في ارض صالحة.

(**وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَـإِذا خِفْتِ عَلَيْـهِ فَأَلْقِيـهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخـافِي وَلا تَحْـزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**)

لقد سبق الذكر بأن قضـاء الله بغلبة المستضـعفين ، واندحار المستكبرين يتحقق غيبيّا وبشريّا ، أما غيبيا : فـان الله لم يرسل رجلا من وزراء فرعـون ليقـوم بـانقلاب عســكري ، مع انه ممكن عند الله ، بل أرسل طفلا من بني إسرائيل ، في ظروف كان فرعون يذبح الأبنـاء فيهـا. وكيف أرسله؟

أوحى الله إلى أمّه أن تلقيه في اليّم ، ليـــتربى في قصر فرعـون ، وانتهى هـذا الأمر بانتصـار بـني إسـرائيل على فرعـون بسـببه ، وأساسا كلمة (موسـى) في اللغة العبرية تعـني ابن المـاء والشـجر (فمـو) : تعـني المـاء (وشي) : تعني الشجر.

ان هـذا الولد الـذي لا يملك شـيئا هو الـذي يحطم سلطة الطاغوت.

وأما بشـــريا : فالله لم يرسل الملائكة ، ولا الريـــاح لتقضي على فرعـون ، بل أرسل بشـرا قائـدا هو موسى (ع).

[8] وبالفعل استجابت أمّ موسى الى وحي الله ، كما وألقت بابنها في اليم الـــــذي حمله الى ســـــواحل قصر فرعون.

(**فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ**)

في المستقبل :

(**عَدُوًّا**)

ينهض ضدهم ويقود المعارضة ، وإنما يكون عدوّا لهم لأنه يحمل قيم الحق الـــــتي تتنـــــاقض ونهجهم الباطل والمنحرف.

(**وَحَزَناً**)

يسـبب لهم القلق الشـديد ، وسـوف يأخـذهم الأسف على قـرارهم بعـدم ذبحه ، وهكـذا نجد الأمـور تسـير كما يشـــاء الله ـــ بإرادته ـــ لا حسب ما يريد الفراعنة ، فهم التقطوا موسى ليكون لهم ولـدا ، بينما أراد الله أن يجعله عدوّا ، وأرادوه ان يدخل السرور على فرعـون الـذي ربما كـــــان يقلقه عقمه ، فجعله الله حزنا ومصـــــدرا للقلق بالنسبة إليهم.

ونجد لهـــذه الإرادة صـــورا هنا وهنـــاك حينما نقلب صفحات التاريخ على الحقائق.

(**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ**)

الظلم خطأ لا تقتصر آثاره على المحرومين وحسب ، بل تطال الظالم نفسه.

[9] فلقد أحضـروا موسى إلى فرعـون ، فلما عـرف انه من بني إسرائيل ـ إذ

كانت ملامحهم واضحة ـ قال : خذوه واقتلوه.

(**وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ**)

الحق يتجسد مرة في امرأة هي أم موسى (ع) ومرة أخرى في امرأة فرعون (آسية بنت مزاحم) حيث أصـرّت على فرعون الّا يقتله ، واستجاب لها فعلا :

(**لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا**)

عند ما يكبر.

(**أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً**)

فقد كان فرعون عقيما ، ليس له ولد.

(**وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**)

ولا يحســون بقــدر الله وقضــائه في مســتقبل هــذا الطفل ، الذي يريدونه ولدا لهم.

هم يخططــون لهــدف ، بينما يجعله الله أماما يزيل سلطانهم على يديه ، وأيدي المؤمنين تحت قيادته.

وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِـهِ لَـوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُــونَ مِنَ الْمُــؤْمِنِينَ (10) وَقـالَتْ لِأُخْتِـهِ قُصِّـيهِ فَبَصُـرَتْ بِـهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْــعُرُونَ (11) وَحَرَّمْنا عَلَيْــهِ الْمَراضِــعَ مِنْ قَبْــلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْـلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَـهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ (12) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْـزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْــدَ اللَّــهِ حَـقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (13) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُـدَّهُ وَاسْـتَوى آتَيْنـاهُ حُكْمـاً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَــةَ عَلى حِينِ غَفْلَــــةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَــــدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هـذا مِنْ شِـيعَتِهِ وَهـذا مِنْ عَـدُوِّهِ فَاسْـتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى

---

15 [وكزه] : الوكز الدفع وقيل اللكم بجمع الكف.

فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هـذا مِنْ عَمَـلِ الشَّـيْطانِ إِنَّهُ عَـدُوٌّ
مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ
لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ (16) قـالَ رَبِّ
بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (17)

فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ

هدى من الآيات :

يذكرنا هذا الدرس بجانب مهم من سـيرة الأنبيـاء (ع) حيث الصــراع المســتمر بين الرســالة الإلهية واتباعها من طـــرف ، والجاهلية المادية ومؤيـــديها من طـــرف آخر ، والـذي تحسـمه الإرادة الالهية لصـالح جبهة الحق ، الا أن ذلك لا يعني ان الغيب يحرك مراحل الصراع مباشرة ، بل انه قد يمضي سـننه عـبر إرادة الإنسـان ونشـاطه ، ومن هـذا المنطلق يتعـرض السـياق في هـذه الآيـات لـدور الإنسان ، المرأة والرجل.

والدور الهام الـذي قـامت به أم موسى (ع) يؤكد دور المرأة في الصـراع الرسـالي الجـاهلي ، كـأم ، وكزوجة ، وكشحنة عاطفية ، وهذه قضية أساسية وهامة.

فمن جهة نقرأ عما قـامت به أم موسى في تأسـيس هذا الصراع وانطلاقه ، وما قامت به أخته من تتبع مصيره ، ومن جهة أخــرى تحــدثنا الآيــات عما قــامت به زوجة فرعـون من عمل حـافظت به على حيـاة هـذا القائـد. إذ أشارت على زوجها بالإبقاء

على موسى (ع) حيّا ، وبـــــالرغم من اختلاف الأدوار ، إلّا أنها تلتقي في نقطة واحـــدة هي مســـاهمة المـــرأة في الصراع.

وهـذه المسـاهمة لا تقتصر على الأدوار الجانبية ، بل نجدها في صميم المسؤوليات الخطيرة ، فـأم موسى (ع) وان كانت مؤمنة وملتزمة بالأمر الإلهي إلا أنها كـأم كـانت لها عواطف الأمومة ، فكيف تقبل ان تلقي بولدها ـ الـذي عملت المستحيل حتى لا تصل اليه يد السلطة ـــ في اليم لتبتلعه أمواجه الغاضبة ، خاصة وان المـرأة مهيـأة نفسـيّا وجسـديّا للاهتمـام برضـيعها بعد الـولادة ، فكل اهتماماتها الفطرية وجوانب تفكيرها مركزة نحو ذلك الوليد!

وفي الــبين يــذكرنا الــذكر بأحد العوامل الأساســية لانتصـــار الحركـــات الرســـالية في الصـــراع ، وهو عامل الكتمان والسـرية في العمل الرسـالي والـذي يبـدو بعض الأحيـــــان الأهم في العمل ، فلو أن أمّ موسى أبـــــدت عواطفها وبـــاحت بســـرها ، لتســـببت في القضـــاء على الحضارة التي أسسها وليدها المبارك ، ولهـذا قـال الامـام الصادق (ع):

«**كتمان سرنا جهاد في سبيل الله**» [1]

ثم تـذكر الآيـات بـدور عامل آخر في الانتصـار ، وهو عامل البحث والتحقيق ، وحسب التعبــــير الحـــــديث التجسس ، فالحركة الاسـلامية وان كـانت حركة إلهية إلّا أن عليها التسلح بكل العوامل المشروعة التي تقرب إليها النصر ، كعامل التجسس لمعرفة خطط النظــــام الفاسد والواقع المحيط ، ثم تســـتفيد من ذلك في تحركها ، ومن هـذا المنطلق أمـرت أم موسى (ع) أخته ان تقص أثـره ، وتتعـــرف على مصـــيره ، فمشت خلفه حـــتى رسى على مقربة من قصر فرعون ، فالتقطه آل فرعون ، واجتمعـوا حوله

---

(1) بحار الأنوار / ج (75) / ص (70).

يتشاورون ، وهنا تدخل الغيب لإنقاذ موسى (ع) ولكن بعد أن هيأت أمه الظروف المناسبة ، وبذلت قصارى جهـدها. إذ استجابت لنداء الـوحي ، وصـبرت على فـراق وليـدها ، كما أرسلت أخته خلفه ، فأعاده الله إليها ، ولكن كيف؟

لما حـــرم الله على موسى المراضع ، وألقى محبته في قلـبي فرعـون وزوجه ، وجعلهم يسـتجيبون لاقـتراح أخته بان تدلهم على مرضعة يقبلها هي أمّه.

وفعلا تحـركت أخته لتخـبر أمها بـالأمر ، وجـاءت أم موسى (ع) صـابرة متجلـدة ، وملتزمة بكامل السـرية ، فارتضع موسى منها ، وعـاد إليها سـالما كما وعد الله ، والـدرس الـذي نسـتفيده من هـذا الحـدث هو : ان الرسـاليين لو صـبروا والـتزموا بـالمنهج السـليم ، الـذي يرسـمه لهم الله عـبر آياته ووحيه ، وهـدى عقـولهم فـان الله سينصرهم كما وعد ، ومن أصدق من الله قيلا؟!

وفي آخر الـدرس نجد صـورة من الصـراع بين المستضعفين والمستكبرين.

بينات من الآيات :

(**فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ**) :

[10] (**وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً**)

أفرغته من كل اهتمـام وانصب تفكيرها على مصـير ولدها الصغير ، وهكذا يكون الإنسان حينما يواجه مشـكلة أو أمر هام في حياته ، ويقـال : فارغا اي مهموما وحزينا ، وربما فسرت الآية «**فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ**» اي إذا حزنت وغممت ، وهـذا التفسـير يتناسب وموضـوع سـورة الإنشراح.

(**إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها**)

أي أعطيناها الصبر والمقدرة على كتمان السر.

(**لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**)

والقرآن يبيّن في هذا المقطع من الآية أهمية الكتمان في انتصار الثورات ، وكيف أنه شرط الإيمان. إذ لو أبدت أمّ موسى مشـــاعرها تجـــاه ولـــدها اذن لما كـــانت من المؤمنين.

وفي الحديث عن الرسول (ص):

«**استعينوا على أموركم بالصبر والكتمان**»

[11] وبعد أن القت أم موسى (ع) بوليـدها لم تـترك الأمر هكذا تنتظر وليدها حتى يعـود إليها ، بل أمـرت أخته أن تلحق بالتابوت ، ولكن بسرية تامة.

(**وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّـيهِ فَبَصُـرَتْ بِـهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**)

حتى لا تكون العلاقات بينهما وبينه واضـحة ، فلا يقبل منها اقتراحها بأن تدلهم على من يرضـعه مثلا ، لو عرفـوا أنها أخته ، وربما يقتلونه.

[12] وهكـــذا عملت أم موسى كل ما في وســـعها ، فكـــان ذلك تهيئة لتـــدخل الإرادة الإلهية في الأمر ، أما لو كانت تنتظر كل شـيء يـأتي من عند الله ، دون أن تقـوم هي بـــدور معين ، فلربما لم يرجع لها وليـــدها ، لأن ســـنة الله في الحياة قائمة ـ في التغيير ـ على السـعي من جهة الإنســـان نفسه اولا «**إِنَّ اللـــهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَـــوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**». [2]

---

(2) الرعد / (11).

(**وَحَرَّمْنا عَلَيْـهِ الْمَراضِـعَ مِنْ قَبْـلُ فَقـالَتْ هَـلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ**)

وكلمة «**يَكْفُلُونَـهُ لَكُمْ**» تـدل على أن أخت موسى حـاولت جهـدها أن تخفي علاقتها به أمـام الآخـرين ، فلم تقل أنه أخوها ، بل ملّكته فرعـون بكلمة «لكم» كما نسـتفيد من الآية الشـريفة أهمية المتابعة للأعمـال والقرارات الرسالية حتى لا تموت في الأثناء ، بل تظل يد الرساليين ترعاها. لحظة بلحظة إلى أن تصل الى نهايتها.

ان موسى الـذي حـرم الله عليه المراضع ربما كـان يمـوت جوعا وعطشا لو لم تتـدارك أخته الأمر بالمتابعة ، وعلى أحسن الأحوال يصبح مصيره مجهولا عندهم.

[13] في آية سابقة قال تعالى :

«**وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِـعِيهِ فَـإِذا خِفْتِ عَلَيْـهِ فَأَلْقِيـهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخـافِي وَلا تَحْـزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**»

وفي هذه الآية يقول :

(**فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ**)

تطمئن ، ويذهب عنها الخوف والوجل.

(**وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْـدَ اللـهِ حَـقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَـرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

الآية الاولى تـبيّن أن هنـاك وعـدا من قبل الله ، أما الثانية فهي تشير الى تحقق هذا الوعد وهنا نستفيد أمرين :

1 ـ صـحيح ان الله يعد المؤمـنين بالنصر ولكنه يطالبهم بالعمل لا ان يكون

وعده لهم مدعاة للكسل ، والتوقف عن العطـاء والسـعي ، بل منطلقا للسعي الحثيث والجهاد.

ان أم موسى أعطت من جهـدها المـادي والمعنـوي حتى تكون أهلا لوعد الله.

2 ـ حينما يعد الله بشـــيء ما يجب ان نطمئن الى وعده ، فهو تعـالى ان يخلف وعـده ، ولمـاذا يخلف وعـده وهو القـوي العزيز ، الحكيم القـاهر؟! فلا يعجـزه شـيء ، وهو الصادق ، ومن أصدق من الله قيلا؟!

لو كـــان النـــاس يعلمـــون بـــان وعد الله حق ، ويتحسسون بأمل الانتصار لما تسلط عليهم الطغاة أمثال فرعــون ، لكن مشـكلتنا هو ضـعف اعتقادنا بالله ، فـاذا بأحدنا يقول : وماذا أسـتطيع ان أعمل ، وأغيّر مقابل هـذا الإرهاب ، والنظام القائم ، وأنا شـخص واحـد؟ بلى .. الله يؤيدك ويسدد خطاك.

ان الثقة بنصر الله ، والتوكل عليه هو وقـود الحركة ، والذي يفقده يفقد كل شيء.

(**وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**) :

[14] لقد عاد موسى كما وعد الله الى أمه ، وترعرع في حجرها.

(**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ**)

صار بالغا من الناحية الشرعية بتكامله العضوي.

(**وَاسْتَوى**)

تكامل عقله.

(**آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً**)
حيث صار نبيا ، وليس رسولا.
(**وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**)
ليس هناك قرابة بين الله وموسى حين أعطاه النبـوة ، وانما استحقها موسى بعمله وإحسانه وكل إنسان يعمل من أجل الآخرين يجازيه الله خيرا ، وهـذه الحقيقة نجـدها في التــاريخ وبالــذات في تــاريخ الأنبيــاء ، بل وفي حياتنا اليوميّة أيضا ، كما أن أفضل ما يتعبد به الإنســــان ربّه ، ويستدر به رحمته هو الإحسان للناس.
وهــذه الآية نجــدها في أكــثر من موضع من القــرآن الحكيم ، ففي ســورة يوسف يقــول تعــالى : (**وَلَمَّا بَلَــغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَـذلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ**)
ونحن يمكننا أن نجرب هذه الحقيقة : لنحسن الى النــاس ، ثم لننظر كيف يعاملنا الله. إن الصـدقة تزيد في العمر ، وتدفع البلاء ، وتزيد في المال حتى لو كـانت الصـدقة هي إماطة الأذى عن الطريق ، أو مســـاعدة الأعمى والطفل على عبور الشارع ، إذ ليس شرطا ان تكون الصدقة مالا.
انّ اي خدمة يقــوم بها الإنســان للآخــرين يجد جزاءها ســـريعا فكيف إذا كـــرّس حياته من أجل خـــير النـــاس وصلاحهم. ان الأنبياء لا يفكرون في مصـالحهم الشخصـية في الــدنيا ، وانما يفكـــرون في خــير النــاس ومصــلحة الرســالة الــتي يحملونها ، ونقــرأ في ســيرة نبينا الأكــرم محمد (ص): أنه عند ما حضـــرته الوفـــاة ، وجـــاءه ملك الموت ليقبض روحه سأل ملك المـوت : وهل تلقى أمـتي أذى في مثل هذا الأمر فأجابه : بلى ولكن الله أمــرني ان اقبض روحك بأسـهل ما يكـون فيه قبض الــروح ، قـال له رسول الله (ص):

«شدد عليّ وخفف على أمتي»

وهذه سنة الأنبياء ، كما يجب ان يكون هذا ديــدن من يسير على خطّهم في الحياة.

[15] ومن علامات إحسان موسى (ع) ان كان يبحث عن الخير ، ولا يبـالي بعـدها بما يمكن أن يجـرّه ذلك عليه من أذى إذا كـــــــان يرضي الله ، لقد كـــــــان يبحث عن المحرومين حتى ينتصر لهم.

(**وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها**)

والذي يحمل قضية رسالية حينما يـدخل بلـدا يسـيطر عليها الطـاغوت بالخصـوص. إذا كـان يريد القيـام بعمل كعملية عسـكرية ، أو توزيع منشـور ، أو عملية اسـتطلاع وتجسس يجب ان لا يكون سـاذجا بل حـذرا نبها ، ويختـار الوقت الأنسب الذي يعينه في إخفاء نفسه ، وكتمان أمره ، وربما كان دخول موسى للمدينة ليلا أو في أول الصبح ، وربما كـــان في مناســـبة انشـــغل بها أزلام النظـــام عن الوضع.

(**فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ**)

بســـبب ما قـــامت به الحركة الرســـالية من أعمـــال سياســـية وثقافية ، وربما ميدانية في عمليّة الصـــراع بينها وبين فرعـون حينـذاك ، اسـتطاعت أن توجد في المجتمع تيّار مناهضا للسلطة ، بل وأكثر من ذلك أن ترفع مستوى الصـــــــــراع بين تيّارها والتيـــــــــار الآخر الى حد المواجهة المباشــــــرة ، ومن أهم مســـــئوليات وواجبـــــات الحركة الرسـالية حين تصـعد بمسـتوى جماهيرها في الصـراع ان تسيطر على الساحة حتى لا يكون للصراع مـردود سـلبي على خططها وتحركها.

ويبـــدو من الآية الكريمة : ان موسى (ع) منذ البداية كـوّن الحركة الرسـالية ، فكـان له حـزب وشـيعة ، حيث اســتطاع ان يجمع شــمل بــني إســرائيل تحت لوائه ، ويتصدى للنظام الطاغوتي.

وربما يكــون معــنى يقتتلان يتضــاربان ، ولكن ظــاهر الأمر يدلّ على أن أحدهما يريد قتل الآخر.

(**فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ**)

وأمام هذه الإسـتغاثة وجد موسى (ع) نفسه مضـطرّا للدفاع عن الذي من شيعته. لهذا بادر لدفع ضرر القبطي.

(**فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هـذا مِنْ عَمَـلِ الشَّيْطانِ**)

الفرد الرسالي يريد الخـير لحركته وشـيعته ، ولكن لا يعني ذلك أنه يريد الانتقام من الناس ، وقد يصل الأمر أن يقوم الرساليون بحـرب فدائية ولكن عن اضـطرار وليس بهدف التخـريب أو الإرهـاب ذاته ، بل لإزالة العوائق الـتي تعترض طريقهم.

لهذا قـال موسى (ع) حينما وقع القبطي ميتا : «**هـذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ**».

يقصد بــذلك العمل الــذي دعا هــذين (الاســرائيلي والقبطي) للاقتتال ، وإذ ضربته فانما للدفاع عن المظلوم والمستضــعف ، وقد قــال بعض المفســرين : ان ســبب الاقتتــال هو محاولة القبطي تســخير الإســرائيلي ليحتمل شيء بلا أجر.

وعند ما قتل موسى القبطي ولم يكن يريد قتله ، بل ردعه قال :

(**إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ**)

[16] لقد انتصر موسى على عـــــدوه الا أنّ ذلك لم يدعه للاغترار بهذا النصر ، بل أراد أن يقتل الغـرور الـذي عادة ما يصيب المنتصرين ، وذلك عبر الاستغفار ، واتهـام النفس بالتقصــير ، وربما لــذلك أمر الله رســوله محمد (ص) بالاستغفار بعد النصر. إذ قال : «**إِذا جاءَ نَصْرُ اللـهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجاً* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً**».

وهنا نجد نــــبي الله موسى (ع) يســــتغفر الله بعد انتصاره على عدو الله وعدوه.

(**قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**)

وجــاء في التفاســير : ان موسى (ع) قد اخطأ فعلا بدخوله المدينة ، حيث كان لا يزال في طور الاختفاء ، لأن فرعـون كـان قد علم بأنه يخالفه ، وقد اجتمع اليه شـيعته من بني إسرائيل فهّم بقتله ، فلما دخل المدينة على حين غفلة كــان ذلك خطأ منه اســتغفر الله منه ، ومعـــنى المغفرة هنا ان يستر عليه الله سبحانه.

وقد روي مثل هـذا التفسـير عن الامـام الرضا (ع) [3] ونسـتوحي من هـذا التفسـير مـدى أهمية الكتمـان في العمل الرسالي.

[17] ثم عاهد الله ان لا يســـتخدم القـــوة والعلم والحكمة الـتي وهبها الا من أجل الخـير وفي سـبيل الله والدفاع عن المستضعفين.

(**قــالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُــونَ ظَهِـيراً لِلْمُجْرِمِينَ**)

وكــانت هــذه الحادثة بالإضــافة إلى مواقف أخــرى سبقتها ، أدّت بموسى الى الهجرة عن بلده ، لتبدأ الحركة الرسالية مرحلة جديدة من الصراع والجهاد.

---

(3) راجع نور الثقلين ج (4) ص (119).

فَأَصْــبَحَ فِي الْمَدِينَــةِ خائِفــاً يَتَــرَقَّبُ فَــإِذَا الَّذِي
اسْتَنْصَـرَهُ بِـالْأَمْسِ يَسْتَصْـرِخُهُ قـالَ لَـهُ مُوسى إِنَّكَ
لَغَـوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُـوَ
عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَتُرِيــدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ
نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ
وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُـونَ مِنَ الْمُصْـلِحِينَ (19) وَجـاءَ رَجُـلٌ
مِنْ أَقْصَـى الْمَدِينَـةِ يَسْـعى قـالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (
20) فَخَـرَجَ مِنْها خائِفـاً يَتَـرَقَّبُ قـالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقـاءَ مَـدْيَنَ قـالَ
عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّـبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ
ماءَ مَدْيَنَ وَجَـدَ عَلَيْـهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْـقُونَ وَوَجَـدَ
مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ

---

21 [يترقب] : الترقب الانتظار.

قـالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْـقِي حَتَّى يُصْـدِرَ الرِّعـاءُ وَأَبُونا شَـيْخٌ كَبِـيرٌ (23) فَسَـقى لَهُما ثُمَّ تَـوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِـيرٌ (24)

---

23 [تذودان] : ذاد بمعنى منع وتذودان أي تمنعان أغنامهما عن الــورود على الحوض.

[يصدر الرعاء] : من أصدر إذا رجع عن الماء ماشيته.

رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

هدى من الآيات :

تحدثنا آيات هـذا الـدرس عن صـفات القائد الرسـالي الــذي يصــنع الثــورة ، ويقــاوم الجاهلية المادية بالرّسـالة الإلهية ، وموسى (ع) الــذي قــرر ان لا يكــون ظهــيرا للمجـرمين ، بل يكـون الى جـانب الحق ــ لم تكن حركته نابعة من عواطف مؤقتة ، ولا من شــهوات ســلبية ، أو ردود فعل مرتجلة تجـاه الأحـداث ، وانما كـان ينطلق من مبادئ ثابتة ، ويتحرك عبر مسـيرة واضـحة المعـالم ، فهو يريد أن يحقق العدالة في المجتمع ، بادئا بنفسه أولا.

فبعد أن قتل موسى (ع) القبطي ، صــار مطلوبا عند السـلطة ، فكـان ينبغي أن يكـون حـذرا في مدينة تطالها سيطرة فرعون ، وقد أشار القـرآن لهـذا الأمر في حديثه عن موسى (ع) وهو يدخل المدينة تارة ويخـرج منها تـارة أخـــــــــــــرى ، أو يمشي فيها فقــــــــــــــــال : «**وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها**» «**فَأَصْـبَحَ فِي الْمَدِينَـةِ خائِفـاً يَتَـرَقَّبُ**» «**فَخَـرَجَ مِنْها خائِفـاً يَتَرَقَّبُ**».

وهكذا ينبغي للرسالي أن لا يأخذ الأمور بسـذاجة عند ما يـــدخل بلاد الطغـــاة لأداء مهمة مـــا. ان موسى دخل المدينة ، وخـــرج منها ، وعـــاش فيها حـــذرا ، وبالتـــالي مســـتعدّا ومخطّطا لتصـــرفاته في شـــتى الظـــروف والاحتمالات.

وبينما كـــان موسى يمشي في المدينة ، وفي هـــذه الظروف الصعبة ، فإذا بالذي استغاثه بالأمس يستصــرخه اليـــــوم ، يريد منه ان يعينه على رجل قبطي آخر ، لكنه هـذه المـرة تفجر غضـبا على الإثـنين ، على الاسـرائيلي باعتباره يورط الحركة الرسالية في صراعات غير مخطط لها ، قد تنعكس ســلبيّا على خطط الحركة في التغيــير ، ويبــدو أن الرجل كــان ممن تثــيره عداواته الشخصــية ، فتجــره الى مواقف مرتجلة هـذا من جهة ، ولكن ذلك لم يمنع موسى من نصـــرته فلقد هم بـــالبطش بـــالقبطي باعتباره ظالما من جهة أخرى.

ان خطأ الإسرائيلي الذي استحق عليه اللـوم لا يكمن في اســتراتيجيته ، فهو مظلـــوم يتعـــرض للإهانة ، وربما للقتل ومن حقه الـــدفاع عن نفسه وكرامته ، انما يكمن خطأه في أسلوبه ، إذ فجر الصراع في ظرف ووقت غـير مناســبين ، وهنا لا بد أن نعــرف ان من أســباب فشل أيّ حركة هو اللاانضـباط الـذي من صـوره وشـواهده دخـول أفراد الحركة في صراعات غير مخططة وبعيدة عن قـرار القيادة.

لهذا نهر موسى (ع) الاسرائيلي وقاله له :

«**قاتلت رجلا بالأمس وتقاتل هذا اليـوم لأؤدبنك ، وأراد ان يبطش به ، وهو من شيعته**» [1]

فزعم ان موسى (ع) يريد قتله ، فاتهم النبي (ع) بأنه لا يصلح للقيادة ، وأنّ

---

(1) نور الثقلين ـ ج (4) / ص (119).

هدفه ليس إلا الإفســاد في الأرض ، والتجبّر ، وفي الــبين فضح سرّا من أسرار الحركة حين أعلن أمام النــاس ، ان الــذي قتل القبطي بــالأمس هو موسى (ع) فانتشر الخــبر في المجتمع ، وقــررت السـلطة ان تنتقم منه (ع) وتجعله عبرة للآخرين.

ويبدو ان الحركة الرسالية كـانت ناضـجة ، مما جعلها تخــترق خاصة فرعــون ، وتتعــرف على خطط الســلطة ، وهــذا من أســباب النجــاح في العمل ، إذ يمكّن الاخــتراق الحركــــات من اتخــــاذ خطط وقائية ومضـــــادة لخطط الحكومات ، وكانت الخطوة الوقائية لموسى (ع) هو قرار الهجرة في سبيل الله.

وهكـــذا دخلت الحركة الرّســـالية مرحلة جديـــدة ، وأســـلوبا آخر في العمل الرســـالي ، والهجـــرة مرحلة أساسية لدى الحركات الرسـالية عـبر التـاريخ ، وهي ذات معطيــات هامة على مســتوى الفــرد والحركة ، فهي مثلا تــزكّي الفــرد من جهة وتحفظ القيـادة والتحــرك من جهة أخرى.

ولم تكن الهجـــرة بالنســـبة الى موسى (ع) تعـــني الهــروب من سـاحة الصــراع والعمل في ســبيل الله ، بل كانت فرصة للإعداد الأفضل للصــراع والعمل ، حيث كـان مستضــــعفا ومحروما ، فكــــان يبحث هنا وهنــــاك عن مستضــــعف ليعينه ، كما لم ينقطع عن التفكــــير في جماهيره المغلوب على أمرها.

لهــذا نجد القــرآن أول ما يحــدثنا عن موسى (ع) في دار الهجـرة يشـير الى انه أول ما قـام به هنـاك هو خدمة الناس ، والإحسان إليهم. انه لم يقل : يجب أولا ان انتصر على الطاغوت ، ثم أفكر بعدها في خدمة المستضـعفين ، كلا .. فــأنت أيّها المــؤمن ، وأنت في مســيرة بنـاء الدولة الاسـلامية عليك ان تسـعى بما أتـاك الله من قــوة لخدمة النــاس ، لأن ذلك يــربي الإنســان ، وينمي فيه المــواهب الخيّرة ، وبالتالي يجعله أهلا لتحمل المسؤولية الرسالية.

وفي الآية الأخيرة نجد صورة نموذجية لأسلوب الفـرد المؤمن في الدعاء.

بينات من الآيات :

فاذا الذي استنصره يستصرخه :

[18] (**فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ**)

لقد كـان موسى (ع) مطلوبا عند السـلطة باعتبـاره معارضا لها ، فكيف وقد قتل شخصا منهم؟!

ان الخـوف الـذي تشـير له الآية الكريمة هو الخـوف الإيجـابي الـذي يـدعو صـاحبه للتفكـير في العمل ضـمن الظروف الصعبة ، لا الخوف السلبي الـذي يـدعو للتوقف عن التحرك والخنوع ، وفرق بين الأول الذي ينعكس على أسلوب العمل ، والآخر الذي ينعكس على ذات العمل.

ان موسى (ع) لم يتوقف لحظة عن الجهاد في سبيل الله ، ولكنه صار يتحرك بحذر ، والـترقب : من المراقبة ، وتوقع ردّات فعل السـلطة. الأمر الـذي يـدعو للإعـداد الوقائي لأيّة ردة فعل من قبلها.

وعند ما تـدخل الحركة الرسـالية في ظـروف العمل السري يتـوجب عليها ان تحسب الف حسـاب لتحركاتها ، وان تختار الوقت المناسب لتوجيه أيّة ضربة للنظام ، وأن لا تفجر الصراع بشكل شامل ومعلن الا بعد نضجها ونضج الساحة الجماهيرية ، وضمن خطة مدروسة آنفا ، وإلّا فإن مصيرها سيكون الفشل.

ومجموع هـذه الحسـابات هي الـتي دعت موسى (ع) للغضب على الاسرائيلي لما تقاتل مع القبطي الآخر ، ولو لم يكن يستنجد بموسى ، وبالتالي يكشفه أمام الناس ،

ربما لم يتخذ منه هذا الموقف.

(**فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ**)

وقد عبر القرآن عن المـرة الثانية بالاستصـراخ ، ولم يقل يستنصـره ــ كما كـان في حديثه عن الأمس ــ وربما ذلك ليبين ان موقف الإسرائيلي كـان فاضـحا ، ولعل هـذا كان مما دعا موسى (ع) للغضب عليه.

(**قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ**)

انك تعرف الطريق الصـحيح ، وانه من غـير المناسب تفجير الصراع في مثل هذه الظــروف ، ولكنك تتنكب عن الطريق بشــكل بيّن وواضح ، وذلك ان موسى (ع) ـــ كما يبدو ـ كان قد بين له في المرة الأولى الخطأ «**قـالَ هـذا مِنْ عَمَـلِ الشَّـيْطانِ إِنَّهُ عَـدُوٌّ مُضِـلٌّ مُبِينٌ**» [2] لكنه خالف القيادة فاستحق العتاب بل التأديب كما في الرواية التي مر ذكرها.

ومع كل ذلك صمم موسى (ع) على البطش بالقبطي ، لأنه أخذ على نفسه عهدا بان لا يكون ظهيرا للمجرمين.

[19] (**فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُـوَ عَـدُوٌّ لَهُما**)

هو والاسـرائيلي ــ بعد ان لام الـذي من شـيعته على خطئه ـ وحيث ان كلمات موسى كانت قد أثرّت أثرها في نفس الاسرائيلي ، فأراد الثأر لنفسه :

(**قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِـالْأَمْسِ إِنْ تُرِيـدُ إِلَّا أَنْ تَكُـونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**)

---

(2) القصص / (15).

هكذا تبيّن ان الرجل كان غويّا مبينا ، وان صـراعه مع الأقبـاط كـان مجـردا عن المضـمون الرسـالي. إذ بمجـرد خشيته من غضبة قائده ومنقــذه انقلب عليه ، واتهمه بأنه يريد ان يتجبر في الأرض ـ يتسلط على الناس بغـير الحق ـ وان ادعاءه بالسـعي وراء الإصـلاح ليس بصـحيح ، ولعله كان من نمط المارقين الـذين خرجـوا على الامـام علي ــ عليه السّلام ـ وهذا النمط من الثـوريين هم المتطرّفـون ، المعجبون بأنفسهم ، ضعاف الـولاء لقيـادتهم ، ومهما يكن نمط هذا الشخص فقد أذاع سرّا هاما من أسرار الحركة.

ويلاحظ في أحــاديث أهل الــبيت (ع) أنهم اعتــبروا إفشاء السر أو اذاعة الأمر ـ حسب التعبير الاسلامي ـ من أعظم المحرمات ، قال الامام الصادق (ع):

«**يا ابن النعمــــان! اني لأحـــــدّث الرجل منكم بحــديث فيتحــدث به عــني ، فاســتحل بــذلك لعنته والــبراءة منه ، يا ابن النعمــان! إنّ المــذيع ليس كقاتلنا بســـــيفه بل هم أعظم وزرا ، بل هو أعظم وزرا ، بل هو أعظم وزرا**» (3)

قال (ع):

«**والله ما الناصب لنا حربا بأشد علينا مؤنة من الناطق علينا بما نكره**» (4)

وقال (ع):

«**من أذاع علينا شــيئا من أمرنا فهو كمن قتلنا عمدا ولم يقتلنا خطأ**» (5)

وعند ما نقارن بين موقف موسى (ع) من الاسرائيلي في المرتين ، نجد التالي :

---

(3) بحار الأنوار ج (78) / (287).
(4) المصدر ج (75) / ص (74).
(5) المصدر / ص (87).

1 ـ انه في المـــرة الاولى قتل القبطي ، ثم بيّن له الخطأ : «**فَـوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْـهِ قـالَ هـذا مِنْ عَمَلِ الشَّـيْطانِ إِنَّهُ عَـدُوٌّ مُضِـلٌّ مُبِينٌ**» أما في المـرة الثانية ، فانه تكلم ضد الإسرائيلي أولا : «**قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ**» ثم توجه للبطش بالقبطي : «**فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَـدُوٌّ لَهُما ..**» ولعل ذلك ل يـبين لنا القـرآن حقيقة طالما أكد عليها أئمة الهـدى في أحـاديثهم وهي : ان الاسـرائيلي في المـرة الثانية حيث خـالف أمن الحركة كـان أحق بـاللوم والتـأديب ، فموسى بـدأ بـالقبطي تلك المـرة لأن تأديبه هو الأهم ، بينما بـدأ بالاسـرائيلي هـذه المـرة لأن ردعه عن تصـرفاته الخاطئة هـذه أهم بالنسـبة للحركة الرسـالية من قتل القبطي. بل ان بعض الروايـــات قـــالت : ان موسى أراد ان يبطش بالإسرائيلي لا بالقبطي ، قال الامام الرضا (ع) في تفسير الآية :

«**فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْـرِخُهُ**» على آخر «**قـالَ لَـهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَـوِيٌّ مُبِينٌ**» قـاتلت رجلا بـالأمس وتقاتل هـذا اليـوم لأؤدبنك وأراد ان يبطش به «**فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُـوَ عَـدُوٌّ لَهُما**» وهو من شيعته «**قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي**) .. الآية» (6)

2 ـ في المرة الاولى قـال القـرآن عن لسـان موسى وهو يخاطب الاسرائيلي لدخوله في الصراع مع القبطي : «**قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَـدُوٌّ مُضِـلٌّ مُبِينٌ**» وقد نسب العداوة والضلال المـبين للشـيطان ، بينما قـال في المرة الثانية : «**قالَ لَـهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَـوِيٌّ مُبِينٌ**» ناسبا الغواية الواضحة والمتعمدة للإسرائيلي ، وبالمقارنة نصل الى هـــذه النتيجة : ان الاســـرائيلي وقع في حبائل الشيطان ، وصار عدوا لموسى من حيث لا يشعر ، وهكذا كل من يخالف أوامر قيادته الرسالية ، لتصوراته ومواقفه الشخصية.

---

(6) نور ج (4) / ص (119).

(**فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**) :

[20] وكما ان عـــدم الانضـــباط من أســـباب فشل الحركـات وضـعفها ، فـان اختراقها لأجهـزة النظـام من أسباب قوتها ونجاحها ، ولربما كـانت حركة موسى تفشل لو لم تكن تملك نقطة القوة هـذه ، فربما كـانت تنتهي لو قبض على قائدها أو قتل.

(**وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى**)

ورد في الروايات :

... وبلغ فرعـــون خـــبر قتل موسى الرجل ، فطلبه ليقتله ، فبعث المؤمن الى موسى : «**إِنَّ الْمَلَأَ يَـأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**»(7)

وهو الـذي قـال عنه تعـالى في موضع من القـرآن : «**وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَـهُ**» لقد كان هـذا الرجل يتظـاهر بـالكفر ، ويخفي الايمـان ، وذلك لينفع به حركته الرسـالية ، وأن يعيش الرجل بشخصـيتين متناقضتين أمر صعب ، ويحتاج إلى شخص بمسـتوى رفيع من التقـوى والجهـاد والارادة ، فلا يـذوب أمـام اغـراءات الدنيا فينقلب على عقبيه ، ولا يعجز عن أداء هـذا الـدور ، وجاء في بعض الروايات عن أصحاب الكهف :

قال الامام الصادق (ع):

«**إنّ أصـحاب الكهف أسـرّوا الإيمـان وأظهـروا الكفر ، وكـانوا على إجهـار الكفر أعظم أجـرا منهم على إسرار الإيمان**» (8)

---

(7) نور الثقلين / ج (4) / ص (120).

(8) وسائل الشيعة / ج (11) / ص (480).

ومن طريف ما يحكى عن مؤمن آل فرعـون وكتمـان ايمانه ورساليته ، وايمانه بموسى (ع) عن الامام الصـادق (ع) انه قال :

ولقد كـان لخربيل المـؤمن مع قـوم فرعـون الّـذين وشـوا به الى فرعـون مثل هـذه التوريـة. كـان خربيل يدعوهم إلى توحيد الله ونبوّة موسى ... ومن الـبراءة من ربوبيّة فرعون ، فوشى به الواشون إلى فرعـون ، وقـالوا : إنّ خربيل يـدعو إلى مخالفتك ، ويعين أعـداءك على مضـادتّك ، فقـال لهم فرعـون : ابن عميّ وخليفـتي على ملكي ووليّ عهدي؟ إن فعل ما قلتم فقد استحقّ العـذاب على كفره لنعمتي ، وإن كنتم عليه كـاذبين قد اسـتحققتم أشدّ العقاب لإيثاركم الدخول في مساءته ، فجـاء بخربيل وجـاء بهم فكاشـفوه وقـالوا : أنت تكفر ربوبيّة فرعـون الملك وتكفر نعماءه؟ فقال خربيل : أيّها الملك هل جرّبت عليّ كذبا قطّ؟ قال : لا ، قال : فسلهم من ربّهم؟ قالوا : فرعون قـال لهم : ومن خـالقكم؟ قـالوا : فرعـون هـذا ، قـال : ومن رازقكم ، الكافل لمعايشـكم ، والـدافع عنكم مكارهكم؟ قالوا : فرعـون هـذا ، قـال خربيل : أيّها الملك فأشـهدك ومن حضـرك أنّ ربّهم هو ربّي ، وخـالقهم هو خالقي ، ورازقهم هو رازقي ، ومصلح معايشهم هو مصلح معايشي ، لا ربّ لي ولا خـالق ولا رازق غـير ربّهم وخـالقهم ورازقهم ، وأشـهدك ومن حضـرك أنّ كـلّ ربّ وخـالق ورازق سـوى ربّهم وخـالقهم ورازقهم فأنا بـريء منه ومن ربوبيّته ، وكافر بإلهيّته.

يقـول خربيل هـذا وهو يعـني أنّ ربّهم هو الله ربّي ، ولم يقل إنّ الّذي قالوا هم أنّه ربّهم هو ربّي ، وخفي هـذا المعـنى على فرعـون ومن حضـره وتوهّمـوا أنّه يقـول : فرعون ربّي وخالقي ورازقي ، فقال لهم : يا رجال السوء ويا طلّاب الفساد في ملكي ومريدي الفتنة بيني وبين ابن عمّي وهو عضدي أنتم المستحقّون لعذابي لإرادتكم فساد أمـري ، وإهلاك ابن عمّي ، والفتّ في عضـدي ثمّ أمر بالأوتاد فجعل في ساق كـلّ واحد منهم وتد ، وفي صـدره وتد ، وأمر أصحاب

أمشاط الحديد فشـقّوا بها لحمهم من أبـدانهم ، فـذلك ما قـال الله : «**فَوَقـاهُ اللـهُ**» يعـني خربيل «**سَـيِّئاتِ ما مَكَـرُوا**» لما وشـوا إلى فرعـون ليهلكـوه «**وَحـاقَ بِـآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ**» وهم الّذين وشوا لخربيل إليه لمّا أوتد فيهم الأوتاد ومشط عن أبدانهم لحومهم بالأمشاط [9]

وقد تقتضي المصـــــلحة أحيانا ان لا يعيش الفـــــرد الرسـالي مع المحـرومين في مكـان واحد ، بل يبحث له عن بيت سعيد ، يميل إلى الرفاه من أجل إخفاء شخصه ، ولكن لا ينبغي ان ينعكس ذلك على إيمانه وشخصـــــيته الحقيقية أبدا.

والرسالي الذي يمـارس هـذا الـدور يجب ان لا يظهر ارتباطه بالحركة أو القيادة الرسالية حتى لا يفتضح أمره ، والقـــــرآن يعـــــبر عن مجيء الرجل من أقصى المدينة بالسـعي ، وهو الإسـراع ، وقد جـاء مسـرعا وذلك حـتى يتدارك الأمر قبل ان يقع موسى في يد السـلطة من جهة ، وحتى يسـبق جلاوزة النظـام للمكـان ، وبالتـالي لا يـرى وهو يـؤدّي واجبه الرسـالي ، حيث لا يقـول ربنا سـبحانه : يركض أو يسرع. هـذا من جهة ، ومن جهة أخـرى لم تكن سرعته بالشكل الذي يلفت انتباه الآخـرين ، إذ من الخطأ عند ما يكـون عند الفـرد الرسـالي أمر هـام أن يظهر في صورة غير عادّية أمام الآخرين.

وهنا لا ننسى أيضا أثر الـوقت في كثـير من المهـامّ ، فقد يسـتدعي الأمر أحيانا أن يرسل الواحد للآخر إشـارة فقط ، أو لا أقل يختصر الكلام ليكون الـوقت في صـالحه بشرط ان يكون الاختصار نافعا.

(**قـالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَـأْتَمِرُونَ بِـكَ لِيَقْتُلُـوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**)

---

(9) بحار الأنوار / ج (75) / ص (402).

بهـذه العبـارة المختصـرة الـتي تتضـمن الخـبر والتحليل اكتفى هذا الرجل.

[21] كما ان موسى (ع) لم يفـوت على نفسه لحظة واحــدة ، إذ كــان يملك القــرار الحــازم ، بالاضــافة الى البصــيرة النافــذة ، ويعبّر عن مجمــوع هــاتين الصــفتين بســـرعة البديهة ، وكم من المجاهـــدين وقعـــوا في يد الأنظمة لأنهم لا بديهة لهم ، فتراهم عند ما يسمعون بــأن شـيئا غـير عـادي يحـوط بهم. تـراهم يـترددون في اتخـاذ القرار المناسب ربما لصعوبته عليهم ، كقرار الاختفاء ، أو الهجرة ، أو التصدي ، فيقعون في محذورات أكبر.

(**فَخَـرَجَ مِنْها خائِفـاً يَتَـرَقَّبُ قـالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**)

وكـــان يحمل معه في هجرته زاد التوكل وهو أعظم زاد.

[22] لقد كان موسى مهاجرا بالمعنى المعنوي ، عند ما هجر ســلوكيات المجتمع المنحرفة ، أما الآن فانه بــدأ الهجــرة العملية بمضــمونها المــادي أيضا ، وللهجــرة في سبيل الله فوائد عظيمة. من أهمها تزكية نفس الإنسان ، فأول ما يقوم به المهاجر في سبيل الله هو تزكية نفســه. ذلك ان وعثــاء الســفر ، والغربة ، والابتعــاد عن المجتمع الفاسد ، ومواجهة التحديات ، والمشاكل الجديدة ، و.. و.. كل هـذه الأمـور بوتقة لصـياغة شخصـية الإنسـان باتجـاه التكامل ، وهكذا كانت الهجرة تعـني بالنسـبة لموسى (ع) فقد كان يبحث عن الهدى ، ولم تكن هجرته للهــروب عن المصاعب والمشاكل. كلا .. فهو لا يزال يفكر في قومه.

ان قسـما من النـاس حينما يهـاجرون عن شـعوبهم ، ويجــدون الرخــاء والأمن في البلد الآخر ، ينســون بلادهم وشـعبهم ، وكل الـدموع والـدماء والمآسي الـتي لا يـزال شعبهم يعاني منها ، وهذا خطأ كبير ، وانحراف بالغ ، لأنك حينما تهاجر فلكي

تكسب المزيد من الـوعي والقـوة ، فتعـود لبلـدك لتفجر الثورة.

وهكذا نجد موسى (ع) في مسـيره الى مـدين يسـأل الله سبحانه ان يهديه سواء السبيل :

(**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقــاءَ مَــدْيَنَ قــالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ**)

وقد انطلق موسى ــ عليه السّـلام ــ في الصـحراء وحــده ، وكــانت قصة هجرته أروع ما عرفه التــاريخ من هجرات البشر. دعنا نقرأ جانبا منها :

[23] لقد هاجر (ع) الى مـدين ، وكـانت مـدين مدينة يكثر فيها الرعاة ، وتحوطها الآبار.

(**وَلَمَّا وَرَدَ مـاءَ مَـدْيَنَ وَجَـدَ عَلَيْـهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ**)

اي بعيدا عنهم.

(**امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ**)

تمنعــان اغنامهما عن الــورود على الحــوض ، لأنهما كرهتا الاختلاط مع الرجال ، فكانتا تنتظران نهاية السقاية.

(**قالَ ما خَطْبُكُما**)

ما الأمـر؟ لمـاذا لا تسـقيان؟ وكـان ــ عليه السّـلام ــ يبحث عن مستضعف يعينه ، وهكذا تكون حياة الرسـاليين أينما كانوا كلها في خدمة الرسالة والناس ،

وهم يبحثون عن أي فرصة للعمل الصالح دون ان ينتظروا من الناس ان يسألوهم العـون. وقد قـال القـرآن في حق عيسى (ع) : «**وَجَعَلَنِي مُبارَكــاً أَيْنَ ما كُنْتُ**» اي أينما حللت ، فـالمؤمنون مبـارك مقـدمهم على مجتمع في دار الهجرة.

ولعلنا نسـتفيد من قيـام موسى بهـذا العمل ضـرورة بناء علاقـات اجتماعية تثبت التحـرك الرسـالي في مجتمع الهجرة ، كما يستفيد من خلالها في خدمة قضيته.

(**قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعـاءُ وَأَبُونا شَـيْخٌ كَبِيرٌ**)

لا يسـتطيع ان يسـقي الأغنـام ، اما نحن ننتظر سـائر الرعاة حتى ينتهوا فنسقي أغنامنا.

[24] (**فَسَقى لَهُما**)

اننا نجد قسـما من الثـائرين يسـقطون خدمة النـاس من حسابهم ، بحجة ان العمل للقضية أهم من كل شيء.

أما موسى فانه يـــرى خدمة المستضــعفين من أهم أهدافه ، لذلك سقى للامرأتين ، وكـان فـتى قويّا ، عركته صعوبات الحياة وتحدياتها ، وقد سـقى لهما بـدلو لا يطيق حمله الا عشرة رجال.

والواقع : إن من أهمّ صــفات الأنبيــاء الإحســان الى النـاس ، وبأمثـال هـذه الصـفة اصطفاهم الله للرسـالة ، فعند ما يتحـدث القـرآن عن اختيـار الله للأنبيـاء كثـيرا ما يقـــــــــــــــــــــــــــــــــــول : «**وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**».

(**ثُمَّ تَـوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقـالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْـزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**)

لقد كـان موسى يتضـور جوعا ، ويعـاني من الغربة ، ولا يعـــــرف الى اين ينتهي به الأمر ، ولكنه لم يشك الى الله ذلك ، بل ذكر نعمه السـابقة ، وقـال انـني افتقر الى ذلك الخير. وهـذا من أفضل أسـاليب الـدعاء ، إذ يتضـمن كناية أبلغ من التشـبيه ، ونظـرة ايجابيـة. فبـدل ان يقـول أحدنا : ان عيـني تؤلمـني فشـافها يا رب ، ليقل ان عيـني كانت سليمة سابقا ، واني اليوم لفي حاجة لان أكون مثل الماضـي. إذ من آداب الـدعاء أن يبـدأه العبد بحمد الله ، والثناء عليه ـ كما في الأحاديث ـ.

وأهمية هذا الأدب المحافظة على الروح الايجابية عند الإنسان الذي يسعى الشيطان لإغوائه أبـدا عن نعم الله ، ووضع نظارات سوداء على عينه كلما ألمت به مصيبة ، أو فقد نعمة ، حـتى لا يـرى سـائر النعم الباقية وهي بالتأكيد أكـثر مما فقـدها ومن لا يـرى نعم الله عليه لا يمكنه من الانتفاع بها.

وفي تفسير آخر للآية : ان أبا بصـير قـال : قلت لأبي عبد الله ـ عليه السّلام ــ : هل للشـكر حـدّ إذا فعله العبد كان شاكرا؟ قال : نعم ، قلت : ما هو؟ قال :

يحمد الله على كـلّ نعمة عليه في أهل ومــال ، وإن كـان فيما أنعم الله عليه في ماله حـقّ أدّاه ، ومنه قــول الله عزّ وجل : «**سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**» ومنه قـــول الله عـــزّ وجل : «**رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ...**»

وربما ربط الامـام (ع) بين حـدود الشـكر وبين هـذه الآية ليبيّن حقيقة هامة وهي : ان قول موسى هذا انما هو شـكر ، لأنه بعد ما سـقى الى الامـرأتين ، وتـولى الى الظلّ. قال : «**رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**» لأني ما عملته قليل ، وانا محتـاج الى عمل أكـثر وأكـبر ، حتى يرتفع رصيدي عندك.

فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (28) فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ

---

27 [أشق عليك] أي أتعبك.

الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (30)

---

29 [جذوة] : القطعة الغليظة من الحطب فيها النار وجمعها حذى.

آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً

هدى من الآيات :

الهجـرة مرحلة ضـرورية لكل الرسـالات والحركـات الرسـالية السـائرة على خطأها عـبر الـزمن ، فهي تنفع الإنسان تزكية لنفسه ، وبلورة لشخصيته ، واستقامة على الحق بما فيها من ساعات صعبة حبلى بالمشـاكل والألم ، فالمهـــــــــاجر يقتلع نفسه من مجتمعة ، ويعيش غريبا ، مجهول المصير ، ولعل تلك الساعة التي آوى فيها موسى الى ظل الشجرة كانت من تلك الساعات ، فهو الآن جائع ومتعب من وعثـاء السـفر ، في بلد لا يعـرف فيه أحـدا ، بالإضافة الى هموم شعبه المستضعف ، وربما كان خـوف فرعـون لا يـزال يلاحقه ، ولم يتخلص منه نهائيا إلا بعد أن أخبره شعيب بأنه قد نجى ـ فعلا ـ من القوم الظالمين.

أما الوجه الآخر للهجرة ، فهي رحمة الله التي تـرعى المجاهـدين ، وفي هـذه الآيـات الكريمة نجد حـديثا عن أبـــواب الرحمة والبركة الـــتي فتحها الى نبيه موسى (ع) فقد

جاءته احدى الامرأتين اللتين سقى لهما ، وهي تدعوه الى بيتهم حـــتى يجزيه أبوها أجر الســـقاية ، وتتـــابعت عليه بركات الرب ، حيث أضحى واحـدا من هـذا الـبيت بعد ان كــان غريبا في مــدين ، ومســتقرّا بعد ان كــان من دون مــأوى ، ونقــرأ بين الســطور دروسا إلهيّة مهمّة حـــول أخلاقيات المهاجر الرسالي.

وتتجلى الرحمة الإلهية مــرة أخــرى وبصــورة أعظم حينما يرجع موسى بأهله الى وطنه والمشاكل تحوطه من كل جانب ، فالليل حالك الظلمة ، والبرد قـارص ، وزوجته حامل ، وهم يســيرون في مفــازة شاســعة ، دون معرفة بمعــالم الطريق ، وفي الأثنــاء تمــوت مواشــيه ، وهو لا يعرف إذا يصـنع ، وإذا بيد الغيب تمتد اليه لا لكي تسـتنقذ موسى فقط ، وانما لكي تستنقذ معه بني إسرائيل أيضا.

في بادئ الأمر لما رأى موسى النار لم يكن في خلده ســـوى الاســـتفادة من جــــذوتها للتدفئة ، وممن حولها الاهتداء الى الطريق ، ولكن ما إن بلغها حتى سمع النـداء : «**فَاخْلَعْ نَعْلَيْـكَ إِنَّكَ بِـالْوادِ الْمُقَـدَّسِ طُـوىً**» وحينها انســلخ من كل الانتمــاءات المادية ، ونسي كل الهمــوم والآلام ، وتوجه الى ربه بكل عقله وعواطفه ، وهنا تتجلى عظمة الأنبيــاء ، فــاذا بموسى (ع) لا يخلع نعليه وحسب ، بل يخلع كل انتمــاءات الأرض والــتراب عن نفسه ، ويأتيه الـــوحي من طـــور ســـيناء ، دون ان يلتفت الى زوجته الحامل ، ولا مواشــيه الــتي هلكت والــتي كــانت حصـيلة عشر سنوات من العمل.

بينات من الآيات :

اخلاقيات المهاجر :

[25] المهـاجر باعتبـاره غريبا عن بلد الهجـرة ، يجب ان يكــون متســاميا في الأدب ، لأنه لا يعــرف البلد ، ولا يعرف خصائصه الاجتماعية ، وربما يوجد فيه من

يعتقد بأنه ثقيل الظل ، فيحـاول الضـغط عليه ، ومن هنا يجب على المهـاجر تفجـير طاقاته المعنوية والمادية ليستوعبه أهل المدينة ، وأول عمل قام به موسى (ع) أنه أعان العائلة الفقيرة ، وهكذا نجد حياة الأنبياء والرساليين عبر التاريخ ، فرسـول الله (ص) دخل المدينة مهـاجرا من مكة ، ودخلت معه البركـات إليها بسـبب نشـاطه وقيمه الرسـالية ، وأول ما وصل إليها بـنى مسـجدا فيها وهو مسـجد (قبـاء) وردم الحفر والمسـتنقعات الـتي انتشـرت حولها ــ حسب بعض التـواريخ ــ والـتي كـانت باعثا على الأمـراض ، ثم إنه (ص) لم يكن كلّا على أهلها ، بل كـان يعمل بنفسه ، ويكد من عـرق جبينه ، أو ربما دفع الامـام علي للقيام بهذا الدور ، ومثل هذا السلوك يجعل المهاجر محبوبا في المجتمع ، وهـذا ما حـدث فعلا لموسى ــ عليه السّـلام ــ إذ بعث اليه شـعيب ــ عليه السّـلام ــ لما أنبأته ابنتـاه بأنه قـويّ أمين ، وقد أحسن إليهما بالسـقي لمواشيهما.

(**فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قـالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا**)

وهنا اشـارة الى ان الأديـان الإلهية عموما لا تعـارض دخول المرأة الى الواقع الاجتماعي ، وتعاملها مع الآخرين ، ولكن بشرط ان يكـون تعاملها محاطا بـالأدب والحيـاء ، فهذه ابنة شعيب وهو أحد الأنبياء بعثها أبوها في أمر يجده ضروريّا ، وحين لبّت كانت متسربلة بالعفة والحياء.

واسـتجاب موسى (ع) لهـذه الـدعوة لا ليأخذ أجر السـقاية ، وانما ليجد له موقعا في هـذا البلد الغـريب. إذ ينبغي للمهـاجر الرسـالي ان يبـني شـبكة من العلاقـات الاجتماعية بمختلف الأسـباب المشـروعة ، ولمختلف الجهات في المجتمع حتى يسـتفيد منها في سـبيل أهدافه الحق ، وحينما مشى موسى مع امرأة غريبة مشى بأدب

وحشــمة ، فقد أمرها ان تســير خلفه وتدله على الطريق بحصاة ترميها يمينا أو يسارا ، لأنه ربما يـرى شـكلها وهي تسير أمامه.

وفي الحديث :

«فقــام موسى معها ومشت أمامه ، فســفقتها الريّــاح فبــان عجزها ، فقــال لها موسى : تــأخري ودليني على الطريق بحصاة تلقينها أمــامي اتبعها ، فانا من قوم لا ينظرون في ادبار النساء» [1]

(**فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ**)

روى له ما جــرى عليه في بلاده الــتي يســيطر عليها فرعون وجلاوزته.

(**قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**)

وأول ما دخل عليه موسى أمر له بطعام ، فرفض أن يأكله وهو جائع ، فلما سأله شعيب عن السبب ، قال نحن من أهل بيت لا نأخذ أجرا على خـدمتنا للآخـرين لأنه لوجه الله ، وبقي مصــرا على ذلك ، حــتى أوضح له شـعيب ان هذا ما نقدمه لكل ضيف يحل علينا.

ويــبين لنا هــذا الموقف احــدى صــفات المهــاجرين الرسـاليين وخلقيـاتهم ، إذ يجب على المهـاجر ان يحصّـن نفسه ضد الذلة ، ويحافظ على قيمه الـــــتي جـــــاء بها للمهاجر ، فالكثير من المهـاجرين ، سـواء كـانوا عمّـالا أو مجاهدين حينما ينتقلون الى بلاد الشرق أو الغـرب تنمحي قيمهم من أذهـــــانهم ، وتنعكس على شخصــــيّاتهم قيم وســلوكيات مجتمع المهجر ، لأن المجتمع قــويّ ، وهم لا يجدون ما يحصنهم أمام تياراته ، فيذوبون

---

(1) نور الثقلين / ج (4) / ص (122).

فيه.

وعلى المهـــاجر ان يفكر في الحفـــاظ على قيمه ، وتحصين شخصيّته قبل التفكير في توفير مأكله ومشربه ، فقد رفض موسى (ع) ان يأكل الا بعد ما تأكد من ان هـذا الطعام لا تستتبعه ذلة ولا انتماء معينا.

[26] (**قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**)

وهذا الاقتراح يكشف لنا عن أمرين :

الاول : إحساس المرأة بالحاجة الى رجل يقوم بمهام البيت ، وان ما يشبع طمـوح المـرأة في الرجل ان يكـون قويا يجـبر ضـعفها ، وأمينا تطمئن للعيش في كنفـه. هـذا من الناحية الخاصة ـ بالنظر الى المرأة كـامرأة ــ أما من الناحية العامة حيث الظـــروف المحيطة بـــبيت شـــعيب فهاتان الصفتان مهمتـان ، فمن الضـروري ان يكـون قويّا حتى يؤدي المهـام والأعمـال بشـكل أفضل ، وأمينا حفظا لعرض البيت.

قال الامام علي (ع):

«**لما قالت المـرأة هـذا ، قـال شـعيب (ع) : وما علمك بأمانته وقوتـــه؟ قـــالت : أما قوته فانه رفع الحجر الذي لا يرفعه كذا بكذا ، وأمّا أمانته فانه قال لي : امشي خلفي فأنا أكره أن تصيب الريح ثيابك ، فتصف لي جسدك**» [2]

الثـــاني : ربما يكشف هـــذا الاقـــتراح عن رغبتها في الـــزواج منه ، فقد ورد في الروايـــات أن الـــتي تزوّجها موسى هي صاحبة الاقتراح ، بل وإنها هي التي أشارت

---

(2) المصدر / ص (123).

على أبيها بـالزواج منه ، والـذي يـدل على هـذا الأمر الآية اللاحقة ، حيث يطـرح فيها شـعيب موضـوع الـزواج على موسى (ع) لقـاء عمله معه ثمـان أو عشر سـنوات ، مما يدل على وجود بحث مسبق ، في هذا الموضوع بينه وبين أبنته ، ولا ريب انها كـانت تعـرف بـأن أجـور عمله هو الزواج.

[27] وقبل شـعيب بـاقتراح ابنته فاقبل على موسى (عليه السّلام).

(**قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ**)

واشترط عليه العمل ثماني سنين.

(**عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ**)

إلزاما ، وخيّره في سنتين إذا أراد هو.

(**فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ**)

باختيارك وأرادتك ، وإحسانا منك.

(**وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَـتَجِدُنِي إِنْ شـاءَ اللـهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**)

[28] فأجابه موسى :

(**قالَ ذلِـكَ بَيْنِي وَبَيْنَـكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَـيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ**)

وبقي موسى (ع) يعمل عند شـعيب (ع) وقد جعل الله ذلك كرامة لنبيه شـعيب لما هو عليه من التقـوى والزهد.

قال رسول الله (ص):

«بكى شـــعيب (ع) من حب الله عز وجل حـــتى عمي ، فرد الله عز وجل عليه بصره ، ثم بكى حـتى عمي ، فــرد الله عليه بصــره ، ثم بكى حــتى عمي فرد الله عليه بصره ، فلما كــانت الرابعة أوحى الله اليه : يا شعيب! الى متى يكـون هـذا أبـدا منـك؟ إن يكن هـــذا خوفا من النـــار فقد أجرتك ، وان يكن شوقا الى الجنة فقد أبحتك ، فقال : إلهي وسـيّدي أنت تعلم أني ما بكيت خوفا من نــارك ، ولا شــوقا إلى جنتك ، ولكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر أو أراك ، فــأوحى الله جل جلاله إليه : أما إذا كــان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى ابن عمران» [3]

وهكــذا كــان حيث زوج شــعيب ابنته لموسى لقــاء العمل عنده لمدة ثمـان سـنوات أو عشر ، وعلى هـامش هذا الزواج هناك حقائق نشير إليها :

الاولى : من الممكن ان تختار المرأة الزوج المناسب لها ، لأن الزواج قضية مصيريّة ، ذات أثر عميق على حياة المــرأة ومســتقبلها ، ولكن هـذا الإختيــار يجب ان يكــون بطريقة لائقة ، تتناسب مع حشمة المــرأة ، والقيم الإلهية ، فهـذه بنت شـعيب انما اختـارت موسى لما وجـدت فيه من الصــفات والمــؤهلات ، من قـــوة وامانة ، والــتزام بمفاهيم الرسالة ، ثم عرضت اختيارها بأدب على أبيها.

الثانية : قبل ان يتقـــدم موسى (ع) بطلب الـــزواج ، بادر شعيب الى ذلك ، حيث وجده كفؤا ، ووجد في زواجه من ابنته ضمانا لمستقبلها ، وسعادة لها في الحياة ، وهذا خلاف ما نجده الآن في المجتمعات التي صار فيها عــرض الأب بناته للزواج ممن يجده أهلا لها عيبا كبيرا.

---

(3) المصدر / ص (124).

الثالثة : ان البنت الصغرى هي الـتي تـزوجت وليست الكـــبرى. على عكس بعض التقاليد الخاطئة الـــتي تـــرى ضرورة زواج الكبرى أوّلا.

[29] وبقي موسى عند نـــبي الله شـــعيب (ع) عشر ســنوات ، وهي أقصى الأجلين قبل ان يقــرر العــودة من جديد.

(**فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ**)

وكــان هــذا إيــذانا بــدخول الحركة الرســالية مرحلة جديدة ، هي مرحلة العودة للتحرير ، وقد سبق أن أشــرنا بـأن الهجـرة عند الرسـاليين لا تعـني الهـروب من الواقع وتحمل المســؤولية ، إنما تعــني الإعــداد الأفضل لخــوض الصــــراع الحاسم ، ولا ريب ان موسى كـــــان يفكر في مستقبل شعبه ، ويخطط للمعركة القادمة وهو في طريق العودة.

كـــان الـــوقت ليلا ، والفصل شـــتاء ، والمســـير في صحراء مترامية الأطراف ، ولم تكن هذه الطريق معهودة عند موسى ، فضاع ومـاتت مواشـيه ، فصـار يلتمس عونا له على هذه الظروف ، وفي هذه الأثناء :

(**آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ**)

وهو الجبل.

(**ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً**)

وآنس من الاستئناس ، وبالفعل أعطت هــذه الشـعلة شـيئا من الأمل للنـبي موسى وهو يعـاني تلك الظـروف القاسـية ، فـأمر أهله بالبقـاء ، حيث أبقـاهم في مكـانهم ريثما يعود ، وكانت أصـعبها عليه الضـياع ، وبقـاء أهله في البرد ، كذلك قال :

(**لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ**)

كان يتصـور (ع) ان بجـانب النـار جماعة ما ، يسـألهم عن الطريق ، ويعود لأهله بخبر مفيد.

(**أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**)

والاصطلاء : هو التدفؤ.

[30] كـان هـذا أبعد ما ذهب اليه موسى حينما رأى النار ، ولكنه كان يحمل في داخله همّا أكبر من ذلك كله ، هم تحرير شـعبه وسـوقه نحو توحيد الله وعبادته ، بعيـدا عن العبوديات المزيفة ، ولو وصل في هـذا المضـمار الى نتيجة لا بد إنه كان ينسى كل شيء سوى ذلك الهم.

(**فَلَمَّا أَتاها نُـودِيَ مِنْ شـاطِئِ الْـوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَـةِ الْمُبارَكَـةِ مِنَ الشَّـجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ**)

وفي غمرة هذا القرب الالهي امره الله ان يقطع عنه كل علاقاته الأخـرى ، وينسى أهله وضـياعه ، وهلاك مواشـيه ، لأنه وجد ربه ، وهنا التفاتة مهمة تعـني المجاهـدين أكـثر من غـيرهم وهي : ان عليهم الاطمئنـان الى نصر الله وعونه ، وان ذلك كله لا يتـأتى لأحد إلّا بعد السـعي والجهـاد : «**وَالَّذِينَ جاهَـدُوا فِينا لَنَهْـدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**» (4)

وثمّة فكرة نجدها في تفسير الامام الصادق (ع) لهذه الآية. إذ يقول :

---

(4) العنكبوت / (69).

«كن لما لا ترجـــوا أرجى منك لما ترجو ، فـــان موسى ابن عمــــــران ذهب يقتبس نــــــارا لأهله ، فانصرف إليهم وهو نبيّ مرسل» [5]

---

(5) نور الثقلين ج (4) / ص (127).

وَأَنْ أَلْــقِ عَصــاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَــزُّ كَأَنَّها جَـانٌّ وَلَّى مُـدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِـلْ وَلا تَخَـفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْـرُجْ بَيْضـاءَ مِنْ غَيْرِ سُـوءٍ وَاضْـمُمْ إِلَيْـكَ جَناحَـكَ مِنَ الـرَّهْبِ فَـذانِكَ بُرْهانـــانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَــوْنَ وَمَلائِهِ إِنَّهُمْ كــانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (32) قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخـافُ أَنْ يَقْتُلُـونِ (33) وَأَخِي هـارُونُ هُـوَ أَفْصَـحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِـلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَـدِّقُنِي إِنِّي أَخـافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قالَ سَنَشُدُّ عَضُـدَكَ بِأَخِيـكَ وَنَجْعَـلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا

---

32 [أسلك] : أدخل.
[جناحك] : يدك.
[الرهب] : الخوف.
34 [ردء] : أي معينا.

يَصِــلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغــالِبُونَ (
35) فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّنـاتٍ قـالُوا ما هـذا
إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (
36) وَقــالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جــاءَ بِالْهُـدى مِنْ
عِنْــدِهِ وَمَنْ تَكُــونُ لَــهُ عاقِبَــةُ الــدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ (37)

بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ

هدى من الآيات :

لحظة الوحي هي لحظة حساسة في تاريخ البشرية ، لأنها لحظة الاتصــال الخــارق للعــادة ، بين رب الســماء والأرض عــبر مشــكاة طــاهرة تتجسد في قلــوب الرسل الذين يستقبلون الوحي ، ثم يبلّغونه للنـاس دون زيـارة أو نقصان ، وهذه اللحظة لا تتكرر كثيرا في حيـاة البشر ، إلا وفق حكمة الله البالغة ، وقد تحققت لأمة بــني إســرائيل عند ما كلم الله نبيه موسى (ع) في طـــور ســـيناء ، كما تحققت للأمة الاسلامية في ليلة القدر ، حينما نزل القرآن كلّه على قلب النـــبي محمد (ص)، ولعظمة هـــذه اللحظة كانت ليلة القدر خيرا من الف شهر.

لقد كلّم الله نبيه موسى تكليما ، ولكنه أجـــلّ من ان يكـون له لسـان ، انما يخلق الصـوت خلقا وبـذلك تغـيرت صــفحة الحيــاة ، وبــدأت المســيرة الحقيقيّة لبنــاء الأمة المؤمنة.

ولقد زود الله نبيه موسى (ع) بـآيتين عظيمـتين هما العصا ، ويده التي تصير بيضاء حينما يضمها الى جيبه ، ثم أمـره بالتوجه إلى رأس الفسـاد والانحـراف في المجتمع وهو الطـاغوت ، ذلك أنّ من خصـائص الرسـالات الإلهية عـبر التـاريخ أنها شـجاعة مقدامة ، لهـذا نجد موسى (ع) حينما يأمره الله بالتوجه إلى قلب الكفر يفعل ذلك ويترك العمل السري دون ان يخشى من فرعون ، ولمـاذا يهـاب أحدا وقد اتصل بالوحي وبخالق الكون كله؟!

وفي مقابل موسى يقف فرعـون وهو تركـيز لشـتّى أنواع الفساد ، إنسان ظـالم ، تحوطه الأهـواء والشـهوات والكبريـاء المزيفة ، وبـالطبع لا يمكن أن يتخلّى عن ذلك كله في لحظة واحـدة ، ويتجه الى عبـادة الله ، ويسـلم لقيادة رسـوله ، إلّا أنّ موسى يبقى ثابتا أمـام ذلك ، واثقا من «**إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**» وانهم مهما فعلـوا ، ومهما استمروا ، وتشبثوا بأسباب القوة فان عاقبتهم الخسران.

ان العـبر الـتي نسـتوحيها من هـذا الـدرس كثـيرة ، وتنفعنا في حياتنا ونحن نـدعوا الى الله ، ولكن أبرزها ان يعـرف الفـرد الرسـالي بـان النقطة المحورية لتحركه هو تقربه من الله ، فليدع وليعمل وليعارض ولكن انطلاقا من هذه النقطة وانتهاء إليها.

هل رأيت المحـارب ينطلق من خندقه ، ثم يعـود اليه ليغير سلاحه ، ويحكم خطته ، ثم يهجم مرة أخرى؟ كذلك المؤمن يواجه السلبيات والمشاكل والتحـديات ، فيضـعف سـلاحه ، وينفذ زاده ، وتتعب نفسه فيعـود الى خندقه ليجبر ضعفه ، ويحمل زاده ، ويستعيد نشـاطه ، ولكنه اين هو خنـدق المـؤمن؟ انه المحـراب يقف فيه للصـلاة ، والقـرآن يسـتوحي منه خطط العمل والتحـرك ، والصـوم يشد به أزره ، والتبتل يسـتفيد منه العـزم والإرادة والإصرار عبر اتصاله بالله.

انّا لو فصلنا الحركة الرسالية عن الروحيات (الصلاة ، والصوم ، تلاوة القرآن ، الايمان بالغيب و.. و) فانها تصـبح كأيّة حركة مادية أخرى لا قيمة لها ، كما الإنسان لو أخـذنا منه عقله ، أو الحيوان نسلب روحــه. انه يتحــول الى كتلة لحم تتعفن بمــرور الأيــام ، فالحركة الرســالية يجب ان تكـــون من الله ، والى الله ، وبالله ، وفي ســـبيل الله ، وليس من الله الى غيره ، أو من غيره تعالى اليه.

وحينما تتخلى أمّة عن الوحي تضـحى كبـني إسـرائيل كـــانوا حركة رســـالية ، فتحولـــوا الى حركة مادية بحتة أفرزت دويلة إسـرائيل (فلسـطين اليـوم) أما المسـلمون فقد تقـدموا لما اتصـلوا بالرسـالة ، ولما تركـوا الرسـالة سلب منهم كل شيء.

بينات من الآيات :

(**اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى**) :

[31] لقد زود ربنا ســـبحانه ، نبيه موسى بــــآيتين عظيمــتين هما أولا : العصا الــتي إذا ألقاها صــارت حيّة تســعى ، وإذا أخـــرج يـــده من جيبه ، فـــإذا هي بيضـــاء للناظرين :

(**وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَـانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ**)

لان موسى لا زال يحتفظ بخاصـيته البشـرية ، فهو لا يـزال وسـيبقى بشـرا ، يملك من العواطف والمشـاعر ما يملكه الآخـرون ، وهـذا دليل على أن الأنبيـاء لا يتحولـون بالوحي إلى آلهة ، وأنّ الوحي ليس من عند أنفسهم ، بل هو مسئولية الهية الى من يختاره الله.

وكثيرا ما يوحي الله الى أنبيائه ليقولوا هذه الحقيقة للناس صراحة ، كما قال سبحانه : «**قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ**». [1]

لذلك ولّى موسى فرارا ، ولم يلتفت خلفه لما رأى الجان وهو ـ كما يقول البعض ـ الحيّة الصغيرة المتحركة.

ولعل العصا صارت جانّا في تلك المرة ، أما في المرات التالية فقد صارت ثعبانا مبينا.

(**يا مُوسى أَقْبِلْ**)

أنت الذي يراد لك ان تحمل رسالة الله ، يجب ان تكون مقداما لا تخاف.

(**وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ**)

فهذا هو أول الطريق ، وأمامك صعوبات ومشاكل ، فسكن قلب موسى من هذا النداء الرباني ، وتشجع فأخذ الحية فاذا هي عصا كما كانت.

[32] وتواصل النداء الإلهي :

(**اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**)

فالبياض لم يكن بسبب مرض البرص مثلا ، وإنما كان آية إلهيّة لموسى.

(**وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ**)

---

(1) الكهف / (110).

والفسق هو الخــــــروج عن الخط الصـــــــحيح نحو الانحراف.

[33] هكــذا جــاءت الرســالة تــأمر موسى بمقاومة الانحراف ورأسه فرعون.

(**قــالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْســاً فَأَخــافُ أَنْ يَقْتُلُونِ**)

وربما كــان موسى يعــني ذلك القبطي الــذي وكــزه فقضى عليه.

[34] (**وَأَخِي هــارُونُ هُــوَ أَفْصَــحُ مِنِّي لِســاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ**)

ونستفيد من هاتين الآيتين التاليتين أمران :

1 ـ ان خــوف موسى (ع) لم يكن على نفسه ، فقد باعها برضــوان ربه والجنة ، ولم يعد من مــدين الا ليجاهد الطاغوت ، ولكن خوفه كان على الرسالة ، لأن قتله يعني عدم وصولها إلى بني إســرائيل ، كما تكذيبه يعــني فشــله في تبليغها أو لا أقل تأثيره عليهم بها.

2 انه عند ما طــرح هــذه المشــاكل أو العقبــات الــتي تعترضه ، لم يكن هدفه التــــــــبرير والتملص من تحمل المسؤولية ، وانما البحث عن الحل.

وهكذا ينبغي للإنسان الرسالي حينما يبعث الى مهمة ما ، في أيّ بلد ان يستعرض العقبات والمشــاكل بحثا عن الحل لا التبرير.

[35] (**قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ**)

اي سنقوّي كيانك بهارون.

(**وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما**)

قد يقــول البعض ان ذلك نــبي الله ، أما نحن فكيف يكون لنا هذا السلطان ونحن لا نملك عصا موسى (ع)؟!

بلى .. ولكن الله يقول :

(**بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ**)

ان الـذي يلـتزم بالرسـالة هو الـذي ينتصر ، وما دام المسلمون يتبعون آيـات الله فـإنهم الغـالبون ، كما انتصر موسى وهـارون ومن اتبعهما من بـني إسـرائيل ، عند ما التزموا برسالة موسى (ع).

[36] (**فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ**)

لا تقبل التشكيك ، ولا تشبه السحر.

(**قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَـرىً وَما سَـمِعْنا بِهـذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ**)

ان مشـكلة هـؤلاء هي النفس البشـرية الـتي تعـوّدت على عــادات معينة ، وتريد الاســتمرار عليها ، وبالتــالي تـرفض كل جديد لأنه جديد ، وفي مطلع سـورة الشـعراء نجد اشارة الى هذه الكلمة : «**وَما يَـأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْـرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ**». [2]

[37] ولكن امــام هــذا الاعــراض مــاذا كــان موقف موسى (ع)؟

---

(2) الشعراء / (5).

ان الأنبيـــاء والأوليـــاء ، وكل من يســـير في خطّهم يتوكلـون على الله ، ويرجعـون كل شـيء إليه ، فلا يقـول أحـــدهم أنا ، بل يقـــول : الله ، فـــتراه كلما عرضت له مشـكلة أو مصـيبة قـال : لا حـول ولا قـوة إلّا بالله العليّ العظيم. (**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ**).

انهم يجعلون الله شاهدا على الواقع.

(**وَقـالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جـاءَ بِالْهُـدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ**)

ما دمت أيها الرسالي تعلم بأنك تعمل في سـبيل الله ، وتعلم ان هـذا السـبيل ينتهي بك الى الجنة فما يضـيرك من حديث الآخرين ومن ضغوطهم.

(**إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**)

الفلاح هو الوصـــول الى الهـــدف ، والرســـالة هي الطريق اليه ، والظـــالم أو الفاسق الـــذي انحـــرف عن الرسالة لا يفلح في دنياه لأنه لا يملك الهـدى لا في دنيـاه ولا في آخرته ، لأن عاقبته ستكون النار.

ان الــذي يصــلح التربة ، ويــزرع الأرض ـــ وهــذا هو الســبيل الســليم ـــ يحصد القمح في نهاية الموسم ، أما الـذي يعيش على الاحتيـال والسـرقة ـ وهـذا هو السـبيل الخطأ ـ فانه لا يصل الى هدفه ، فقد لا يقدر على السرقة ، وإذا سـرق قد لا يسـتطيع ان يـبيع ما سـرقه ، وإذا باعه لن يتوفق بأمواله ، والنتيجة انه بســـبب من الأســـباب لا يفلح في هذه الحياة.

ان حقـوق الآخـرين حقـائق واقعية ، لا يمكن تجاوزها دون جزاء ، أو إزالتها من

خريطة الحيــاة بمجــرد الادعــاء بأنها غــير موجــودة ، فلا يستطيع الجائع ان ينفي الجوع عن نفسه بمجرد إنكاره له ، والظالم لا يستطيع ان ينكر حق الفقير في الشـبع ، فهو حق ثابت أجريت سنن الحياة على أساسه ، فعقل الفقـير وحاجته وتطلعاته ، مضافا الى تركيبة الحيـاة ، وسـنن الله فيها سوف تجعل من ظلمه مادة لإدانة الظالم وهلاكه.

وَقـــالَ فِرْعَـــوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلـــهٍ غَيْـرِي فَأَوْقِـدْ لِي يا هامـانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَـلْ لِي صَـرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِـعُ إِلى إِلـهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَـــقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُـــونَ (39) فَأَخَـــذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْـفَ كـانَ عاقِبَـةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْنـــاهُمْ أَئِمَّةً يَـــدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَـرُونَ (41) وَأَتْبَعْنـاهُمْ فِي هـذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)

---

38 [صرحا] : الصرح هو القصر الواسع.
40 [نبذناهم] : النبذ هو الإلقاء والطرح.
[اليم] : البحر وقد تطلق على النهر الواسع.
42 [المقبوحين] : القبح الابعاد وقبّحه الله أي أبعده.

إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

هدى من الآيات :

انتهت آيـات الـدرس السـابق بالحـديث عن الظلم ، وأنه يسبب الخسران لصاحبه ، وفي هذه الآيات نجد مثـالا واقعيّا على هـذا الفكـرة القرآنية الـتي تلخص سـنة إلهية في الحياة ، مستمدة من قصة فرعـون ، حيث أغرقه الله وجنوده في اليمّ.

ربما يستطيع الإنسان أن يغيّر سنّة الحيـاة لفـترة من الزمن ـ بما أعطاه الـرب من حرية في ذلك ـ ولكن ليس للأبد ، لأن طاقاته محـــدودة ، بينما الحيـــاة مســـتمرة ، وسننها تجريها إرادة الله المطلقة. إن فرعون حكم الناس ، وسيطر على البلاد والعباد ، وتكـبر حـتى بلغ الأمر به أن ادّعى الألوهية ، وأعتقد بأنه قـــــادر على مقاومة الحق ، وأنّ الحياة لا يحكمها قـانون ، لكن الواقع كـان خلاف ذلك ، فقد اصــطدم بــالواقع ، إذ تــبين له ان فيها ســننا ، وان هناك من يجري هذه السنن.

بينات من الآيات :

(**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى**) :

[38] يبـــــدو ان موسى (ع) صـــــعق الملأ بكلامه ، فـاهتزت قناعـاتهم بفرعـون ، واضـطره الى الـدفاع عن خرافاته بأساليب جديدة ، حيث قال :

أولا : انه يريد مصـلحة الملأ ، وانه لم يجد إلها غــيره يحققها ، وتظـــاهر ثانيا : بأنه ســوف يبحث عن ذلك الإله الذي يدعو اليه موسى.

(**وَقـــالَ فِرْعَـــوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي**)

فما دام هو لا يعلم من اله غـــــيره ، فـــــالآخرين لا يعلمون أيضا ، بل يجب أن لا يعلموا ، وهو يقـول : «لكم» لإيهـــامهم أنّه ينفعهم ، وهو يخـــاطب الملأ ، لأنه كـــان قد سلطهم على الناس ، وأعطاهم امتيازات كثيرة.

(**فَأَوْقِــدْ لِي يا هامــانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَــلْ لِي صَرْحاً**)

قـــال : «لي» وليس للشـــعب ، أو من أجل القيم ، والصرح هو العرش أو القصر المرتفع ، الـذي كـان قـديما يبنى من الآجر ، وهذا بدوره يصـنع من الطين بعد تعريضه للنار ، وما هو هدفه من بناء هذا الصرح؟

(**لَعَلِّي أَطَّلِـــعُ إِلى إِلـــهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ**)

الهدف الأول : إظهار القوة ، فلكما شعرت السلطات الفاسدة ، عبر التاريخ ، بأنها ضعيفة ، وانها سـوف تنهـار ، سعت للبحث عن مظهر من مظاهر القوة ، حتى ولو كان هذا المظهر هو بناء العمارات أو الجسـور ، الـتي تشـملها عمليات ما يسمى

بالتحديث.

ولا ريب ان قسـما من النـاس السـذج يعجبـون بمثل هـذه الأعمـال ، فيتصـورون الطـاغوت بقوتها وضـخامتها ، وفرعون عند ما يبني هذا الصرح أو تلك الأهرامـات فلكي يغطي بها الاهـتزاز الـذي أصـاب كيانه الجـاهلي بسـبب رسالة موسى (ع).

واليـــوم نجد كثـــيرا من الانظمة الفاســـدة تكـــدس الأسلحة ، وتعقد الصفقات الواحـدة بعد الاخـرى لتتظـاهر أمـام شـعبها بـالقوة ، ولعل الآية تـوحي بنظرية في علم الاجتمـــاع تقـــول : ان التضــخم المـــادي ينبأ بخلل داخلي يعاني منه المجتمع أو النظـام السـائد فيه ، وكما المتكـبر يسـتعلي عند ما يحس بعقـدة الضـعة في نفسه ، كـذلك المجتمع المغرور داخليا يهتم بمظاهر الأبهّة كبناء القصـور الضـخمة ، أو المعابد الكبـيرة ، أو ما أشـبه لتـأخير حالة الانهيار.

الهدف الثاني : الهـاء النـاس ، وسـدّ فـراغهم بقضـايا هامشيّة ، فـترى الحكومـات عند ما تشـعر بالفشل ، وانها أقل من طموحـــات الشـــعب تشـــجع لعب الكـــرة ، وفي الارجنـــتين حينما حـــدث الانقلاب العســـكري ، وخـــرجت النـاس الى الشـوارع مطالبة بـالحكم المـدني اسـتدعت الحكومة العسـكرية الـدورة العالمية لكـرة القـدم ، ومن خطط ال (سـي. آي. أ) الـتي عملت الانقلاب ، ان جعلت الكـأس للارجنـتين. وكـأنهم يريـدون القـول للشـعب : إذا فشلنا في بنـاء دولة ديمقراطية حـرة ، واقتصـاد وطـني ، فقد جلبنا لكم كأس العالم.

ان الشعب الذي يكون أكبر طموحاته اللعب بـالكرة ، وأفضل رموزه لاعبيها ، لا يفكر في الثورة على طواغيته.

أئمة النار :

[39] والطاغوت حينما ينبي القصور ، أو يجمع المـال والسلاح ، يتصور أنه صار

عظيما ، وهـذا الشـعور هو الـذي يصـنع بينه وبين الحقيقة حجابا.

(**وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ**)

لم يكن العجز في رسـالة موسى ـ حاشا لله ـ فهي آيـات بينـات ، ولكنهم أعرضـوا عنها ، وزعمـوا أنهم أولـوا كبرياء ، ولم يكونوا على حقّ ، وسبب الاسـتكبار هو عـدم اعتقادهم بالبعث.

(**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ**)

[40] وكـان جـزاء هـذا الاسـتكبار هو الاهانة ، لكي يعرفوا أنفسهم على حقيقتها.

(**فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِ**)

وهذه العاقبة ، حذّر منها نبي الله موسى (ع) من أول يوم ، وجاء عليها بالبراهين والآيات ، وكان ينبغي لفرعـون وجنـوده ان يعقلوها ، وهـذا هو الهـدف السـامي من نعمة العقل : ان يتعرف به الإنسـان على سـنن الله ، وعـواقب الأمـور ، ويعمل على هـدى الـوحي والعقل ، لكن هـؤلاء استكبروا على الحقيقة.

(**فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**)

لقد أكد نبي الله (ع) (**إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**) وجـاء القرآن بالواقع العملي لهذه السـنة الإلهية من خلال قصّـة فرعـون وجنـوده ، حـتى أن السـياق القـرآني وصـفهم بالاسـتكبار وليس بـالظلم ، إلا انه قـال : «**فَانْظُرْ كَيْـفَ كـانَ عاقِبَـةُ الظَّالِمِينَ**» حـتى تجد أنت أيها القـارئ الترابط بين الآيتين ، وان هذه شاهد على تلك.

وليست هذه الحقيقة بعيدة عن واقعنا ، فالله يقـول : «فانظر» لكي لا تتصور أنت أيها الذي تقرأ القـرآن ، بأنك بعيد عن هذه السنن ، أو أنها تختص بذلك الزمان ، وهــذه من ممـــيزات الأســـلوب القـــرآني في التربيـــة. إذ يشد الإنسان اليه ، ويحمّله مسئولية النظر ، والتفكر ، والبحث المنهجيّ.

[41] ويؤكد القرآن الحقيقة الآنفة إذ يقول :

(**وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَـوْمَ الْقِيامَـةِ لا يُنْصَرُونَ**)

المسألة اذن ليست مسـألة شـخص فرعـون ، بل هو خط في الحيـاة ، وفي آية قرآنية أخــرى يقــول تعــالى : (**وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَـبَرُوا وَكـانُوا بِآياتِنا يُوقِنُـونَ**) [1] وذلك حـتى نعـرف بـأن في الحيـاة خطين هما : خط الحق المتمثل في رسالات الأنبياء وأئمة الهـــــــدى ، وخط الباطل المتمثل في الثقافة الجاهلية والطـواغيت ، وانا الـذي اقـرأ القـرآن أو الـذي أعيش في هــذا العصر يمكنــني أن أكــون من الظــالمين أو معهم ، فيكون مصيري كمصير فرعون وجنده ، ويمكنني أن أكون مع المؤمنين ومنهم ، فتكون لي عاقبة الدار.

وهذه السلطات الفاسـدة اليـوم هي الامتـداد الفعلي لخط فرعــون ، بينما تمثل الحركـات الرسـالية والعلمـاء الربانيون الامتداد المبارك لخط الأنبياء (ع).

[42] والطغـــاة ليس ينـــالون جـــزاءهم في الآخـــرة وحسب ، بل يتحولـــون الى لعنة على ألسن النـــاس في الدنيا ، ويبعدون عن رحمة الله.

(**وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ**)

---

(1) الأنبياء / (73).

انهم يحشـرون بوجـوه قبيحة ، لأن الجـزاء من جنس العمل ، فهذه الوجوه طالما دأبـوا على تلميعها ، وتجميلها عبر وسائل الاعلام في الـدنيا ، فجـزاهم الله بتقبيحها في الآخرة.

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْـدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُـرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَـرْبِيِّ إِذْ قَضَـيْنا إِلى مُوسَـى الْأَمْـرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّـاهِدِينَ (44) وَلكِنَّا أَنْشَـأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَما كُنْتَ بِجـانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَلكِنْ رَحْمَـةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْـذِرَ قَوْمـاً ما أَتـاهُمْ مِنْ نَـذِيرٍ مِنْ قَبْلِـكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) وَلَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِـيبَةٌ بِما قَـدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا

---

44 [بجانب الغربي] : أي في جانب الجبل الغربي ـ (جبل طـور) الواقع في الغرب.

45 [ثاويا] : مقيما.

رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ (47) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ
لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَوَلَمْ يَكْفُـرُوا بِما أُوتِيَ
مُوسى مِنْ قَبْـلُ قـالُوا سِـحْرانِ تَظـاهَرا وَقـالُوا إِنَّا
بِكُلٍّ كافِرُونَ (48) قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُـوَ
أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (49)

بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً

هدى من الآيات :

تؤكد هــذه الآيــات على الجــانب الغيــبي للرســالات الإلهية ، فهي ليست قمة في تكامل بشـــري تـــدريجي طبيعي كالشهادة التي يحصـلها الطـالب عند ما ينتهي من الجامعة مثلا ، انما هي قضاء إلهي مفاجئ ، يأتي لتصـحيح مسيرة البشر بصورة غيبية.

والرســـالة كما في الآية (43) أداة لرؤية الحقـــائق وتوضيحها ، ومنهج لمعرفة العلوم ، وهي في نفس الوقت علم ومعرفة وهدى ، كما أن الرسـالة تـأتي لإتمـام الحجّة على الناس لكي لا يقولوا غدا : لو لا أرسلت إلينا رسـولا! فقد اقتضت حكمة الله أن يكون الإنسان حـرّا في حياته ، ويمنح فرصة الهداية من قبل الله ، ولم يشأ ربنا العزيز إكراه الناس على الهدى بالرسل جبرا ، فالهداية ذاتها هي مســئوليتهم ، كالــذي يعطيك الكتــاب ولا يمنحك العلم ، وانما يوفر لك فرصته ، وهكذا الرسالة بالنسبة

للناس ، ويوم القيامة تكون الحجة البالغة لله علينا ، ثم ان السياق يعتبر صلة بين عبر الأمم الغابرة ، وسنن الرسل السابقين ، وبين رسالة النبي محمد (ص).

بينات من الآيات :

كتاب موسى :

[43] (**وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى**)

في هذا الشطر يلخص القرآن الدورة الحضارية ، فهي تبدأ برسالة إلهية وشخص أو جيل رساليّ ، ثم تنتهي بثقافة جاهلية ، وجيل منحرف ينذره الرب ، فإن لم ينتفع بالنّذر أهلكه ، ولا ريب ان هذه الدورة ليست حتميّة ، فلو قدّر ان تمسك الناس برسالات الله لما أهلكهم الله ، كما قدر لقوم يونس ذلك.

ثم يقول ربنا عن الكتاب الذي أنزل مع موسى :

(**بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً**)

في الوقت الذي تكون رسالات الله منهج للرؤية (البصيرة) فانها بذاتها علم ومعرفة توصل البشر الى الحقائق ، فمن جهة تعطي الإنسان بصيرة في الحياة تجاه الأشياء والاحداث ، لأنها تحتوي على سنن الله في الحياة ، وتحمل في طياتها مقاييس ومعايير تحدد له الرؤية النظرية السليمة ، ومن جهة أخرى تحتوي على العلم والهدى اللذين يرسمان له الموقف العملي الحقّ لو اتبعها.

وقد يكون الفرق بين العلم والهدى : ان العلم هو مجرد اتصال الإنسان بالحقائق ، اما الهدى فهو تفاعله معها ، وانتفاعه منها ، وجاء في الدعاء :

«**وأعوذ بك من علم لا ينفع**» [1]

يقصد به العلم الذي لا يعمل به.

وعند ما لا يعمل الإنسـان بـالعلم فإنه يضـلّ ويجهل ، بل وينسى العلم نفسه ، أما حين يعمل به فسـوف تكـون النتيجة هي السـعادة واللطف الإلهي (الرحمـة) ماديّا ومعنويا.

والسؤال ما هو هدف هذه الرسالة التي تشتمل على البصائر ، والهدى ، والرحمة؟

(**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)

وماذا يتذكر الناس؟

يتذكرون ميثـاقهم مع الله ، فيعـودون الى فطـرتهم ، لأن من خصـائص الرسـالة انها ترفع الحجب عن قلب البشر ، ونسـتوحي من هـذه الآية : أن العامل الأخـير في الهدى حركة الإنسـان نفسه ، فالبصـائر والهـدى والرحمة من عند الله ، أما التذكر فهو مسئولية الإنسان نفسه.

[44] ثم يـذكرنا السـياق بـان النـبي لم يكن حاضـرا الجهة الغربية التي كـان النـبي موسى (ع) يسـير إليها من مدين الى مصر ، حين استقبل لأول مـرّة الـوحي الإلهي ، ولم يكن هنـاك من الشـاهدين ليصف تلك الحـوادث هـذا الوصف الدقيق الرائع ، ولكن الله سـبحانه أوحى بـالقرآن يقص على بني إسرائيل أكـثر الـذي كـانوا فيه يختلفـون ، وهذا دليل صدق هذه الرسالة.

---

(1) مفاتيح الجنان / تعقيب صلاة العصر.

(**وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَـرْبِيِّ إِذْ قَضَـيْنا إِلى مُوسَـى الْأَمْرَ**)

كلمتـان في القـرآن إحـداهما تـبين الوضع الطـبيعي وهي القدر ، والأخرى تـبين الوضع الغيـبي وهي القضـاء ، والفرق أن القـدر هو السـنن الـتي أجراها الله تعـالى في الخلق ، بلا تبـــديل ولا تحويل ، أما القضــــاء فهو الأوامر الغيبية التي تصدر من عنـده الى الخليقة فتتجـاوز الأقـدار جميعا ، فربما يكون قدر الإنسان ان يموت اليوم ، فيـدفع صـدقة لفقـير ، أو يـدعو الله ، أو يصل رحمه ، أو .. أو .. فيقضي الله ان يتأخر أجله ثلاثين سنة ، وقد يكـون قـدره العيش ثلاثين سـنة ، فيظلم من لا يجد ناصـرا غـير الله ، فيقضي الله بوفاته اليـــوم ، والرّســـالة الإلهية نـــوع من القضاء. إذ ليست ثمة سنّة إلهية لو عمل بها البشر لصــار رسـولا ، فتحـول موسى بن عمـران (ع) الى رسـول ، أو محمد بن عبد الله (ص) الى رســول ما جــاء بدراسة في الجامعة ، أو قراءة في الكتب ، انما الرسالة ـ وكما تقـدم في الهدى ـ هي قضاء إلهي ، يحصل بموجبه الاتّصـال بين الخلق والخـالق ، عـبر رسـالة ورسـول يجعله الله خليفته في الأرض جعلا ، ولا ينفي هذا القول أن الله يختار رسـله وأنبياءه على أساس صفات ومميزات فيهم.

وفي لحظة القضاء قد يتحقق ما لا يمكن تحقيقه عبر قرون ، فالرسول (ص) دخل الى غار حـراء أميّا لا يعـرف القـراءة ولا الكتابة ، ولكنه خـرج منه يحمل رسـالة تقصر البشر عن بلوغ ذراها أبدا.

(**وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ**)

ولعل هذه الآية تشير الى ان الحقائق التي رويت في هــذه القصة لم تكن واضــحة عند أهل الكتــاب أيضا ، أو كانت مثار جدل عظيم سواء في تفاصيل ما حـدث أو في تفسيرها.

[45] ثم تـبيّن الآية ما يبـدو أنه إشـارة الى الـدورات الحضارية ، حيث أن من عادة البشر نسـيان رسـالات ربه بعد تطـــاول القـــرون ، مما يجعله محتاجا إلى بعث جديد برسالة الهية.

(**وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ**)

لقد بقيت البشـرية تلفها الظلمـات قرونا بعد قـرون قبل ميلاد الرسالة ، حيث بدأت الهوّة بين النـاس ورسـالة موسى (ع) تتّسع شيئا فشيئا ، حتى نبذوه وراء ظهورهم ، وعشـعش الجهل في أوسـاطهم ، لـذا كـانوا بحاجة الى رسالة جديدة ، تبعث فيهم الوعي وتوقظ الضمير.

(**وَما كُنْتَ ثاوِيـاً فِي أَهْـلِ مَـدْيَنَ تَتْلُـوا عَلَيْهِمْ آياتِنا**)

إلّا أن عدم وجودك لا يعني أنهم لم تصل إليهم الحجة ، فالحياة قائمة على هذه السنّة الإلهية.

(**وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ**)

لقد أرسـلنا إليهم شـعيبا ، كما أرسـلنا رسـولا الى العرب.

[46] (**وَما كُنْتَ بِجـانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ**)

لعل هذه الآية تؤكد على وحـدة الرّسـالات الإلهية من خلال وحدة أهدافها ، وبالتالي فإنّ الإيمان برسـالة موسى يسـتلزم الإيمـان برسـالة الإسـلام ، وإذ يربط السـياق القرآني بين هاتين الرسالتين فذلك لأسباب منها :

1 ـ أنهما تشكلان خطّا واحـدا في الرسـالات الاخـيرة للحياة ، ورسالة

عيسى (ع) إنّما كانت امتدادا لرسالة موسى ، وكان هدفه تصـحيح مسـيرة النـاس بعـده ، وليست هي جديـدة بحد ذاتها.

2 ـ لتشـابه تفاصـيل الرسـالتين ، وان تلك الرسـالة كوّنت أمة في حياة نبيها ، كما صنعت رسالة الإسـلام أمة أيضا.

وللرسالة هدفان أساسيان :

أحدهما هداية الناس ، عن طريق التذكرة قال تعـالى :

(**لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَـذِيرٍ مِنْ قَبْلِـكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)

فكما بعث الله موسى رحمة ، كـــذلك يبعث محمد (ص) رحمة ، وفي الآية حجة على أولئك الـــذين آمنـــوا برسـالات الله السـابقة ، وكفــروا بالرسـالة الخاتمة مع وحـدة الملاك ، فكما ان تلك جـاءت رحمة من الله كـذلك هذه ، فلما ذا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؟!

[47] أما الهدف الآخر فهو اقامة الحجة على الناس.

(**وَلَـوْ لا أَنْ تُصِـيبَهُمْ مُصِـيبَةٌ بِما قَـدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُـولاً فَنَتَّبِـعَ آياتِـكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**)

وفي الآية اشـــارة الى ان النـــاس يعلمـــون بأهمية الرســـالة الإلهية حينما تتيه بهم المـــذاهب ، ويجر عليهم ضلالهم الويلات والإرهاق.

ولعل السـياق يشـير هنا إلى سـنّة إلهية هي : ان الله يصـيب هـؤلاء الجهلة بمصـائب دنيوية يحسـون بها .. من نقص في الأنفس والثمرات ، وحروب داخلية تطبخهم ،

فيجـأرون الى الله طـالبين الخلاص ، فلما يبعث الله فيهم الرســول ليخلصــهم إذا هم به يكفــرون ، ولعلهم كــانوا يريـدون الخلاص بلا عمل يقومـون به ، أو تحمل لصـعوبة الجهاد من أجله ، ويذكرنا السـياق ــ على هـذا التفسـير ــ بقصة بني إسرائيل حين طلبوا من نبيهم ملكا ، فلما اختار الله لهم طـــالوت ملكا ، كفــــروا به ، لأنه لم يكن على هداهم ، ولم يؤت سعة من المال.

[48] ثم يبين القرآن كيف أنهم يكفرون بـالحق ، لأنه يريدونه وفق أهوائهم ومقترحاتهم.

(**فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَـقُّ مِنْ عِنْـدِنا قـالُوا لَـوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى**)

من المعاجز كالثعبان ، واليد البيضـاء ، والسـبب أنهم لم يكونــوا ينظــرون إلي جــوهر الرّســالة وإلّا لوجــدوها كرسالة موسى (ع) في أهـدافها وخطّها العـام ، بل إنّ ما جــاء به الرســول (ص) هو أعظم من عصا موســى. أو ليست عصا موسى أية الهية؟ فكذا القرآن كله آيات.

ومع ذلك يؤكد القـرآن ان المشـكلة ليست في عـدم وضوح الآيات القرآنية بل في نفسياتهم السلبية ، المعاندة للحق ، والمصرة على الكفر. لهذا يتساءل القرآن :

(**أَوَلَمْ يَكْفُـرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْـلُ قـالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ**)

ولا ريب ان الــذين يخــاطبهم القــرآن في هــذه الآية ليســوا هم الــذين كــانوا مع موسى ثم كفــروا به ، ولكن السياق يقول أنهم كفروا بموسى (ع) وربما ذلك ليبين لنا وحدة المنهج والتفكير الذي يوصل الى نفس النتيجة.

[49] (**قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْـدِ اللـهِ هُـوَ أَهْـدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ**)

من ممــيزات منطق الرسل انه موضــوعي وعقلاني للغاية ، فالرســـول على عظمته ، وقد هـــداه الله الى الصراط المسـتقيم تـراه لا يعاند ، ولا يصـرّ مسـتكبرا في مقابل الدعوات الأخرى ، إنما يقول : إذا كان لديكم كتاب هو أهـدى من رسـالتي فـاني أتبّعه ، وهو يعلم يقينا ان لا كتاب أهدى من كتاب الله ، الذي أنزل على موسى والذي أنزل عليه مكمّلا ومهيمنا.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَـكَ فَـاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُـونَ أَهْـواءَهُمْ
وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ
لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ (50) وَلَقَـدْ وَصَّـلْنا لَهُمُ
الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَـذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْنـاهُمُ الْكِتـابَ
مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا
آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْـلِمِينَ (
53) أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَيَـدْرَؤُنَ
بِالْحَسَنَةِ السَّـيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنـاهُمْ يُنْفِقُـونَ (54) وَإِذا
سَمِعُوا اللَّغْـوَ أَعْرَضُـوا عَنْـهُ وَقـالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ
أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (55) إِنَّكَ لا
تَهْـدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللـهَ يَهْـدِي مَنْ يَشـاءُ وَهُـوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

---

51 [وصلنا] : أصل التوصل من وصل الحبال بعضها ببعض.
54 [يدرءون] : الدرء هو الدفع ويدرءون أي يدفعون.
55 [اللغو] : هو السفه من الناس والقبيح من القول.

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ

هدى من الآيات :

كيف نميز الحق عن الباطل ، والصواب عن الخطأ؟

هناك عدة مقاييس تمكننا من ذلك ، ومن بينها :

أ ـ مقياس النتـائج : فالمقدمة الصـحيحة لا تنتهي الى نتيجة خاطئة ، كما ان المقدمة الخاطئة لا تنتهي الى نتيجة صـحيحة ، فالعمل الصـالح كمقدمة يـؤدي للحيـاة الفاضلة كنتيجة ، والعكس تماما بالنسبة للعمل السيء.

ب ـــ مقيـاس الإجمـاع : المبـادئ الـتي تجمع عليها عقول الناس المجردة عن العوامل الخارجية لا تكون خطأ كالحرية ، والعدالة ، والصدق ، وغـير ذلك من القيم الـتي يجب البحث عنها وتطبيقها ، فهي إذن جيـدة بالإجمـاع ، بينما تحترز عقـول البشر عن الرذيلة ، والظلم ، والكـذب في كل زمان ومكان.

ج ــ مقيـاس الوجـدان : ان اي فكـرة تثبت في ذهن الإنســان انما هي نتيجة لأحد شــيئين : فاما تكــون نتيجة للعقل والوجدان ، أو تكون نتيجة للجهل والشـهوة ، وهـذا أهم وأسهل من كل المقاييس الأخرى.

والقـرآن في هـذه الآيـات يعـالج هـذه الحقيقة ، ففي البــدء يقــول الله : انكم أيها النــاس إذا لم تتبعــوا هــذه الرسالة ، فابحثوا عما هو أفضل منها واتبعـوه ، ولكنهم لو كـانوا يريــدون الهداية لا تبعــوا الرســالة لأنهم لا يجــدون أفضل منها ، وإذ يتركونها فلكي يتبعــوا الهـوى باعتبـارهم يريدون التملص من مسئولية التعهد والالتزام بالحق.

فالإنسان اذن أما يتبع العقل أو يتبع الهوى ولا ثـالث ، ولكن ما هو العقل؟ وما هو الهوى؟

العقل هو النور الـذي يقر بنا الى الحقـائق الخارجية ، ويجعلها هي المقياس ، أما الهوى فهو القوة الداخلية التي تجرنا الى النفس ، ومصـدره حب الـذات ، فالعقل يوجهنا للناس ، بينما الهوى يوجهنا لذواتنا.

وكثــيرا ما يتمــيز الحق عن الباطل بوضــوح أمــام الإنســـان ، ولكنها قد يختلطـــان فلا يتمـــيزان في بعض الأحيان ، لذلك ورد في الدعاء :

«اللهم أرني الحـقّ حقّا فأتبعه ، والباطل بـاطلا فاجتنبه ، ولا تجعله عليّ متشابها فأتبع هواي»

ومن الناس من يهتدي للحق في أعقد الأمــور بلحظة تفكير ، بينما نجد آخرين على العكس منهم ، والسـبب هو أن الفريق الأول يســـتفيد من عقله لـــذلك ينمو ، بينما الفريق الثاني لا يسـتفيد منه فيخبو ، وهـذه سـنة الله في الحياة ، وقد قال أمير المؤمنين (ع):

«لا تجعلـــوا علمكم جهلا ، ويقينكم شـــكّا ، إذا علمتم فاعملوا ، وإذا تيقنتم فأقدموا» [1]

ثم يشير القرآن الى حقيقة هامة هي : ان قسـما من النـاس كـانوا مسـلمين قبل بـزوغ فجر الإسـلام ، وهنـاك جماعة يسـمّون بـالحنفيين ، لأنهم تركـوا عبـادة الأصـنام لعبـادة الله ، مثل أبي ذر الغفـاري (رض) وجعفر الطيـار الذي قال للرسـول : «اربع خصـال لم أفعلها في الجاهلية ، ما سجدت لصنم قط ، ولا كذبت ، ولا زنيت ، ولا شربت الخمـر» والسـبب ان الايمـان والفكر حالتـان في نفس البشر ، فالـذي اعتـاد على الانقيـاد للحق والتسـليم له لا يجد صعوبة للايمـان بالرسـالة ، والعمل بها ، بينما يصـعب ذلك على الآخر الذي اعتاد الانهيار أمام الشهوات والأهواء ، لذلك نجد فريقا من الناس بقي منافقا حتى بعد البعثة.

وفي نهاية الـدرس يؤكّد القـرآن أنّ على الإنسـان الّا ينتظر الهداية تأتيه رغما على أنفه ، بل يجب عليه ان يتحمل المسـؤولية بنفسه ، وليس الرسـول سـوى مبلغ للرسالة.

بينات من الآيات :

[50] (**فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَـاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُـونَ أَهْواءَهُمْ**)

ذلك ان الرسالة تلتقي مع الجانب الخيّر في الإنسـان وهو عقله ، وبالتالي يكون الباعث على مخالفتها هو اتبـاع الهوى.

(**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ**)

الإنسان قاصر في ذاته ، فلا بد ان يعـالج هـذا النقص باتباع هدى ربه ، واسع

(1) نهج البلاغة / ح (274) / ص (524) / صبحي الصالح.

العلم والقدرة ، ولو لم يفعل ذلك فلن يـزداد الا بعـدا عن الحقيقة.

(**إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)

الهـدى سـنة عظيمة لا يمنحها الله للظـالمين الـذين يعتـدون على حقـوق النـاس وحقـوق الله ، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور ، والظلم يكـرّس حب الـذات ، واتبــاع الهــوى في القلب ، مما يشــكل حجابا كثيفا عن الحقائق.

[51] ومشكلة الـذين لم يسـتجيبوا للرسـالة ، ليست في غموضــها أو قصــور شــواهدها ، بل لأنهم لا يريــدون الهداية ولا التـذكرة ، والـدليل انهم كـانوا يرفضـون رسل الله ورسالاته.

(**وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ**)

اي جعلنا أســـباب الهداية متصـــلة لا تنقطع ، وفي الروايـات ان الله بعث مائة واربع وعشـرون ألف نبيا غـير الأوصياء والدعاة الى الله من أتباعهم.

(**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)

ولم تكن الرسالات الإلهية شيئا غريبا بالنسـبة للنفس البشرية ، لأنها تتلاقى مع فطرة الإنسـان وعقله ، اللـذين أودع الله فيهما الحقـــائق ، وما الرســـالة في غالبها الا وسيلة لاستثارة الذاكرة.

[52] وأولئك الـذين آمنـوا بـالكتب ، ودربـوا أنفسـهم على الانقياد للحق لا يجـدون حرجا في التسـليم للرسـالة الجديدة.

(**الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ**)

يعني بالقرآن الحكيم.

(**يُؤْمِنُونَ**)

وذلك لأنهم يجـدون هـذا الكتـاب في جـوهره مطابقا للرســـالة الســـابقة ، وموافقا للعقل والفطـــرة ، لان المؤمـنين بالرسـالات السـابقة كـانوا قد روّضـوا أنفسـهم بــالحق. وقــاوموا جهل قلــوبهم وأهــوائهم وشــهواتهم ، وسلّموا ـ بالتالي ـ لربهم ، فـإنهم كـانوا مسـتعدين نفسـيا للايمان بالحق.

[53] (**وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قـالُوا آمَنَّا بِـهِ إِنَّهُ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ**)

[54] ويعطي الله هؤلاء أجرهم مضاعفا :

(**أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ**)

مرة لايمانهم بهذا الكتاب الذي أكمل الله به رسـالاته ، ومـرة لأنهم آمنـوا بالكتـاب الـذي أنـزل إليهم ، وصـبروا عليه فلم يحرّفــوه كما حرفه علمــاء الســوء منهم ، ولم يخضعوا لضغط السلطة والثروة.

(**بِما صَبَرُوا**)

على الأذى الــذي لا قــوة بايمــانهم بالكتــاب ، ولعل أعظم الثواب كان لهم بسبب صبرهم أيـام الفـترة ، حيث ســيطر الطغــاة ، وانحــرف النــاس ، ولم يبق الا بقية مستضعفة من المؤمنين أمروا بالصـبر ، والعمل بالتقـاة ، وردّ أذى الكفار والمنحرفين بسعة الصدر ، وحسن الخلق ، والعطــاء ، وعــدم الخــوض في الجــدل العقيم مع المنحرفين.

وعلى هذا يكون معنى الصبر ما يبيّنه السياق لا حقا ، وتكون هذه الآيات بيانا لمنهاج المؤمنين في عصر التقية ، ويتخلص في : الصبر ، والعفو ، والإنفـاق ، والاعـراض عن لغو الجاهلين.

(**وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**)

لقد تقـدم أن الظـالم يتبع هـواه على حسـاب عقله ، وبالتالي تتضخم ذاته على حسـاب الآخـرين ، أما المـؤمن فعكس ذلك : يكبح جماح نفسه وهواه ، فينمو عقله ، فهو يفكر في الآخرين ، فاذا أخطئـوا عليه درأهم بالحسـنات ، وإذا احتاجوا سد حاجتهم.

(**وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ**)

[55] ثم أنهم طوّعـوا أنفسـهم ، وروّضـوا أهـواءهم ، وحـددوا حب ذاتهم عن طريق الإعـراض عن اللغو ، وهـذا ما ينمي العقل ، لأنه يخالف الهوى.

(**وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ**)

لان طموحـــاتهم وأهـــدافهم أســـمى من الأهـــواء والشـهوات ، لـذلك لم تسـتفزهم إثـارات الجـاهلين ، ولم يبوحــوا بأســرارهم ، ولم يخوضــوا في الجــدل الــذي لم يـؤمروا به ، بل إذا طـالبهم الجـاهلون بالحجة ــ جـدلا ــ أعرضوا عنهم.

(**وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ**)

هــدف هــؤلاء ابتغــاء رضــوان الله ، وليس العلو في الأرض ، والتظاهر ، والفخر ، والغرور بما لديهم ، لـذلك لا يستفزّهم الجـاهلون ، ولا يثـيرهم سـبّهم ، وطلبهم للـبراز في ميدان الجدل.

(**سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ**)

هكذا يقاوم المؤمنون محـاولات التحريف بالاسـتقامة أمام الضغوط ، وعدم التأثر بالمحيط الاجتماعي الفاسد ، والى هذا دعا الإسلام أبناءه.

قال الامام علي (ع):

«**كن في الناس ولا تكن معهم**»

[56] وفي آخر آية يحدد الله مسئولية حامل الرسالة وهي التبليغ ، اما ان يجـــبر النـــاس على الهداية ، فليس ذلك من شـــأنه ، لان الهداية لا تتـــأتى لأحد الا بســـعيه وتوفيق الله له.

(**إِنَّكَ لا تَهْـدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللــهَ يَهْـدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**)

وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (58) وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُها ظالِمُونَ (59) وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها وَما عِنْدَ

---

57 [نتخطف] : التخطف أخذ الشيء على وجه الاستلاب.
[يجبى] : أي يؤتى اليه ويجلب.
58 [بطرت] : هو الطغيان عند النعمة.
59 [أمها] : أم القرى مكة وقيل المقصود بها المدن الكبرى.

اللــهِ خَيْــرٌ وَأَبْقى أَفَلا تَعْقِلُــونَ (60) أَفَمَنْ وَعَــدْناهُ
وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا
ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)

وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها

هدى من الآيات :

للإنسان موقفان متناقضان تجاه النعمة ، فإما الشكر وإما الكفر.

الشكر ان تكـون النعمة سـبيلا للوصـول الى هـدفها ، فكل شــيء في الحيــاة هو وســيلة لهــدف أســمى منه ، فالنشاط وسيلة للسعي ، والسعي وسيلة لعمارة الأرض ، وعمـارة الأرض وسـيلة لرخـاء الإنسـان وراحته ، والرخـاء والراحة وسيلة للكمال الروحي ، وهكذا تسـتهدف من كل نعمة نعمة أخــرى أعظم منها ، في سلســلة متصــاعدة ويكـــــون المنتهى فيها ما قاله عز وجل : (**إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى**).

والشــكر الحقيقي هو الــذي يوصل الإنســان ، الى التفكـير في عوامل النعم وأسـبابها ، وبالتـالي المحافظة عليها ، لتــدوم له النعم ، حيث ان بقاءها مرهــون ببقــاء عواملها ، فظاهرة الصحة ـ هـذه النعمة ـ باقية ما دامت الوقاية ، وما دامت ســلامة النفس والحركة ، هــذا من جهة.

ومن جهة أخــرى نجد موقف الكفر ، والــذي يتلخص في ثلاثة أمــور هي : عــدم الاهتمــام بعوامل النعمة أولا ، وعــدم الســعي لتحقيق أهــدافها ثانيا ، واتخــاذ الموقف الخاطئ منها ثالثا.

وفي هذا الدرس نجد معالجة عميقة لهذين الموقفين ــ الشـكر والكفر ــ فمع أننا لا نجد هـاتين الكلمـتين الا ان الآيات ـ من هذا الدرس حتى قصة قارون ـ تحدد للإنسـان الموقف السليم من النعمة.

إن أهل مكة من العــرب كــانوا يتصــورون ان النعمة التي يتقلبـون فيها ناشـئة من الواقع القـائم ، حيث عبـادة الأصنام ، وفرض السـيطرة على العـرب من خلال الموقع الاقتصادي والاجتماعي ، لذلك لم يكونـوا يريـدون الإيمـان بالرسول (ص) خوفا من تمـرد العـرب ضـدهم ، وبالتـالي خسران هذه المكتسبات ، فأجابهم الله :

أولا : انكم لم تعرفــوا الســبب الحقيقي للنعمــة. انه ارادة الله ، وحكمه الذي قضى بحرمة الـبيت ، وهكـذا إذا تمسّـكوا بسـائر أحكـام الله نـزلت عليهم البركـات لا تلك القيم الفاسدة التي تتصورونها ، وبالتـالي فـان الايمـان به وبرسوله سوف يزيد هذه النعمة ويحافظ عليها.

ثانيا : ان النعم قد تكــون نقمة على صــاحبها ، وذلك عند ما تخدعه وتــدعوه للغــرور ، فكم هي القــرى الــتي تصاعدت في مدارج النعم المادية الى ان بطرت معيشتها فــدمرها الله بســبب كفر أهلها ، بعد ان أقــام الله عليهم الحجة ببعث رســله وأنبيائه ، وإذ يشــير الله الى ما آلت اليه تلك القرى ، فان في ذلك إنذارا لأهل مكة.

ثالثا : ثم لو افترضـنا جـدلا أنها لم تكن من عند الله ، فــان دعــوة القــرآن لهم ليست من أجل الرخــاء المــادي فحسب ، بل من أجل نعيم الآخرة الذي لا يحصى

أيضا ، ولو انهم خسروا هذا النعيم المحدود بسبب إيمانهم بالرسالة ، فان الله سيعوّضهم ما هو أفضل منه في الدار الآخرة ، فكيف والحال ان الايمان بها يمنحهم مزيدا من النعيم في الدنيا ، والثواب في الآخرة؟!

والدرس بمجمله يطهّر القلب من أدران حب الدنيا المانعة من الايمان بالرسالة ، وذلك من خلال بيان خطأ موقف أهل مكة الذين لم يبادروا الى الايمان خشية فقدان مصالحهم العاجلة.

بينات من الآيات :

[57] ترى بعض النظريات ان المدنية تورث الخوف لأن أهلها يريدون الاحتفاظ بمكتسباتها ، فيقدمون التنازلات لدرء الاخطار عن أنفسهم ، ولعل أهل مكة كانوا في هذه المرحلة. إذ كانوا يخشون من الاصطدام مع قبائل العرب حتى لا يخسروا مكتسباتهم ، وكانت القضية التي يتوقع انها تثير العرب ضدهم هي ايمانهم بالرسالة الجديدة ، فكفروا بها وقالوا : نخشى ان تزول حالة الأمن التي نعيشها لو أننا آمنا ، فتطفق العرب باقتحام بلدنا ، واختطافنا من الأرض.

(**وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا**)

وفي هذا الحديث اعتراف منهم بان سبب كفرهم بالرسالة ليس في نقص الادلة ، بل اتباعهم الهوى المتمثل في مصالحهم الخاصة ، وقد رد الله عليهم :

1 / ان مصدر هذه النعم هو الله ، وليس الناس حتى يتصوروا ان الاختلاف معهم سوف يؤدي الى زوالها ، فالله هو الذي جعل الكعبة محلّا آمنا ، وفرض على الناس جميعا ومن فيهم العرب ـ من الناحية التشريعية الدينية ـ الالتزام بحرمتها والا لما كانت مكة بلدا آمنا في عرف قوم شعارهم الخوف ، ودثارهم السيف ،

ولهجموا عليها ، وحطموا الحضارة الناشئة فيها.

ولو كـــان ثمة قـــانون يمنعهم من ذلك لمنعهم من التقاتــل. ان الــذي يمنعهم هو القــانون الإلهي منذ أيّـام إبــراهيم (ع) بحيث لو التجأ الصــيد الى الحــرم ما كــانوا يصطادونه احتراما للكعبة ، حتى قال شاعرهم :

والمـؤمن العائـذات الطـير يمســـــــــــحها ركبـــــان مكة بين العيل والســـــــــــلم

يعـني قسـما بالله الـذي أعطى الأمـان للطيـور الـتي تستعيذ بـالحرم ، حـتى ان القوافل الـتي تـذهب الى مكة ليمس على ظهرها ، ولكن قـريش لم يعقلـوا هـذا العامل الأساسي ، لما يتمتعــون به من أمن ورفـــاه ، لـــذلك لم يشكروا الله ، ولم يؤمنوا برسالة الإسلام ، ولو أنهم فعلوا ذلك لاستزادوا من الأمن والبركة.

(**أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ**)

ان أهم النعم لــدى أهل مكة كـانت هي : الأمن الآتي من حرمة الكعبة ، والرفــاه بســبب ســيطرة أهلها على التجارة ، وبسبب توافد الحجاج الى الـبيت الحـرام. كـانوا يحملـون معهم خـيرات الأرض بـالرغم من أنّ مكة كـانت بين جبال وعرة ، وأراض جرداء.

(**رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)

لقد ذكرنا مـرة ان هنـاك فرقا بين الـرزق والكسب ، فـــالرزق هو ما يعطيه الله للإنســان هبة وعطـــاء ، وربما بـــدون ســـعي ، بينما الكسب هو ما يعطيه الله له بعد السعي ، والآية تبيّن ان نعمتي الأمن والرخـاء الـتي كـانت ولا تزال لأهل مكة ، لم يسع أهلها من أجلها ســعيا ، وانما الله هو الذي تفضّل عليهم بهما ، وعدم إدراكهم

لهذا العامل ـ الذي جاءت بسببه هاتان النعمتان ـ هو الذي جعلهم يبطـرون بالنعمة ، ويكفـرون بالرسـالة ، بـدل أن يشكروا الله عبر الإيمـان برسـالته ، وطاعة القيـادة الـتي فرضها.

ولعل الآية تشير إلى أهمية التشـريعات الرشـيدة في بناء الحضارات ، وان القيم الالهية هي السبب في بركـتي الأمن والرخاء للناس.

[58] 2 / قد تضـحى النعمة نقمة على أصـحابها ، وذلك إذا صـارت هـدفا بـذاتها ، بينما ينبغي للإنسـان ان يشـكر ربه عليها ، وانّ شـكر أهل مكة لله على نعمـتي الأمن والرخـاء يتمثل في الايمـان برسـوله ، وهـذا هو السبيل الأوحد للحفـاظ على النعم ومنع تحويلها الى نقمة ، وهكذا يبقى الضمان الوحيد لاسـتمرار الحضـارات اتبـاع رسـالات الله ورسـله ، ومن أبـرز فوائد الرسـالات كبح جمـاح الإنسـان من الاسترسـال مع النعم الى حد البطر والطغيـان والغـرور ، حـتى ينسى الحـدود ، ويتجاهل الحقوق ، ويندفع في اتباع اللذات الى أبعد مدى.

(**وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها**)

والله لا يدمر القرى لمجرد أنّها مرفهة ، وكيف يكـون ذلك وقد خلق البشر لـيرحمهم؟ كلا .. إنه هو الـذي وفر النعم للنـاس ، ويخطئ أولئك الـذين يصـوّرون الـدّين بأنه يعـارض النعم بـذاتها ، مفسـرين الآيـات والروايـات الـتي تتناول موضوع الزهد : بـان الـدين لا يجتمع مع الـدنيا ، أو السياسة. كلا .. إنما دمّرها لأنها بطـرت بـالنعم ، وأصـابها الغرور ، ولم تصل بالنعم الى اهدافها.

(**فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْـكَنْ مِنْ بَعْـدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ**)

لقد ســكنت من بعــدهم تلك المســاكن ولكن قليلا ، لأنّها كـانت لا تـزال منحوسة ، مما جعل سـاكنيها الجـدد يرحلون عنها سريعا ، ولعل الآية تشير الى سـنّة إلهية هي : ان البلاد المـــدمّرة بالعـــذاب لا تبقى فيها مقومــــات الحضـارة ، وهكـذا لا نجد الحضـارة قد تجـددت في ذات المواقع الـتي دمّـرت ، مما تجعل نتـائج البطر بالمعيشة تمتد الى المستقبل البعيد.

[59] ثم يـبين الله ـ وخلافا لنظرية الحتمية التاريخية التي تتصور الدورات الحضارية مرهونة بـالزمن ذاته ـ ان العامل الاول في الـدورات الحضـارية بعد ارادة الله هي ارادة الإنسـان ، فلو بقيت أمة تسـير في الخط السـليم ، فستبقى تتقدم وتتطور أكثر فأكثر ، ولن يؤثر فيها الـزمن بذاته ، والله لا يسلب حضارة قـوم أو يهلكهم هلاكا ماديّا ، إلا بعد تحقق أمرين :

الاول : اقامة الحجة :

(**وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُـرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا**)

وقال في آية أخرى : «**وَما كُنَّا مُعَـذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُــولاً**» ويعلل الله عز وجل هــذا الأمر في الآية (47) من نفس السورة إذ يقول : «**وَلَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَـدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ فَيَقُولُـوا رَبَّنا لَـوْ لا أَرْسَـلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ**» وبعث الله رسولا في أم القرى يتناسب مع هـدف اقامة الحجة ، وقد لا يقصد القـرآن من كلمة الام المدينة الأكـثر سـكانا ، بل الأنسب حيث تصل أصـداء الرسـالة منها الى أوسع رقعة من الأرض.

الثاني : الظلم :

فبالاضــافة الى أن ســنن الله تقتضي زواله ، ودمــار أهله ، فانه يحمل عوامل انهيـاره فيه ، فالطـاغوت الـذي يظلم الآخرين ، ويسلب حقـوقهم لا يسـلم من ردّة الفعل ان لم ينزل عليه عذاب مباشر من الله كـالمرض والغـرق وما الى ذلك.

(**وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ**)

والظلم هو الصورة العملية لرفض رسـالات الله ، بل لمحاربة الله تعالى.

وكلمة أخـيرة : ان قسـما من النـاس يتصـورون بـأن الإيمـان بالله ، والالـتزام برسـالته ، وبما يتضـمنه كل ذلك من الالتزامات المالية ، أو التحديات السياسـية وما شـابه ســوف يســلب منهم النعيم ، بينما ســنة الحيــاة تقضي بــالعكس ، حيث يهلك الله الــذين يكــذبون برســالاته ، والعبرة جلية في التاريخ ، وبالتالي فمن الأولى أن يخشى أهل مكة من عاقبة رفضهم للرسالة ان يفقدوا كل شـيء لا من ايمانهم بها ، أو ليس الشكر هو التفكـير في عوامل النعمة ، والحفــاظ عليها ، وبالتــالي الحفــاظ على النعمة ذاتها؟!

[60] 3 / ان الهدف الأسـمى الـذي يجب ان يسـعى الإنسان من أجله هو نعيم الآخرة لا حطام الـدنيا ، والـدنيا يجب ان تكون وسيلة تخدم الغاية العظمى للبشــر. الا ان الكثير من الناس يتوقفون عند الوسيلة ، وتضـحى عنـدهم هدفا ، وذلك لضآلة طموحاتهم ، وضيق افقهم :

(**وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَــيْءٍ فَمَتــاعُ الْحَيــاةِ الــدُّنْيا وَزِينَتُها**)

المتـاع هو الوسـيلة لتحقيق هـدف ما ، وبتعبـير آخر الضروريات ، ومتاع المسافر

هو ما يحتاجه لسـفره ، والزينة وسـيلة التجميل اي الكماليات.

(**وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ**)

من حيث النفع والإفادة (البعد المادي).

(**وَأَبْقى**)

من حيث الدوام (البعد الزمني).

(**أَفَلا تَعْقِلُونَ**)

ان في الإنسـان جانبـان ، هما العقل والشـهوة ، وطبيعة النفس البشرية انها ميّالة للهـوى ، والله لم يقل : تخلـوا عن الـدنيا بكاملها ، وانّما حمّل الإنسـان مسـئولية الإختيار السليم الذي تدعو له رسالات الله وعقل الإنسان ، وهل يختـار عاقل المتـاع والزينة الـزائلين على الخـير الدائم؟!

ان التعقل الذي تـدعو له الآية الكريمة ، هو ان يجعل الإنسـان الـدنيا وسـيلة للآخـرة ، ولن يتضـرر الإنسـان لو خسر الدنيا (وتخطف من أرضـه) إذا كـان ذلك في سـبيل الله ، ولو أنّنا وقفنا على مفـترق الطريق بين زينة الـدنيا ونعيم الآخرة ، فـان واجبنا أن نختـار الآخـرة على الـدنيا ، وهذا ما يحكم به العقل السليم.

[61] ولهذا نجد القرآن يؤكد :

(**أَفَمَنْ وَعَـدْناهُ وَعْـداً حَسَـناً فَهُـوَ لاقِيـهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتـاعَ الْحَيـاةِ الـدُّنْيا ثُمَّ هُـوَ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**)

من مشـاكل النفس البشـرية أنها تميل للأشـياء الحسّية الآنيّة ، والإنسان ينساق

وراء الـدنيا لأنها بين يديه ، ويـرفض الآخـرة لأنها مؤجلة ، ومثل الإنسان الذي يختار الدنيا على الآخرة كالذي يفضّـل دينارا واحدا حاضرا ، على مليـار دينـار غـائب ، تتـأخر عنه يوما أو بعض يوم.

وَيَــوْمَ يُنــادِيهِمْ فَيَقُــولُ أَيْنَ شُــرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُـونَ (62) قـالَ الَّذِينَ حَـقَّ عَلَيْهِمُ الْقَـوْلُ رَبَّنا
هـؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْنـاهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْـكَ
ما كـانُوا إِيَّانا يَعْبُـدُونَ (63) وَقِيـلَ ادْعُـوا شُـرَكاءَكُمْ
فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْـتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَـذابَ لَـوْ أَنَّهُمْ
كانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ
الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبــاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا
يَتَسـاءَلُونَ (66) فَأَمَّا مَنْ تـابَ وَآمَنَ وَعَمِـلَ صـالِحاً
فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67) وَرَبُّكَ يَخْلُــقُ ما
يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى
عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما
يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللـهُ لا إِلـهَ إِلاَّ هُـوَ لَـهُ الْحَمْـدُ فِي
الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ

هدى من الآيات :

لماذا يكفر المرء بكتـاب ربه وبرسـوله؟ وكيف ينبغي ان نتجاوز عقبات الايمان بهما؟

في درس سبق تلونا آيات تنسف عقبة عبادة الهوى ، ورعاية مصـالح الـدنيا ، ولكن هل كل النـاس تأسـرهم مصـالحهم؟ فكيف بهـؤلاء المحـرومين الـذين يكفـرون بالرسالات أيضا؟

الجـواب : انهم يتبعـون مـترفيهم ، ويتخـذونهم آلهة يشـركون بهم ربهم ، أو ليسـوا يسـمعونهم دون تفكر ، ويخضعون لهم وما أنزل الله لهم سلطانا؟!

هكذا يعـالج القـرآن في هـذا الـدرس مـرض الشـرك لنعرف ان توحيد الله الخالص منهج كل هدى ، وسبيل كل صلاح.

والشرك في القرآن الحكيم ، هو ان يعتقد الإنســان ، بـأن شـيئا أو شخصا غـير الله يهيمن مع الله على أحـداث الكــون ومتغـيرات الحيــاة ، ويــبيّن لنا القــرآن عــبر آياته الكريمة العوامل النفســية للشــرك ، ويطهّرها من هــذه العوامل.

وفي هذا الدرس يصور لنا الله مشهدا من القيامة. إذ يقف المشــركون مع آلهتهم المزيفة للحســاب ، فيســأل الله الشركاء المزعومين : لماذا اتخـذوكم آلهة من دوني؟ ولماذا أضللتم الناس؟

فيكون جوابهم : اننا بدورنا كنّا ضالّين أيضا ، ونستفيد من هذا الحوار أمرين :

الاول : ان المشــركين اتبعــوا بشــرا مثلهم ، فليس الشـرك ــ اذن ــ محصـورا في عبـادة الأصـنام والتماثيل الحجرية. إذ ليس معقولا ان يحمل الحجر مسئولية شـرك الآخــرين به ، كما لا يصح للحجر الهــدى أو الضــلال حــتى يقول : «**أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا**».

الثاني : ان معنى الشرك هنا هو الشرك الثقـافي ، إذ ان الناس اتبعوا مجموعة آراء وعقائد من دون ان يتبيّنوا ، أو ان يكون ثمة حجة وبرهــان من عند الله عليها ، فلا هم اتبعوا عقـولهم ، ولا هم اتبعـوا الحجة الإلهية ، ويتضح هـذا في قـولهم «كما غوينـا» إذن الغواية هي الضـلال المتعمد وعلمـاء السـوء ، والصـحفيون المـأجورون ، والمفكـرون المنحرفــون مثــال واضح لهــؤلاء ، فهم بــدورهم يضــلّون ويضــلّون. واتبــاع هــؤلاء الفريق يجب ان يكــون مبنيّا على بيّنة وحجة واضحة والا فهو شرك.

ونستوحي من تواصل الحديث حول الشـرك والقيـادة الشرعية التي يختارها الرب : ان الله قد خلقنا وهو الــذي يختار ولسنا نحن المخلوقين ، أقول : نسـتوحي من ذلك : أن اتّباع أولياء الشـيطان هو الشـرك بعينه ، بل اي متابعة لم يأذن بها الله

شرك أيضا.

كما نستوحي من سياق الآيات التالية : ان اتباع الرسول وخلفائه تطبيق عملي لعقيدة التوحيد في الحياة ، ذلك لأن ربنا يذكرنا فيها بأنه هو الله لا اله الا هو.

ويبدو ان هذا الدرس ـ اجمالا ـ يكرس شرعية قيادة الرسل ، وزيف القيادات الجاهلية.

بينات من الآيات :

(**أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا**) :

[62] في يوم القيامة يجمع الله الآلهة المزيفة ، والذين عبدوهم من دون الله ، ثم تبدأ فصول المحاكمة التي تجري على الملأ العام ، ونستفيد ذلك من كلمة «يناديهم».

(**وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**)

والتعبير القرآني ذروة في البلاغة ان ربنا يسميهم بالشركاء ، ويتساءل أين هم الآن ليجعل وجدانهم يجيب قبل ألسنتهم ، بل ليجعلهم يبلغون الحقيقة اليوم بنقله وجدانية خاطفة قبل ان يتورطوا في العذاب في ذلك اليوم ، ولات حين مندم.

في ذلك اليوم ليس فقط يتبرأ التّابعون حين يرون العذاب من المتبوعين ، بل يبادر هؤلاء بالاعتراف الصريح بغوايتهم.

[63] فيجيب الذين سبقوا الى الضلالة ، وهم طلائع أهل النار وأئمتها :

(**قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ**)

هؤلاء قد ثبت عليهم القول في الـدنيا قبل الآخـرة. إذ اضلّهم الله بظلمهم ، وسـلب منهم مصـباح العقل ، ونـور القلب ، وتركهم في ظلمات يعمهون.

ونجد هؤلاء ينطقون في الموقف. أو ليسوا في الـدنيا وضـعوا نـاطقين باسم تـابعيهم؟! دعهم اليـوم يعـترفون بأنفسـهم على غـوايتهم ، وهـؤلاء يـدخلون النـار من دون حساب.

وتلخص الآية موقفهم في نقطتين :

الاولى : الاعتراف بالضلالة :

(**رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا**)

اي أضللناهم عن الطريق المستقيم.

(**أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا**)

فنحن بـــدورنا كنا ضـــالين ، وما فعلنـــاه أننا عكســـنا ضلالتنا عليهم ، وهكذا تنكشف الحقائق كلها يوم القيامة ، قـال تعـالى : (**لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَـةٍ مِنْ هـذا فَكَشَـفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**) [1]

الثانية : البراءة من المشركين :

(**تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ**)

لعل معنـاه : انهم في قـرارة أنفسـهم كـانوا يعلمـون بأننا لسنا بآلهة ، وانما عبدونا

---

(1) ق / (22).

لشـهواتهم وأهـوائهم ، وإذ ينقل القـرآن هـذا المشـهد من القيامة ، فلكي يسـتثير وجـدان الإنسـان نحو عـدم اتبـاع الآلهة المزيفة من الطغاة والقوى الاجتماعية المختلفة. إذ كيف يتّبع شخصا أو جهة تتبرأ منه حين العسرة؟!

[64] ثم يتوجه الخطــاب الى التــابعين والمشــركين بالله.

(**وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ**)

ليخلّصوكم من العذاب.

(**فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ**)

وتحتمل الآية معنيين :

1 ـ ان المشـركين حينما يـرون العـذاب يتمنّـون في أنفسهم لو كانوا مهتدين من قبل في الدنيا.

2 ـ ان المشركين كانوا يـرون هـذه النتيجة منذ كـانوا في الدنيا لو أنهم كانوا يتبعون الهدى ، لم يقعـوا فيها الآن ، لان الذي يتّبع هدى الرسـالة يكتشف نتـائج الشـرك وهو العذاب.

[65] تجــري محاكمة المشــركين الــذين أطــاعوا كـبراءهم ومـترفيهم من دون ان يـأذن الله لهم في ذلك ، ويسـألون عن مـوقفهم من الرسل وخلفـائهم الشـرعيين الذين هم القيادة الحق لهم.

(**وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ**)

فهل أطعتموهم؟

ان القيادة المنتخبة من قبل الله ميزان في الدنيا بين الحق والباطل ، وميزان في الآخرة بين الجنة والنار ، ولذلك يسأل الناس عنها يوم القيامة.

نقرأ في النصوص ان أبا حنيفة ــ امام المذهب ــ يحاور الامام الصادق (ع) في الآية «**ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**».

فيسأله الامام عنها :

«ما النعم عندك يا نعمان»؟ قال : القوت من الطعام والماء البارد ، فقال الامام (ع) : «لئن أوقفك الله بين يديه يوم القيامة ، حتّى يسألك عن كل أكلة أكلتها ، أو شربة شربتها ليطولن وقوفك بين يديه» قال : فما النعيم جعلت فداك؟ قال :

«نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد ، وبنا ائتلفوا بعد ما كانوا مختلفين ، وبنا ألف الله قلوبهم فجعلهم إخوانا بعد ان كانوا أعداء ، وبنا هداهم الله للإسلام ، وهو النعمة التي لا تنقطع ، والله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم به عليهم وهو النبي (ص) وعترته (ع)» [2]

[66] (**فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ**)

فهناك خرست ألسنة الأنباء ، وعميت عيونها ، وتوقفت المصادر الخبرية فلم تحمل حقيقة ، لذلك عاشوا في منتهى الحيرة ، ولم يسأل بعضهم بعضا شيئا ، لأنهم جميعا في الجهل شرع سواء ، وذلك لبلاغة الحجة الإلهية التي لا تترك لهم مجالا للتبرير.

---

(2) بح ج (7) ص (258).

[67] نعم لو ضلّ الإنسان لفترة من الزمن عن اتبـاع القيــادة الرســالية أو الانتمــاء الى صــفوف التجمعــات الرسالية ، لكنه تاب بعد ذلك ، فان الله يقبل توبته :

(**فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً**)

وشرط قبول التوبة هو الرجوع عن الخطأ بمحو آثاره الباطنية من النفس عن الايمـــان بالرســـالة ، وآثـــاره الظاهرية من الســـلوك بالعمل الصـــالح ، إذ لا يكفي ان تفتح مع الله صـــفحة جديـــدة ، بل لا بد ان تملأها بعمل الصالحات.

فالضباط الذين انتموا الى جيش الطاغوت يمكنهم ان يتوبوا بالتمرد على النظـام الفاسد ، والانتمـاء والعمل في صــــفوف الحركة الاســـلامية ، كما فعل الحر بن يزيد الرياحي (رض) حينما ترك معسكر ابن زياد ، وحـارب بين يدي الامام الحسين (ع) حتى الشهادة.

(**فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ**)

ويستخدم القرآن كلمة «فعسـى» الـتي يسـتفاد منها الإمكــان ظــاهرا وليس التحقيق ، حــتى يتضح لنا عظم الذنب فلا نصاب بالغرور ، أو الرجاء المفرط الـذي لا تقل نتيجته ســوءا عن القنــوط التــام من رحمة الله ، كما ان بقاء عقدة الـذنب في نفس الإنسـان من صـالحه إذا كـان يدفعه للعمل والسـعي الأكـثر في سـبيل اللـه. طمعا في مرضاته عز وجل.

وربك يختار :

[68] (**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشـاءُ وَيَخْتـارُ ما كـانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**)

ان فطـــــرة الإنســــان وعقله يهديانه الى ان مالك الشيء هو الذي يحق له التصرف فيه ، ومالك الخليقة هو الــذي يصح له التصــرف فيها لأنه خالقها ، ولان الإنســان جــــزء من الخليقة فلا بد ان ينتظر إذن الله في اتبــــاع القيادة التي يعينها سبحانه ، فليس من المقبول ـ وجدانا ـ ان يخلقـني الله ثم اختـار لنفسي دونه القيـادة السـليمة والولاية الضرورية.

قال الامام الصادق (ع) في تفسير هذه الآية :

«**يختـــار الله عز وجل الامـــام ، وليس لهم ان يختاروا**» [3]

وفي أصـول الكـافي عن الامـام الرضا (ع) في فضل الامام وصفاته قال :

لقد راموا صعبا ، وقـالوا إفكا ، وضـلوا ضـلالا بعيـدا ، ووقعوا في الحيرة إذ تركوا الإمام عن بصـيرة «**زَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطانُ أَعْمـالَهُمْ فَصَـدَّهُمْ عَنِ السَّـبِيلِ وَكـانُوا مُسْتَبْصِرِينَ**» رغبـوا عن اختيـار الله واختيـار رسـول الله الى اختيارهم ، والقرآن يناديهم : «**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشـاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللـهِ وَتَعـالى عَمَّا يُشْـرِكُونَ**» وقــال عز وجل : «**وَما كـانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَـةٍ إِذا قَضَـى اللـهُ وَرَسُـولُهُ أَمْـراً أَنْ يَكُـونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**» [4]

(**سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ**)

وفي الآية تأكيد على ان اختيــار قيــادة غــير إلهية ، والـتي تعـرف بـالتعيين المباشر ، أو من خلال المقـاييس المبدئية يعتبر نوعا من الشرك.

(3) نور الثقلين / ج (4) ص (136).
(4) أصول الكافي ج (1) باب فضل الامام وحجته.

[69] ولا يحق لنا حينما نعــرف القيــادة الحقيقية ان نتركها الى غيرها بمختلف التـــبريرات ، أو بـــالهوى في مقابل النص والمقياس الإلهي ، فإننا مهما أخفينا الأسباب والدوافع ، الا أن الله يعلمها.

(**وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ**)

الأسباب الباطنية.

(**وَما يُعْلِنُونَ**)

الأسباب الظاهرية.

[70] فاذا أردنا اختيار قيـادة فلا نختـار غـير ما يريـده الله لأنه إلهنا ، فهو أولى بنا من أنفســنا ، وهــذا معــنى التوحيد.

(**وَهُـوَ اللـهُ لا إِلـهَ إِلَّا هُـوَ لَـهُ الْحَمْـدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)

فالذي خلق وأحـاط علمه بـالغيب والشـهادة أحـاطت رحمته الخلق في المبــدأ والمصـــير ، وهو المهيمن على شـؤون الخليقـة. انه الحميد الـذي يختـار لنا إمامنا الـذي نطيعه.

**قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَـلَ اللـهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْـلَ سَـرْمَداً إِلى
يَـوْمِ الْقِيامَـةِ مَنْ إِلـهٌ غَيْـرُ اللـهِ يَـأْتِيكُمْ بِضِـياءٍ أَفَلا
تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ
سَرْمَداً إِلى يَـوْمِ الْقِيامَـةِ مَنْ إِلـهٌ غَيْـرُ اللـهِ يَـأْتِيكُمْ
بِلَيْلٍ تَسْـكُنُونَ فِيـهِ أَفَلا تُبْصِـرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِـهِ
جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهـارَ لِتَسْـكُنُوا فِيـهِ وَلِتَبْتَغُـوا مِنْ
فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73) وَيَوْمَ يُنـادِيهِمْ فَيَقُـولُ
أَيْنَ شُـرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُـونَ (74) وَنَزَعْنا مِنْ
كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ
لِلَّهِ وَضَـلَّ عَنْهُمْ ما كـانُوا يَفْتَـرُونَ (75) إِنَّ قـارُونَ
كـانَ مِنْ قَـوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنـاهُ مِنَ
الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ**

---

71 [سرمدا] : أي دائما.
76 [تنوء] : تثقل.

أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللــهَ لا يُحِبُّ
الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِــرَةَ وَلا
تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْــكَ
وَلا تَبْـــغِ الْفَســـــادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللـــــهَ لا يُحِبُّ
الْمُفْسِدِينَ (77)

وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ

هدى من الآيات :

الإله في اللغة هو ما يتأله اليه بالبكـــاء [1] ويرجع اليه عند الشدائد ، وبالتالي هو الذي ينبغي ان يتّخذ وليّا ، وفي هذا الدرس الذي يـذكرنا بربنا عسى ان نسـقط الشـركاء من حســـــابنا ، ونخلص العبودية لربنا ، ونطيع من أمرنا بطاعته من رســـله وأوليائه ، ونتمــــرد ضد الطغـــاة ، والظـالمين الـذين اتّخـذوا من دون الله أنـدادا ، ويتساءل السياق عن الإله الحقيقي ، الذي يجب ان يتّخذه الإنسـان وليّا ونصيرا ، وقائـدا ومـولى ، ثم يقـول مباشـرة : «**أَفَلا تَسْمَعُونَ**» «**أَفَلا تُبْصِرُونَ**».

وكثيرا ما تتكرر هذه الصيغ وشبيهاتها «**أَفَلا تَعْقِلُـونَ** ، **أَفَلا تَـــذَكَّرُونَ** ... إلخ» في القـــرآن ، وفي ذلك تأكيد لفكرة مهمة هي : ان وجود الآيات وحدها في الكون لا

---

(1) قـال ابن الاعـرابي الألّ كل سـبب بين اثـنين وقـال ابن الفارسي : الألّ : الربوبية ، وقال الفراء : الألّ رفع الصوت بالدعاء والبكاء ، ويبـدو ان ما ذكرناه آنفا يجمع المعاني المختلفة للكلمـة. راجع معجم مقـايس اللغة ج (1) ص (20 / 21).

يكفي ، بل لا بد من وجود جهاز استقبال عند البشر حتى ينتفع البشر منها ، فهل ينفع نور الشمس من أغمض عينيه؟!

ان الله هو الذي جعل الليل سكنا ، والنهار ميدانا للسعي والنشاط ، وهو الذي يقدّر حياة الخلق وموتهم ، والمطلوب منّا ان نتخذه إلها حقّا ، وذلك بان نستمع لرسله ، ونبصر آياته ، ثم نعقلها لنعرف الحقائق.

نجد في الآيات الاخيرة من هذا الدرس اشارة بل توضيحا لفكرة القوّة المالية في الحياة ، فما هو الهدف من النعم الالهية على البشر؟

ان الهدف من النعم هو الوصول الى الكمال الروحي ، والعروج بقيم الإنسان وروحه في مدارج المجد والعظمة عبر الشكر لله ، والذي يمثل الأثر الإيجابي المنبعث عن وجود النعم ، وذلك أسمى من الرفاه والرخاء المادي ، ومن لا يشكر النعم تتحول لديه الى نقمة من الناحية النفسية ، فترى نعمة الفراغ تتحول عنده الى قلق وضياع ، تجده بدل ان يصرف الملايين التي يمتلكها في سبيل راحة نفسه وعائلته وأمته ، يذهب بها للفساد فيحطم شبابه ، ثم يعود صفر اليدين.

وشكر النعمة هو الذي يجعلها نافعة ، بينما الكفر بها يحولها نقمة على صاحبها ، ويتمثل الشكر في الانتفاع بها ضمن الحدود المشروعة لأهداف خيّرة ، وقارون كان بعكس ذلك تماما ، فقد أعطاه الله من الكنوز ما تنوء مفاتحها بالعصبة الأقوياء ، لكنه بدل ان يستفيد منها ، وهو من شعب مستضعف كفر بها وبربّها كما يذكر القرآن ذلك في الدرس القادم ، ولكن السؤال : ما هي مناسبة الحديث عن قصة قارون ، وبالضبط عند الحديث عن القيادة؟

الجواب : ان الانحراف البشري عن القيادة الصحيحة ، يتم بسبب ضغط

أحدى القوتين :

فأما قوة الإرهاب والسيف ، أو قوة المـال والـثروة ، وإذا كـان فرعـون مثلا للقـوة الاولى ، فـان قـارون مثل للقوة الثانية ، وإذ يضرب الله لنا هـذه الأمثـال فلكي يقيم الحجة علينا ، فلا نلتف حـول صـاحب الـثروة لماله ، ولا حول من يملك الحكم لقوته.

بينات من الآيات :

[71] لا ينكر أحد بـأن الـذي أضـاه بنـوره الأرض وما فيها هو الله ، ويعـــــرف الكل انّه الأحق بالطاعة ممن لا يملك نفعا ولا ضرا ، ولا ضياء ولا هـدى من جبـابرة الأرض ومترفيها.

بلى .. يعـرف النـاس جميعا هـذه الحقيقة ، ولكنهم لا يعقلونها ، فـتراهم يركضـون وراء الطغـاة والمفسـدين طمعا في بعض الثروة ، أو خشية من أذاهم.

(**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً**)

دائما ومستمرا.

(**إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ**)

وهـذا هيّن على الله ، فهو يسـتطيع ان يحجب نـور الشـمس لتتحـول الأرض ظلاما دامسا ، ولو فعل ذلك لما استطاع أحد ان يعيد النور مرة أخرى.

(**مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ**)

[72] ثم لو جعل الله أبـدا سـرمدا ، هل يقـدر من نعبدهم من دونه على المجيء بالليل لنسـكن فيه ، وننعم بهدوئه الذي ينفذ حتى في عظامنا. ، وأنسجة أعصابنا.

(**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَـلَ اللـهُ عَلَيْكُمُ النَّهـارَ سَـرْمَداً إِلى يَـوْمِ الْقِيامَـةِ مَنْ إِلـهٌ غَيْـرُ اللـهِ يَـأْتِيكُمْ بِلَيْـلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ**)

وبالمقارنة بين الإثنين نستفيد فكرتين مهمتين :

الاولى : ان الله قال في الآية (71) : «**يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْـمَعُونَ**» من دون ان يـبين فائـدة الضـياء ، بينما قال في الآية (72) : «يـأتيكم بليـل» وبيّن إحـدى فوائـده «تسـكنون فيـه» ولعل ذلك لان الإنسـان ينـام بالليل ، فلا يتفكر في أهميته فاقتضى التنبيه.

الثانية : انه عز وجل قال في حديثه عن الليل : «**أَفَلا تَسْـــمَعُونَ**» بينما قـــال في حديثه عن النهـــار : «**أَفَلا تُبْصِـرُونَ**» لأن الحاسة الـتي يمكن للإنسـان الاسـتفادة منها في الظلام هي السمع ، لأنه لا يرى فيه ، بينما يعتمد أكبر شيء في النهار على حاسة البصر.

ويبدو ان معنى الآية : أ فلا تسمعون عن نعمة الليل ، وأ فلا تبصرون نعمة النهار.

[73] (**وَمِنْ رَحْمَتِـهِ جَعَـلَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهـارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ**)

اي في الليل.

(**وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**)

في النهـار ، كـأمر طـبيعي بالنسـبة للإنسـان ، والليل والنهار يبعثان حالة الشكر والرضى في البشر.

(**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**)

وذلك ل :

1 ـ لان نفس الإنسان لا ترتاح على نمط واحد ، بينما التنوع يرضيها ويبعثها على الشكر.

2 ـ الذي يعمل بالنهار وينـام بالليل يحصل على وقت للتفكـير في إنجازاته فيرتـاح ، وللتفكـير في مسـتقبله فيخطط له ، وحينما يـأتي لعمله في النهـار يكـون قد أخذ قسطا من الراحة والاستعداد لبذل جهد ونشاط أفضل.

3 ـ ثم ان هـدف المـؤمن من الحيـاة أسـمى من الماديات ، فهو من وراء النعم يسعى للشكر ، لذلك تـراه في حالة من الرضى والاطمئنـان مهما كـانت الظـروف معاكسة للطموحات المادية المغروزة فيه ، لأنه ينظر الى الجوانب الايجابية في الحياة.

وفي الحديث عن ابن عباس :

«**ان امـرأة أيـوب قـالت له يوما : لو دعـوت الله ان يشفيك ، فقال : ويحك! كنا في النعمـاء سـبعين عاما ، فهلّم بضر في الضراء مثلها**» [2]

فعلموا ان الحق لله :

[74] الله هو الخـالق وصـاحب الفضل والنعمة على البشر ، وله وحده يصرف الشـكر ، الا ان البعض بـدل ان يفعل ذلك تـراه يشـرك بالله ، فيعتقد ان السـلطة أو أصحاب القـوى المختلفة هم مصـدر النعم والفضل عليه ، فيعبدهم من دونه تعالى ، وحساب هؤلاء عسير عند الله.

---

(2) بح ج (12) ص (348).

(**وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**)

فلا يجيبون ، وقد سبقت آية مشابهة تماما لهـذه الآية وهي آية (62) مما يدل بان النداء الالهي مرة يكون أمـام قـادة المشـركين من أئمة الضـلال ، ومـرة في حضـور الرسل وخلفائهم من أئمة الهدى.

[75] ويتم الحجة عليهم عند ما يسـتدعي الشـهود على كل امة منها :

(**وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً**)

وهم الأنبياء والأئمة. جاء في آية كريمة : «**فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً**» [3]

وجاء في حديث شريف في تفسير هذه الآية :

«ومن هذه الامة امامها» [4]

(**فَقُلْنا**)

للمشركين :

(**هاتُوا بُرْهانَكُمْ**)

ان كانت لديكم حجة على طاعتكم للأنداد ، واتبـاعكم لـذوي الـثروة والسـطوة ، ولكنهم لا يجـدون جوابـا. إذن علينا ان نفكر مـرتين قبل ان نتبع قائـدا ، لننظر هل نملك على طاعته برهانا يـوم القيامة ، حيث لا ينفع الجـدل والتظني

---

(3) النساء / (41).

(4) عن تفسير الميزان ج (16) ص (20).

والتبرير.

(**فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ**)

يوم القيامة تبلى السرائر ، وتظهر الحقائق ، ويتلاشى الباطل والكذب ، كما تتبدد الأعمال المنافقة ، ولعل فاتحة الآية تشير الى ضلال وضياع عبادتهم للأنداد ، وأيضا أعمالهم التي مارسوها في الإطار الشركي.

[76] ومن جملة ما يفتري الإنسان على الله هو اتباع مالكي المال والثروة.

(**إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ**)

انحرف عنهم ، وصار يظلمهم.

(**وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**)

والعصبة كما في تفسير علي بن إبراهيم :

«**ما بين العشرة الى خمسة عشر**» (5)

لقد رزقه الله كنوزا ذات مفاتيح (صناديق وخزائن) لو حملتها العصبة أولوا القوة لأرهقتها ، وكان الهدف من إعطائه الثروة امتحانه. ذلك ان المؤمن الحقيقي تزيده الثروة قربا الى الله ، وتواضعا في خدمة الناس ، ولهذا جاء في الحديث :

«**الغني الشاكر خير من الفقير الصابر**»

أما ضعيف الايمان أو المنافق فانها لا تزيده من الله إلّا بعدا ، وفي الناس إلّا

---

(5) بح ج (13) ص (249).

تكـبرا وغـرورا ، ولم يكن قـارون من النـوع الاول ، فبـادر المؤمنون لنصيحته :

(**إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ**)

والفـرح في هـذه الآية بمعـنى الغـرور ، وهو انعـدام الهـدف ، وإحسـاس الإنسـان بحالة الإشـباع (انعـدام المسـؤولية) وكثـير هم الـذي يصـابون بهـذا الـداء بسـبب الجاه والـثروة ، قـال تعـالى : «**كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى**» [6]

(**إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**)

لأنهم ينسـون الله فينسـاهم ، بل كثـير ما يجـرّهم الفرح لمبارزة الله.

[77] الدنيا سـلاح ذو حـدين فإمّا تـؤدي بصـاحبها الى النار وذلك حين يتصـورها هـدفا بـذاتها ، وأما ان تـؤدي به الى الجنة وذلك حينما يتّخـذها مطية لعمل الصـالحات ، فالغنى يصير فضيلة إذا استخدمه صاحبه في سبيل الله.

هكذا يقول الامام أمير المؤمنين عن الدنيا :

«**من أبصر بها بصّرته ، ومن أبصر إليها أعمته**» [7]

(**وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ**)

بإخراج حق الله وحق المحتاجين ، وصرف المـال في عمل الصـالحات كبنـاء المسـاجد ، ومسـاعدة الحركـات الاسلامية ، والإسلام لا يطـالب الإنسـان بإعطـاء كل ماله في سبيل الله ثم يجلس خالي اليد ، بل يطالبه بالاعتـدال في الإنفاق بقوله

---

(6) العلق / (6 ـ 7).

(7) عن نهج البلاغة الخطبة رقم (82).

تعــالى في ســورة الفرقــان : (**وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُـوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً**) [8]

(**وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا**)

وهـــذه الآية دليل على هـــذا التفســـير ، وعلى خطأ النظرة القائلة بفصل الدين عن الدنيا. إذ بإمكان الإنســان ان يبني مسـجدا الى جـانب بيت فخم. الا ان للإمـام علي (ع) تفسيرا آخر للآية ينسجم ـ مع سياق الآيات ـ ونفسـيّة شحيحة ، كما كانت عند قـارون أمثولة الـترف والفسـاد ، يقول الامام (ع):

«**لا تنس صحتك ، وقدرتك ، وفراغك ، وشبابك ، ونشاطك ان تطلب بها الآخرة**» [9]

ذلك ان ما يبقى من الــــدنيا ليس ســــوى ما يبعثه الإنسان الى الآخرة.

ثم أكد الســياق ضــرورة الإحســان إلى النّــاس ، والإحسان هو بذل المزيد من الأموال مضافة الى الحقوق المالية المفروضة ، ولا ريب ان الـثروة المكدّسة لا تهـنئ لصـاحبها من دون الإحسـان ، وان لـذّة روح الإنسـان من الإحســان أعظم بكثــير من لــذّة بدنه بــالترف ، كما أن الإحسـان يمتص نقمة المحـرومين على صـاحب الـثروة ، ويحولها الى ذكر حسن ، وثــــواب عند الله عظيم ، بينما الشح يودي الى الفساد والاستكبار في الأرض.

(**وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللـهُ إِلَيْـكَ وَلا تَبْـغِ الْفَسـادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ**

---

(8) الفرقان / (67).

(9) تفسير نمونه ج (16) ص (156).

(**لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**)

ولعل نهاية الآية (76)ـ (**إِنَّ اللـهَ لا يُحِبُّ الْفَـرِحِينَ**) تلتقي مع هذه الآية في ان الغرور (الفرح) يـؤدي للفسـاد في الأرض.

قالَ إِنَّما أُوتِيتُـهُ عَلى عِلْمٍ عِنْـدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللـهَ
قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُـوَّةً
وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْـئَلُ عَنْ ذُنُـوبِهِمُ الْمُجْرِمُـونَ (78)
فَخَـرَجَ عَلى قَوْمِـهِ فِي زِينَتِـهِ قـالَ الَّذِينَ يُرِيـدُونَ
الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قـارُونُ إِنَّهُ لَـذُو
حَـظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقـالَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ
ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صـالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلاَّ
الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنا بِهِ وَبِـدارِهِ الْأَرْضَ فَما كـانَ
لَـهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُـرُونَهُ مِنْ دُونِ اللـهِ وَما كـانَ مِنَ
الْمُنْتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَـهُ بِـالْأَمْسِ
يَقُولُـونَ وَيْكَـأَنَّ اللـهَ يَبْسُـطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشـاءُ مِنْ
عِبـادِهِ وَيَقْـدِرُ لَـوْ لا أَنْ مَنَّ اللـهُ عَلَيْنا لَخَسَـفَ بِنا
وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكـافِرُونَ (82) تِلْـكَ الـدَّارُ الْآخِـرَةُ
نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُـوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسـاداً
وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)

ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً

هدى من الآيات :

بالاضــافة الى الجــوانب العلمية في القــرآن هنــاك جــــوانب بالغة الأثر في الحكمة ، تمثل مفتاحا لشخصـــية الفــرد ، وشــفاء لأمراضــها وعقــدها ، فعند ما نقــرأ قصة قارون فان الذي نعتبر به من هذه القصّة يساوي أو يفوق ما نتعلمه منها ، فنحن نتعلم منها أثر الـــثروة وميكانيكيتها في المجتمع (قـانون الـثروة) وهـذا وحـده لا يكفي إذا لم نعتبر منها في إصلاح أنفسنا عند مواجهة زينة الحياة الدنيا بتجــاوز ظــاهر الأحــداث الى لبها ، وتفاصــيل القصة الى هدفها وذلك من خلال وعي الآية القرآنية :

«**يَـوْمَ لا يَنْفَـعُ مـالٌ وَلا بَنُـونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللـهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**».

والحديث الشريف عن الدنيا انها :

«**تغر وتضر وتمر**» [1]

وكثـير هم الـذين تخـدعهم الـدنيا ، فيحسـبونها غاية المــنى ، ولكنهم حينما يجربونها يجـــدونها كالحية ظاهرها أملس ، وباطنها السم الزعـــاف ، وهي كمـــاء البحر كلما يشـــرب العطشى منه كلما يـــزدادون ظمأ ، وهكـــذا كلما لهث الإنســـان وراء زينة الـــدنيا ، يحســـبها تحقق اهدافه ، كلما ازداد بعدا عنها ، وصدق الامام علي (ع) إذ قال :

«**منهومان لا يشبعان طالب العلم وطـالب دنيا**» [2]

وأهم ما نستفيده من هذه القصة التالية :

1 ـ من الناحية النفسـية يجب ان لا تخـدعنا الـثروة ، وتبعدنا عن هدفنا الأكـبر وهو الآخـرة ، فلقد كـان بإمكـان قارون الذي يعجز عن حمل مفاتح خزائنه الرجال الأقويـاء ، ان يجمع آخرته الى دنيـــــــاه ، ولكنه حينما قيل له ذلك رفض وقال : ان الأموال الـتي حصـلت عليها كـانت نتيجة جهدي وعملي وأنكر فضل الله ، بينما لم يكن علمه سوى وســيلة بســيطة في جمع هــذا المــال الــذي أعطي له لاختبـاره ، وامتحـان إرادته ، لـذلك فشل في الامتحـان ، فخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

2 ـ من الناحية الاجتماعية يجب ان نلتف حـــــول الأشخاص لما يحملونه من رسالة صـالحة ، وما يجسـدونه من صـفات سـامية ، وليس لأمـوالهم وسـلطتهم ، والـذي جعل الكثير من الطواغيت يتسـلطون على رقـاب النـاس هو تقديس الناس للثروة ، واحـترامهم لأصـحابها ، وجعلها مقياسا بدل ان تكون القيم هي المحور ، والإسلام

---

(1) نهج البلاغة / ح (419).

(2) نهج البلاغة / ح (228).

يحسّـس الإنسـان بكرامته ، وأنها أكـبر من المـال والجـاه حــتى لا يقع فريسة للرأســماليين. رجــالا كــانوا كما في الغرب ، أو أحزابا في الشرق ، وفي الحديث الشريف :

«من أتى غنيّا فتواضع له ذهب ثلثا دينه» (3)

3 ـ ان الذي يستفيد من الثروة في غير أهدافها ، كما لو استخدمها للتّباهي والتّفاخر يخسر الآخرة ، كما لا يتنعم بثروته في الدنيا ، بل يخسرها. ان هدف الثروة هو عمارة الأرض ، فإذا استخدمناها للتعـالي على النـاس ، والفسـاد في الأرض فسـوف يكـون مصـيرنا ما انتهى اليه قـارون ، الذي خسف به في الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين.

بينات من الآيات :

(**وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**) :

[78] عند ما نصح المؤمنون من قوم موسى قارون ، بان لا يفـرح بماله ، وان يسـعى به نحو أهدافه الحقيقيّة ، وهو جعل الدنيا وسيلة للآخرة ، وليس هدفا بذاتها.

(**قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي**)

الثروة كانت نتيجة لجهودي ، وبالتالي فليس لزاما أن تعطى في سبيل الله لأنها ليست من عنـده ، هكـذا لم ير أيّ اثر للغيب في حصوله على الثــورة ، بل لم يجد الغيب قــادرا على ان يــذهب به وبثروته جميعا ، هكــذا طغى ، وأضـحى من الفـرحين بما أوتي ، لقد كـانت نفسه ضـيّقة غمرها حب الثروة ، فحجبها عن سائر

---

(3) بحار الأنوار / ج (1) / ص (182).

الكمـــــالات المعنوية ، بل وحجبه عن رؤية المســـــتقبل ، واحتمـال زوال هـذه الـثروة ، بل وهلاكه هو معها ، وحـتى عن رؤية سائر نعم الله عليه التي لا أثر للثروة فيها.

ويعالج القـرآن هـذه النفسـية المريضة بتوسـيع أفقها لتنظر إلى التّــاريخ ، ويتســاءل أين أولئك الــذين كــانوا يملكون القوة والثروة؟! ويقول :

(**أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللــهَ قَــدْ أَهْلَــكَ مِنْ قَبْلِــهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً**)

في الأنصار.

(**وَأَكْثَرُ جَمْعاً**)

في المــال ، وذلك بســبب فســادهم ، ولن يمنع الله الغنى أن يهلك أحدا.

(**وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**)

البعض يتصور أن بإمكانه تـبرير انحرافه ، ولكن حينما ينزل العـذاب فليس ثمة مجـال لسـماع التـبريرات. هكـذا يكـــون الســـير في الأرض ، والنظر في عـــواقب الأمم الغـــابرة ، وزيـــارة المقـــابر ، ودراسة حيــاة الأثريـــاء والســـلاطين الهـــالكين أفضل نجـــاة من غـــرور النعم وطغيانها.

(**فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ**) :

[79] كان قارون يسعى لفـرض سـلطته على النـاس من خلال ثروته ، مما كان يدفعه للتباهي والظهـور بمظهر العظمة ، وقد ورد في الأخبــار : انه لم يكن يخــرج إلّا مع أربعين فارسا ، قد لبسوا زيّا واحدا.

وفي الأثر أيضا : وخــــرج على موسى (ع) في زينته على بغلة شـــــهباء ، ومعه اربعة آلاف مقاتل ، وثلاثمائة وصيفة عليهن الحلّي [4]

وفي خبر ثالث : خرج على براذين بيض عليها سـروج الأرجوان ، وعليهم المعصفرات [5]

(**فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ**)

ولا شك ان في المجتمع من تقع هـــذه المظـــاهر الدنيوية موقعا في نفسه لضـعف ايمانه ، ولأنّه يلتقي مع أمثال قارون في نقطة واحدة هي حب الدنيا.

(**قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْـلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**)

هكذا أفسد قارون بالثروة المجتمع الاسرائيلي ، حيث ضللهم عن قيم الرسالة الى القيم المادية.

[80] أما المؤمنون الـذين ينظـرون للحيـاة من خلال بصـيرة الإيمـان ، فقد تحملـوا مسـئوليتهم تجـاه هـذا الانحراف ، فبادروا إلى النهي عن المنكر.

(**وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**)

وبالتـالي عـبروا الظـواهر إلى ألبابها ، والـدنيا الى الآخـرة ، بل وعرفـوا عاقبة هـذا الموقف ، وهكـذا ينبغي للمؤمن ان يتحمل مسئوليته حينما يتـأثر النـاس بمظـاهر الثروة الباذخة.

---

(4) بحار الأنوار / ج (13) / ص (253).

(5) المصدر / ص (254).

(**وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً**)
هؤلاء لم يتـأثروا بزينة الحيـاة لأن هـدفهم هو الآخـرة التي لا تقاس بالدنيا ، وهذه الكلمات تكشف عن النفسـية العالية التي تتحدى إغراءات الدنيا بقوة الايمـان ، ولا ريب ان هذه التحـدي يحتـاج الى الصـبر ، أو ليس الصـبر ينمي في الإنسان النظرة المستقبلية؟!
(**وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ**)
لقد تقـدم في الـدروس السـابقة : ان من مشـاكل النفس البشـــــرية هي العجلة ، والميل لما هو حاضر ، وحـتى يتجـاوز الإنسـان هـذه المشـاكل ، فانه بحاجة الى الصـبر حـتى يحصل على ما في المسـتقبل وهو العاقبة الحسنة في الدنيا ، والجنة في الآخرة.
[81] (**فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ**)
ولكن لماذا يخسف الله بداره الأرض؟
لعل ذلك حتى لا تغر بما فيها من زينة أحد غيره.
ان مقـام الظـالمين يكتسب نحوسـته منهم فيسـتحق الهلاك ، هكذا أهلك الله القرى لما ظلم أهلها.
(**فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ**)
حـتى الـذين تجمعـوا حوله ، كـانوا يريـدون شـيئا من دنياه ، أما وقد ذهبت من يده فهو لا يسوى عندهم شـيئا ، بل لو حاولوا نصره لما استطاعوا أبدا.
(**وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ**)

وهــذه الآية مثل على الحقيقة الآنفة «**أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ**».

وقد نهى النــبي (ص) ان يختــال الرجل في مشــيته فقال :

«**من لبس ثوبا فاختـــال فيه خسف الله به من شـفير جهنم ، وكـان قـرين قـارون ، لأنه أوّل من اختال فخسف الله به وبداره الأرض**» [6]

[82] وبعد ما خسف بقارون ، وانتهى كل ملكه تبيّنت للذين تمنوا مكانه حقيقتان :

الاولى : عرفوا كذب ما قاله لهم قـارون من ان هـذه الأموال من عنده ، منكرا أنّ الله هو الـذي يوّسع ويضـيّق على من يشاء ، والدليل أنّ الله هو الذي سلب منه ماله ، والذي يقدر على سلب المال بهـذه الكيفية لهو قـادر على إعطائه.

(**وَأَصْــبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَــهُ بِــالْأَمْسِ يَقُولُــونَ وَيْكَـأَنَّ اللــهَ يَبْسُــطُ الــرِّزْقَ لِمَنْ يَشــاءُ مِنْ عِبــادِهِ وَيَقْدِرُ**)

ثم حمـــدوا الله انهم ما انحرفـــوا مع قـــارون ، والا لشملهم العذاب.

(**لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا**)

الثانية : عرفوا أن الكافر الذي يكابر الله ، ولا يستفيد من نعمه في أهــدافها الحقيقية يفشل في الحيــاة ، وأنّ المفلح هو المؤمن الـذي يعمل الصـالحات ، كما أكّد على ذلك أهل العلم الإلهي في الآية (80).

---

(6) نور الثقلين / ج (4) ص (140).

(**وَيْكَأَنَّهُ**)
اي ويل لك يا قارون انه ...
(**لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ**)
والعاقبة للمتقين.
[83] وجـــاءت في خاتمة الـــدرس آية تـــوجز عبرها وحكمها : ان رسالات الله نزلت حتى تزكّي أفئـدة النـاس من دنس الاستكبار والفساد ، وتطهر جنبـات المجتمع من المسـتكبرين والمفسـدين ، فهـذا فرعـون علا في الأرض واسـتكبر ، فقصم الله ظهـره حين بعث موسى برسـالاته وآياته ، ثم نبذ فرعون وجنـوده في اليم ، وقـارون إذ بغى على بني جلدته ، ففسد في الأرض خسف الله به وبـداره الأرض بدعوة موسى (ع).
ان فرعـــون لهو الامثولة الظـــاهرة للاســـتكبار ، وان قارون لهو الأحدوثة البيّنة للفساد.
وإذ يضرب الله بهما مثلا فلان الأمثـال تضـرب بأوضح المصـــاديق ، وأشـــدّها إثـــارة ، بينما تتسع عبرتها لكل من يكون مثلهما بنسبة وجود صفتهما فيه.
ان القلب الـــذي يـــنزع نحو العلو في الأرض ينطـــوي على فرعون صـغير ، والفـؤاد الـذي يهـوى الفسـاد يحمل في ذاته قارونا بقدره ، ورد في الحديث :
«**طـــوبى لمن أطـــاع موسى تقـــواه ، وعصى فرعون هواه**»
وكما ان النـــار تحـــرق ما حولها بقـــدرها ، كـــذلك الانحراف يؤثر بقدره ، ولا يمكن

ان ننكر طبيعة الحــرق في النــار حــتى ولو كـانت قبسا ، كذلك لا يجوز ان نستهين بخطر الاسـتكبار والفسـاد حـتى ولو كان بقدر ذرة ، والــدنيا دار ابتلاء وتمحيص ، ولا بد ان يتطهر القلب من أثـار التكـبر والفسـاد حـتى يضـحى أهلا للجنــة. دار ضـيافة الله ، ومقـام كرامته ، ومـأوى أوليائه وأحبائه.

(**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيـدُونَ عُلُـوًّا فِي الْأَرْضِ**)

أما الطغـاة وأوليـاؤهم فـان لهم دارا أخــرى ، حيث يساقون الى النار وساءت مصيرا.

وأيّ امتحان عسير يتعرض له أهل الولاية والسياسة ، حيث يطالبهم الرب بان ينزعوا عن قلـوبهم رداء التكـبر ، ويعيشـوا للنـاس ومع النـاس ، وفي مسـتوى المحـرومين من الناس؟! واين تجد مثل هؤلاء؟!

بلى ، كـان ذلك أمـير المؤمـنين علي بن أبي طـالب (ع) حيث يروي عنه راذان :

«**انه كــان يمشي في الأســواق وهو وال يرشد الضـال ، ويعين الضـعيف ، ويمّر بالبيـاع والبقّـال ، فيفتح عليه القرآن ويقرأ هذه الآية ، ويقول : نزلت هــذه الآية في أهل العــدل والتواضع من الــولاة ، وأهل القدرة من سائر الناس**» [7]

وكل من طلب الرئاسة بغير حقها في كل حقل حــتى ولو كـان ضـمن قيـادة حـزب أو تجمع أو هيئة ، بل وحـتى رئاسة عشيرته وأسرته تشمله هذه الآية.

يقول الامام علي (ع): وهو يصف الـذين شـقوا عصى الأمّة في عصره ، وفرقوها يقول :

---

(7) نور الثقلين / ج (4) ص (144).

«فلما نهضت بــالأمر نكثت طائفة ، ومــرقت أخــرى ، وفسق آخــرون ، كــأنهم لم يســمعوا الله سبحانه إذ يقول : «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيــدُونَ عُلُــوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَســاداً وَالْعاقِبَــةُ لِلْمُتَّقِينَ» بلى .. والله لقد ســــــمعوها ووعوها ، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم ، وراقهم زبرجها» [8]

ونقــرأ حــديثا يجعل كل حب للاســتعلاء حــاجزا بين الإنسان ودخول الجنة ، يقول الامام علي (ع):

«الرجل يعجبه شــراك نعله ، فيــدخل في هــذه الآية» [9]

(**وَلا فَساداً**)

إنّ اجلى مصــاديقه : تخــريب قيم المجتمع ومحاولة السيطرة عليه عبر الـثروة ، والسـعي وراء إفسـاد ضـمير أبنائه بالرشوة.

ومن مصـاديقه : إفسـاد اقتصـاده بـالغش ، وسـرقة جهـود الفقـراء بوسـائل غـير شـريفة ، والتلاعب بـأرزاق العبـاد بالاحتكـار ، ولكن لا يتوقف الفسـاد عند هـذا الحد ، بل شـــهوات الـــدنيا جميعا تـــدعوك الى الفســـاد إذا لم تضبطها في حدود العقل والشـرع. أو ليس الإسـراف في اســتهلاك المــوارد الطبيعية ينشر الفســاد فيها ، كــذلك الإكثـار في الطعـام والجنس يرهق جسـمك ، وهو بـدوره يعتبر ضربا من الفساد؟!

أو ليس طلب المزيد من الحقـــوق في مقابل القليل من الواجبات يرجح كفة الفساد في حياتك؟! بلى .. لـذلك جاء في الحديث في صفة المؤمن :

---

(8) المصدر / ص (143).
(9) المصدر / ص (144).

«المؤمن حسن المعونة ، خفيف المؤنة»

وأقولها بصـــراحه : ان منهج الاســـتهلاك والشـــره والحرص على الـدنيا في أبنـاء المجتمع هو الـذي يـؤدي ــ بالتالي ــ الى سـيطرة المـترفين من أولي الـثروة علينا ، ومن خلالهم تحكمنا الإمبريالية الدوليـة. ان المـترفين هم الجـزء الظـاهر من جبل الثلج في فسـاد الاقتصـاد. انهم فروع شجرة ضربت بعروقها بعيدا في أعراض المجتمع.

ان الركض وراء الربح السريع ، والتهاون في العمل ، والبحث عن الرفـاه والرخـاء المجـانيين ، وتـرك الإتقـان ، والتطفيف في العمـــل. كل هـــذه عوامل للانحطـــاط الاقتصادي ، الذي يؤدي بدوره الى الفقر والتبعية.

متع الـدنيا وسـائل بلـوغ الآخـرة ، وأفضل المنـاهج للتحـــرز من الفســـاد الزهد في الـــدنيا ، دعنا نتلـــوا معا الحديث التالي في تفسير الآية ، وبيـان المصـاديق الخفيّة منه. الحديث يقول

روى حفص بن غياث قال ابو عبد الله (ع):

ما منزلة الـــــدنيا من نفسي الا بمنزلة الميتـــــة. إذا اضـــــطررت إليها أكلت منها ، يا حفص! ان الله تبـــارك وتعـالى علم ما العبـاد عـاملون ، وإلى ما هم صـائرون ، فحلم عنهم عند أعمالهم السيئة لعلمه السـابق فيهم ، فلا يغرنك حسن الطلب ممن لا يخاف الفـوت ، ثم تلا قوله : «**تِلْـكَ الـدَّارُ الْآخِـرَةُ ...**» الآية ، وجعل يبكي ويقـول : ذهبت ـ والله ـ الأماني عند هذه الآية

قلت جعلت فداك ، فما حد الزهد في الدنيا؟

فقال :

قد حدّ الله ـ عز وجل ـ في كتابه فقـال : «لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ»[10]

وإذا كان الامام الصادق (ع) يبكي عند تلاوة هذه الآية خشـية الا يكـون ممن تشـملهم فكيف بمثلي ممن اسـتبد بقلبه حب الـدنيا ، وحليت في عينه الضـيّقة ، واسـتهوته الرئاسـات وطلبها بكل وسـيلة؟! أعاذنا الله جميعا منها ومن شرورها.

(**وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**)

الـذين يحفظـون أنفسـهم من نـار جهنم بـالتزام نهج الحق ، وتعاليم الشرع في كل صغيرة وكبيرة.

---

(10) نور الثقلين / ج (4) / ص (143).

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا
يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (
84) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ
قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ
مُبِينٍ (85) وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاَّ
رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ (86) وَلا
يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى
رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87) وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ
إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ
الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88))

كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ

هدى من الآيات :

كما في خـواتيم السـور نتلو في الـدرس الأخـير من هذه السورة أهم ما جاء فيها من بصائر نشير إليها :

1 ـ تختلف الحســنات عن الســيئات في أن جزاءها مضاعف ، فبينما يجازى أصحاب السيئات بقـدرها ، يعطى أصـحاب الحسـنات عشـرة أضـعاف ما عملـوا من الأجر ، ومثل الســيئات والصــالحات في الــدنيا ما يلي : لو أردت حرق بيدر من القمح يكفيك ان تشعل النار فيه حتى تـأتي عليه وتحوله رمادا ، ولكن هل يقدر الرماد على حرق بيدر آخر. كلا .. أما لو زرعت حبة قمح فانها تتحول الى سـنبلة ، وتصير عشـرات الحبـوب ، الـتي إذا زرعت تحـولت الى سنابل جديـدة ، ومن ثم الى بيـدر آخر ، وهكـذا سـنة الله في الحيــاة ، فقد بـــنى الله الكـــون على أســـاس نمو الصالحات ، وتحديد السيئات ، ذلك لان كل ما في الكــون من قوانين وسنن يساعد بفعالية على البناء ،

بينما لا تساعد الهدم الا في ظل قوانين الهلاك الفطرية.

الــذي يبــني يعمل معه كل ما في الكــون لأنه الآخر يبــني ، ونسـتوحي من هـذا فكـرة هامة وهي : ان أفضل وسيلة لنمو الإنسان وتكامله ليس هدم الآخرين وانما بنـاء ذاته ، لأنه بالبناء سوف تتفاعل معه قوى الطبيعة وسـننها ، أما عن طريق الهدم فهو يخسر كل ذلك.

2 ـ ان الحركـات القسـرية الـتي لا تنسـجم وطبيعة الحياة يحكمها الفشل ، فبالرغم من ان الظلم والبغي وما أشـبه ، قد فسح له ربنا المجـال ليختـبر ارادة البشر ، الا انه لا يـدوم باعتبـاره حركة قسـرية فالـذين يخرجـون من بلادهم بـــالظلم لا بد ان يعـــودوا اليه ولو بعد حين ، وفي التــاريخ تمت هجــرات قســرية كثــيرة ، بعضــها من أجل الرسالة ، وبعضها من أجل الكلأ والمـاء ، وبعضـها بسـبب الإرهـاب الحـاكم ، ولكن أصـحابها كـانوا يعـودون ولو بعد قرون منتصرين.

وهــذا يــدل على ان تلك الأعمــال الــتي جــرت على الــرغم من العدالة والحق في الكــون ، محكومة بالفشل وقد انتهت بالفعل ، وهــذا ما تؤكــده الآية الثانية في هــذا الدرس ، والـتي نـزلت على المهـاجرين في المدينة ، في الوقت الذي كان أكـثرهم لا يحلمـون بـالعودة الى وطنهم الاول.

3 ـ على الإنسان الذي يحمل مشعل العلم والرســالة ان لا يتصـــــور بـــــأن ذلك له بل انه من الله القي اليه ، وبالتـالي يجب أن لا يسـعى للحفـاظ عليها وعلى مركـزه فيها حــــتى لو كـــان ذلك على حســـاب قيمه ومبادئه ، فالرسول لو لا رسالة الله لكـان فـردا عاديـا. اذن فالـذي منحه الرســالة هو القـادر ان يبقيه في علو الشـأن الـذي بلغه بسببها ، ويجب ان لا يفكر بأن يكون ظهرا للكـافرين ، ليكتسب منهم القدرة ، أو يتنازل عن بعض ما أنـزل اليه طمعا في تأييدهم (كما فعل النصارى بدينهم

فافسدوه) وهذا يجري في علماء الدين ، لأن القرآن نـزل كمافي الحديث على لغة :

«ايّاك أعني ، واسمعي يا جاره»

الخطاب موجه للرسول ، ولكن الذي يجب ان يسمع هم الـذين يسيرون على خطّه ، ويعملـون بمنهجه وهم علماء الدين ، فسرّ عظمتهم هو الرسالة الـتي يتحملـون مسئوليتها ، فلو فكّروا أن يكتسبوا الشهرة والعظمة من مصدر آخر كالكفار ، أو السلطات الفاسدة ، أو الجماهير المنحرفة ، فإنّ ذلك يكـون خرقا لسنن الله في الحياة ، ومن ثم عـاملا في انحطـاط مـنزلتهم ، وربما نهـايتهم ، فليحترموا أنفسهم والعلم الـذي تحملـوا أمانته ، وليستقيموا ، وليتحدّوا الصّعاب ، وليتجاوزوا العقبات بالتوكل على الله ، والعمل بهدى الرسالة.

وفي الأخير تختم السورة بالتذكرة بالتوحيد ، وهو لا يعني الإيمان بالله ، وانه فاطر السموات والأرض فقط ـ فهذا أمر لا ريب فيه ـ قال تعالى : (**أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**) [1] وقال : (**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**) [2] ولكن مشكلة البشر الشرك ، حيث يخلط بين القيم الإلهية السامية ، والاخرى المادية الجاهلية. الأمر الـذي لا يجعله يخلص العبادة لله.

وأكثر الذين ضلّوا منذ خلق الله آدم حتى اليوم انما ضلّوا بسبب شركهم ، ومشركي العرب انما عبدوا الأصنام تصوّرا منهم بأنها تقربهم الى الله زلفى : «**ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى**» [3]

---

(1) إبراهيم / (10).
(2) لقمان / (25) ، الزمر / (38).
(3) الزمر / (37).

وهذه الفكرة تتناسب مع الفكـرة السـابقة ، انما يعبد القوى التي تملك ذلك كالاغنياء ، والحكومـات ، والنـاس ، بينما ينبغي له أن يعبد إله الناس وليس الناس أو كبراؤهم واغنياؤهم.

بينات من الآيات :

[84] ان عامل البناء يسبق عامل الهدم في الحياة :

(**مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها**)

وفي الحديث القدسي :

«**لما اعطى الله إبليس ما أعطـاه من القـوة ، قـال آدم : يا رب! قد سـلّطت إبليس على ولـدي ، وأجريته منهم مجرى الدم من العروق ، وأعطيته ما أعطيت فمالي ولولدي؟ قـال : لك ولولـدك السـيّئة بواحدة ، والحسنة بعشر أمثالها ، قال : يا رب زدني ، قال : التوبة مبسوطة حتى تبلغ النفس الحلقوم ، قال : يا رب زدني ، قال : أغفر ولا أبالي**» [4]

وقـال عز وجل : «**مَثَـلُ الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْـوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ**» [5] وعلى العكس من ذلك تقـــوم الحيـــاة على محدودية السيئة (الهدم).

(**وَمَنْ جـاءَ بِالسَّـيِّئَةِ فَلا يُجْـزَى الَّذِينَ عَمِلُـوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ**)

---

(4) كلمة الله ص (354).

(5) البقرة / (261).

وهــذا وذاك من نعم الله على الإنســان ، والشــقي الشــقي هو الــذي لا يســتفيد من بحر رحمة الله ، فتزيد ســيئاته على حســناته مع ان تلك بواحــدة ، وهــذه بعشر أمثالها.

قــال ابو عبد الله (ع) : كــان علي بن الحســين (ع) يقول :

«ويل لمن غلبت آحــــــاده» فقلت له : وكيف هـذا؟! فقـال : «أما سـمعت الله عز وجل يقـول : (مَنْ جـاءَ بِالْحَسَـنَةِ فَلَـهُ عَشْـرُ أَمْثالِها وَمَنْ جـاءَ بِالسَّـيِّئَةِ فَلا يُجْـزى إِلَّا مِثْلَها) فالحسـنة الواحـدة إذا عملها كتبت له عشـرا ، والسـيئة الواحـدة إذا عملها كتبت له واحدة ، فنعـوذ بالله ممن يـرتكب في يـوم واحد عشر ســيئات ، ولا يكــون له حســنة واحــدة فتغلب حسناته سيئاته» [6]

وتشــير خاتمة الآية إلى أنّ جــزاء العمل في الآخــرة ذات العمل بعد ان يتجسد في صــــورة مادية بشــــعة ، فالظلم في الدنيا ذاته هي الظلمات الـتي تحيط بصـاحبها في الآخرة ، ومن أكل امـوال اليتـامى ظلما فانما يـأكلون في بطـونهم نـارا ، وسيصـلون سـعيرا ، اما النتن الـذي يخرج من أفواه الفاسقين فانه ذاته الكذب الذي افكوه أو الغيبة والتهمة والفرية التي مارسـوها في دار الـدنيا. دعنا نســتغفر ربنا حــتى يقينا شر الســيئات الــتي اقترفناها ، والذنوب التي احتطبناها.

[85] الحياة قائمة على أساس سبق البناء لا الهـدم ، وأن الحركــات القســرية نهايتها الفشل ، بينما الحركــات الـتي تجـري وفق سـنن الله في الخلق تنجح وتثمر ، لأن عامل الــزمن يكــون في صــالحها ، وهــذه الفكــرة هي منطلق لفكرة أخرى وهي ضرورة انتصار الحركات الإلهية عبر الأجيال.

(**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ**)

---

(6) نور الثقلين ج (1) ص (785).

اي ان الـذي أنـزل القـرآن وفرضه عليك يـردك الى وطنك الذي هجرك منه الكفار والمشركون.

ولكن لمـاذا قـال تعـالى : (**إِنَّ الَّذِي فَـرَضَ عَلَيْـكَ الْقُرْآنَ**) ولم يقل ان الله العزيز مثلا؟

الجـــواب : هنـــاك قاعـــدة بلاغية تقتضي انســـجام المفـردات مع السـياق ، وهنا نجد ترابطا وثيقا بين فـرض القرآن وعودة الرسـول الى بلـده ، فما دام الله هو الـذي أعطى الرسـول منهج العمل ، وفـرض عليه الالـتزام به ، فانه يجعل هـــذه الأداة فعالة وكفيلة بأخذ حقه ، وبلـــوغ أهدافه كعودته إلى بلاده منتصـــرا بعد الهجـــرة ، وهـــذا ينطوي على فكرة حضـارية هي : ان المهـاجر لا يمكن أن يعود الى بلـده ، إلّا إذا طبّق البرنـامج الالهي وهو القـرآن الحكيم.

ثم يشير القرآن الى ما يبدو انه تعليل للحكم السـابق إذ يقول :

(**قُـلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جـاءَ بِالْهُـدى وَمَنْ هُـوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**)

ان الهـــدى ينســـجم مع ســـنن الله في الخلق ، بينما يتنافر الانحراف معها ، وبالتالي فالذي يتّبع الهدى اعتقـادا وعملا سيصل إلى أهدافه ، لأن الله المهيمن على الخلق هو العليم بالمهتـدين فينصـرهم ، بينما أصـحاب الضـلال يحبط أعمالهم.

[86] والضمانة الرئيسية لوصول الإنسان الى الجـادّة هي الاستقامة على الهدى ، وبدونها لا يزداد إلا بعدا عنها ، فلو اسـتجاب للضـغوط أو الإغـراءات الـتي تحف طريقه نحو تطلعاته واهدافه فهل يصل إليها؟ بالطبع كلا ..

(**وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَـةً مِنْ رَبِّكَ**)

اذن فلا تطلب الجـاه أو الشـهرة والعلو من عند غـير الله.

(**فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ**)

والظهير هو المعين.

[87] ويؤكد القرآن هذه الفكرة مرة أخرى ويقول :

(**وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ**)

ويثنيك عنها الكفـار بوسـائلهم المختلفة ، فمن اتبعهم أو نصرهم لا ينتفع من آيات الله في الخلق ، ولا آيات الله في الكتاب.

(**وَادْعُ إِلى رَبِّكَ**)

اي استمر في الدعوة الى الله وحده.

(**وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)

بخضوعك لهم.

[88] (**وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ**)

لقد تقـدم القـول بـأن الشـرك هو مشـكلة الإنسـان الأولى ، فـترى الكثـير من النـاس يخضـعون لله ظـاهرا ، ولكنهم يخضـــعون في قسم كبـــير ومهم من حيـــاتهم للسـلطة ، أو المـال ، أو الشـهرة ، أو .. أو .. ، وإذ يـدعو الله للتوحيد المخلص فلأن الواقع ينسجم مع هذه الـدعوة ، حيث لا يوجد إله سواه.

(**لا إِلهَ إِلَّا هُوَ**)

الإنســان مفطــور على الخضــوع للقــوة ، والجــاه ، والـــثروة ، ولكنه يضل الطريق فيخضع لغـــير الله ، بينما الله هو مطلق القــوة ، والــثروة ، و.. و.. ، فــتراه تــارة يتصور والده هو مصدر المـال ، أو أنّ السـلطة هي منتهى القوة ، فيخضع لهما مخالفا هدى الله وأوليائه.

كما ان من طبيعة الإنســـان البحث بين متغـــيرات الحيــاة عن شــيء ثــابت يعتصم به ، والله يؤكد له ان لا شيء ثابت غير الله.

(**كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**)

لا ريب ان الله باق ، لكن الآية تؤكد على ان ما يتعلق به سبحانه هي الأخرى باقية ، فكلّ شيء هالك إلّا ما كـان لوجه الله تعـالى ، فوجه الشــيء هو الظـاهر منه ، ووجه الله هو سبيله ونهجه.

(**لَهُ الْحُكْمُ**)

السلطة.

(**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)

فله العاقبة واليه المنتهى.

سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السورة :

1 ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم :

«**من قــرأ ســورة العنكبــوت كــان له من الأجر حسنات بعدد كلّ المؤمنين والمنافقين**»

تفسير نور الثقلين ج 4 / ص 147

2 ـ عن أبي عبد الله الحسين ـ عليه السلام ـ أنّه قال :

«**من قــرأ ســورة العنكبـوت والــروم في شــهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين فهو ـ والله يا أبا محمد ـ من أهل الجنة ، لا أســتثني فيه أبــدا ، ولا أخـاف أن يكتب الله عليّ في يميـــــني إثما ، وانّ لهـــــاتين السورتين من الله مكانا**».

تفسير مجمع البيان ج 8 / ص 271

الإطار العام

الاسم :

العنكبوت حشرة حقـيرة إلّا أنّ نسـجها يـرى في كـلّ مكـان ، وهي تعتمد عليه كأنّه فعلا بيت معمـور إلّا أنّ هبّة نسـيم كفيلة باقتلاعه .. هكـذا يضـرب ربّنا مثلا للعلاقـات الشـركية ، ويسـمّي به سـورة تحـدثنا عن حقيقة الـدنيا ، وعلاقات أبنائها ببعضهم ، وفتنتها للمؤمنين.

ما هي الـــدنيا؟ وما هي حقيقتهـــا؟ وما هي علاقـــات أبنائها ببعضهم؟ وما هو مصيرها؟ وما هي مسئوليتنا فيها؟

إن عشــــرات من الأســــئلة ترتسم يوميا في أذهاننا ونحن نصارع ظواهر الدنيا ، ونجد في الذكر الحكيم بصائر جليّة تهـدينا ليس فقط الى الحقـائق وانما ترفع السـتائر الغليظة التي لا تدعنا نرى الدنيا على حقيقتها ، ولعلنا نجد منظومة متكاملة لهذه البصائر هنا في سورة العنكبوت.

ويبدو أن الهدف الأسمى من هذه البصـائر الـتي تجلو بها الأفئـدة الزّاكية بنـاء المـؤمن الصـابر الـذي يتحـدى كالجبل الأشم عواصف الفتن.

لقد شـاهدنا عـبر الطواسـين الـتي سـبقت سـورة العنكبـوت ، كيف جاهد رسل الله الأمم الفاسـدة. وينبغي أن يسير على هداهم الصالحون الذين يجاهدون الفسـاد ، ويصـــبرون على الأذى ، وينتظـــرون نصر ربهم ، وهو كما يبدو موضوع هذه السورة.

من أجل تحقيق هذا الهدف الـتربوي المتسـامي لا بد أن يعرف المجاهد حقيقة الدنيا ، وحكمة فتنها ، وضرورتها ، وأن الذين يرتكبون السـيئات لا يسـبقون ربهم ــ هـذا ما نجـده في الآيـات الثلاث الأولى ــ ويعـرف ان مـدة الفتنة محدودة إلى أجل مسمّى ، حين يلقى المجاهد ربه ليوفيه جزاءه.

أما الضغوط فتـأتي من الوالـدين اللـذين قد يجاهـداه على الشـرك ، وقد تـأتي من المجتمع الفاسد الـذي يريد أن يفتنه ، وقد تأتي من السلطة الفاسدة التي مهما كانت فتنتها شديدة فانها أخف من عذاب الله.

ويعـود القـرآن يـذكرنا بقصص نـوح وإبـراهيم ولـوط وسـائر الأنبيـاء العظـام ــ عليهم السـلام ــ وكيف جاهـدوا رفض الفاســــــــــدين من أممهم ، وان الله أهلك أولئك الفاسـدين ، ونصر عبـاده المخلصـين. كل ذلك يـذكرنا به الرب لعلنا نتخذه قدوة ، ونعرف أن سـنن الصـراع كـانت جارية عند المقـــربين الى الله ســـبحانه ، وهم الـــذين اختـارهم الله على علم ، فكيف بنا ولمّا يعلم المجاهـدون منا والصابرون.

وعــبر قصة إبـراهيم والحـوار الـذي جـرى بينه وبين قومه المشركين يذكرنا الـرب بزيف الأوثـان ، وانها تعبـير عن العلاقـــات الاجتماعية الباطلة الـــتي يتجلى زيفها في الآخـرة ، حيث أن الكفـار الـذين اتخـذوا الأوثـان محـور تجمعهم يلعن بعضهم بعضا.

ويبـدو ان الآيـات (36 ــ 40) الـتي اختصـرت قصص العديد من الرسل الكـرام ، وأو جـزت القـول في مصـير المكذّبين بهم تبين السنن الإلهية التي جرت فيهم جميعا ـ سنة الإنذار ، سنة الرفض ، سـنة العـذاب المـدمر ــ لعلنا نعرف حقائق كـبري من خلال تلك القصص وبالـذات فيما يتصل بالجهاد في سبيل الله.

وبعدها مباشـرة نقـرأ الآية الـتي سـميت السـورة بها ولعلّها تبين أهم بصـائر السـورة أو تختصر بصـائرها جميعا وهي ان العلاقـــات الشــــركية تشــــبه في زيفها ، وثقة أصحابها بها ، واعتمادهم عليها العنكبوت التي اتخــذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت.

ما أكـرم هـذه الآية ، وما أعظم البصـائر الـتي فيها ، وما أحوجنا إليها ونحن نصارع المستكبرين والمترفين.

انها تبين واقع هؤلاء المشركين ، وأنه أوهن الـبيوت ، وأن عاصفة الرفض تقتلعها بإذن الله.

لمـاذا هم كـذلك؟ لأن بنـاء الخلق قـائم على أسـاس الحق ، أما بناؤهم فهو متشـبث بنسج العنكبـوت الباطل ، ومن خلال هــذه البصــيرة يعرفنا الــذكر بحقيقة الــدنيا ، والتي لو عرفناها هـانت علينا مصـيباتها ، واحتقرنا زينتها ، واتقينا مكرها ، وانقشعت عن بصائرنا غشاوة غرورها.

ما هو البرنــامج الــذي يجعلنا نعــرف حقيقة الــدنيا ، ونتحـدى الفتن الـتي تتـوالى علينـا؟ انه يتلخص في تلاوة الكتاب ، واقامة الصلاة ، وذكر الله.

ويتعــرض الســياق لبيــان الموقف من أهل الكتــاب ، ولعلّه بهــــدف تكميل الصـــــورة ، حيث أن الموقف من المفسدين أضحى واضحا من خلال قصص الرسل ، وبقي الموقف من اتبـاع الرسل ، ولأن تكـريمهم يقتضي تكـريم أتباعهم ، ولأن جو

السـورة هو جو الجهـاد ، والجهـاد مع الظلم والكفر بحاجة الى وحـدة الصف ، فانه كـان مناسـبا الحـديث عن أهل الكتاب ، وأنه ينبغي جدالهم بالتي هي أحسن ، وبيـان أسس الوحدة التي تجمعنا وإيـاهم ، وانما القسـوة تكـون مع الظالمين منهم (كما تكون مع الظالمين منا).

ويبين السياق مصداق الجـدال بـالتي هي أحسـن. أي شـواهد صـدق الرسـالة الـتي تقنع المنصـفين من أهل الكتاب ، أما الكافرون فإنهم يجحدونها (من واقع كفـرهم) فهـذا النـبي لم يكتب ولم يقـرأ من قبل وقد جـاء بآيـات تتـبين في صـدور العلمـاء فيصـدقونها ، بيد أن الظـالمين يجحدون بها (من واقع ظلمهم) وهم يطـالبون بالمزيد من الآيـات ولا يعلمـون أن أمر الآيـات بيد الله لا الرسـول ، وهـذا الكتـاب العظيم أليس فيه آية كافية ، والله أعظم شهيد على صدق رسالاته بما يهدي القلوب الصـادقة إليها وبنصره وتأييده لها.

ويجادل الذكر الـذين يسـتعجلون بالعـذاب ، ويقـول : انه سوف يؤخّر الى أجل مسمى ، ولكن يـأتيهم بغتة وهم لا يشـعرون ، وان جهنم لمحيطة بالكـافرين ، حيث تغشاهم النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

وهكذا يثبّت الله الذين آمنوا ، ويعلمهم كيف يجـادلون عن الرسـالة ، ولكن مـاذا عن الضـغوط الـتي يتعرضـون لهـا؟ يقـول ربنا : ان الهجـرة الى أرض الله الواسـعة ، ومعرفة أن الموت قدر لكل نفس ، وان العاقبة هي الأهم ، حيث يبـوّء الله الصـالحين جنـات جـزاء أعمـالهم ، وان علينا الصـبر على البلاء والتوكل على الله عند الشـدائد حتى نستحق تلك الجنات.

وان الأرزاق بيد الله ، فلا يخشى المجاهد قطع رزقه بسـبب الهجـرة ، أو لأمـره بـالمعروف ونهيه عن المنكـر. ويفصل الذكر الحديث في ذلك ، ويبين (**أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ**

الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشـاءُ وَيَقْـدِرُ) وانه هو الـذي (**يُنَـزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها**).

ولكي تطمئن نفوس المجاهـدين يـبين القـرآن حقيقة الـــدنيا ، وانها لهو ولعب ، وانما الحيـــاة حقا في الـــدار الآخرة.

وان علاقات المشركين باطلة ، والدليل انها لا تنفعهم عند الشدة ، فحين تحيط بهم أمواج البحر ، وتكاد تبتلعهم يدعون الله مخلصين له الدين ، ثم يشـركون بعدئذ باللـه. كفرا بنعمته ، ومزيدا من التمتع بملذات الدنيا الزائلة التي سوف يعلمون مدى خسارتهم بها.

ثمّ يبين الله انهم يؤمنـون بالباطل ، ويكفـرون بنعمته عليهم ـ والرسالة أعظم نعمة ـ ألا تراهم لا يعتـبرون بهـذا الحكم الإلهي الـــذي يـــؤمن لهم الســلام في مكة ، بينما يتخطف الناس من حولهم.

وبعد أن يبيّن مدى الظلم الذي يقترفه الذين يفــترون على الله كـذبا بحق أنفسـهم والنـاس ، يبشر المجاهـدين بأنه سيهديهم سبله التي تقربهم إليه ، وتساعدهم للتمكن في الأرض ، وان الله لمع المحسنين.

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا
وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (3) أَمْ
حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما
يَحْكُمُونَ (4) مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ
لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ
لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (6) وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (7) وَوَصَّيْنَا
الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما
لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

---

8 [جاهداك] : اي أجهدا أنفسهما من أجل الضغط عليك.

فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَـأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ
(8) وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ لَنُـدْخِلَنَّهُمْ فِي
الصَّالِحِينَ (9)

أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا؟!

هدى من الآيات :

تفتتح ســـورة العنكبــوت ، الــتي تهــون من شــأن الحضـارات الجاهلية آياتها الكريمة ببيـان حقـائق شـتى ، تمهد بها لبيان سنن الله في المجتمعات الفاسدة.

أولا : لن يــترك النــاس من دون فتنة تمحصــهم كما تمحص النـار الـذهب ، وانها سـنة جارية غـابرا وحاضـرا ، ليعلم الله الصادقين والكاذبين في ادعائهم الايمان.

ثانيا : خطأ يـــزعم المســـيئون انهم يتحـــدّون ربهم بذنوبهم كلا .. انهم لا يعجزون.

ثالثا : وهناك أجل مسمى ، لا بد أن يـأتي المحسـنين فينتهي بلاؤهم ، والمســـــيئين فتنتهي أيــــــام مهلتهم فيخسرون.

رابعا : الذين يجاهدون أهواءهم وشـياطين الإنس انما يعملون لأنفسهم (وهم

بالتـــالي لا يربحـــون الله شـــيئا) ذلك لأن الله غـــني عن العالمين. ومن أعظم مكاسب هؤلاء ان الله سيكفر عنهم سيئاتهم وليجزينهم أحسن ما كانوا يعلمون.

خامسا : من العقبات التي تعترض طريق المجاهـدين عـادة ضـغوط الاسـرة ، وقد أوصـانا ربنا بالإحسـان الى الوالدين ، ولكن أمرنا بتحدي ضغوطهم التي تـدفع باتجـاه الشرك بالله ، وسيقف الجميع أمام رب العزة لينبؤهم بما كانوا يعملون ، وليوفيهم أجورهم ، فالـذين آمنـوا وعملـوا الصالحات يدخلهم في الصالحين.

هكذا تـأتي فاتحة السـورة أذانا بما سـوف تبيّنه آياتها الكريمة.

بينات من الآيات :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تشير هـذه البسـملة الى ما تحمله هـذه السـورة من معان من تجاوز عقبة الذات ، وترك الدنيا وزينتها ، ولا يتم ذلك إلا بالتوكل على الله ، وإعمـــــار القلب بالإيمــــان ، وبالتالي باسمه سبحانه.

[1 ـ 2] (**الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**)

كان بعض اتباع الرسل من المؤمنين المخلصين يلقى في قـــدور الـــزيت ، وتحفر للبعض أخاديد تســـعر نـــارا ، ويلقون فيها أحياء ، وكان البعض ينشـرون بالمناشـير ، أو يقتّلـوا ، أو يصـلبوا ، ولم يفتنـوا في دينهم أو يـتركوه لما يلاقونه في سـبيله ، فثبت الله في اللـوح ايمـانهم ، وقيل لهم ادخلـوا الجنة مع الـداخلين ، وهـذه السـنة جارية في كل زمـــان ومكـــان ، مهما اختلفت الظـــروف وتعـــددت المشارب.

فبعض كان يستمر على الايمـان رغم الفتن ، والبعض عند ما يجد ان السـجن والتعـذيب والتشـريد والقتل ثمن إيمانه ، ينهار إلّا من رحم ربك.

جـاء في الأثر المـروي عن الامـام أبي الحسن عليه السـلام في تفسـير الآية انه قـال لمعمّر بن خلاد : «ما الفتنـة؟» قلت : جعلت فـداك الفتنة في الـدين ، فقـال : «**يفتنون كما يفتن الذهب**» ثمّ قـال : «**يخلصـون كما يخلص الذهب**» [1]

وحكمة الفتنة في الـدنيا أنها تطهر القلب كما يطهّر الـذهب ، وقد صـنع الله الـدنيا بطريقة تتناسب والفتنة ، يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام :

«**ولكن الله ـ جل ثناؤه ـ جعل رسـله أولى قـوة في عـزائم نيـاتهم ، وضـعفة فيما تـرى الأعين من حـالاتهم من قناعة تملأ القلـوب والعيـون غنـاؤه وخصاصة يملأ الأسـماع والأبصـار أداؤه ، ولو كـانت الأنبياء أهل قوة لا ترام ، وعزة لا تضام ، وملك يمد نحوه أعناق الرجـال ، ويشد اليه عقد الرحـال لكـان أهـون على الخلق في الاختبـار ، وأبعد لهم في الاسـتكبار ، ولآمنـوا عن رغبة قـاهرة لهم أو رهبة ماثلة بهم ، فكـانت النيـات مشـتركة ، والحسـنات مقتسمة ، ولكن الله أراد أن يكـون الاتبـاع لرسـله ، والتصـديق بكتبه ، والخشـوع لوجهه ، والاسـتكانة لأمره ، والاستسلام اليه أمورا خاصة لا يشـوبها من غيرها شائبة ، وكلما كـانت البلـوى والاختبـار أعظم كـانت المثوبة والجـزاء أجـزل ألّا تـرون ان الله جـلّ ثناؤه اختبر الأولين من لدن آدم الى آخرين من هـذا العالم بأحجار ما تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، فجعلها بيته الحـرام الـذي جعله للنـاس قياما ، ثمّ جعله بأوعر بقـاع الأرض حجـرا ، وأقل نتـائق الـدنيا مـدرا وأضـيق بطـون الأودية معاشا ، وأغلظ محـال المسلمين مياها ، بين جبال خشـنة ، ورمـال دمثة ، وقرى منقطعة ، وأثر من مواضع قطر السـماء داثر ، ليس يزكو به خف ولا ظلف ولا حافر ، ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم**

---

(1) تفسير نور الثقلين ج 4 / ص 148

نحوه»

وبعد أن بين الامام انه لو كانت مكة في مناطق ذات بهجة وثمر لسقط البلاء قال :

«ولكن الله جلّ وعز يختبر عبيده بأنواع الشدائد ، ويتعبدهم بألوان المجاهد ، ويبتليهم بضروب المكاره ، إخراجا للتكبر من قلوبهم ، وإسكانا للتذلل في أنفسهم ، وليجعل ذلك أبوابا [فتحا] إلى فضله ، وأسبابا ذللا لعفوه ، وفتنة كما قال : «**الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ**» (2)

أجل يتبين الايمان المستقر من العواري حين تجرد العوائل من فلذات أكبادها ، وحين يهجرون خلال حقول الألغام ، ليكونوا طعمة يقتات عليها المتحاربون ، والتعبير القرآني «**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا**» استفهام استنكاري على أولئك الذين يتصورون ان طريق الإيمان مليء بالورود. إن طريق الإيمان صعب.

وقد قال الامام الصادق (ع):

«**هلك العاملون إلّا العابدون ، وهلك العابدون إلّا العالمون ، وهلك العالمون إلّا الصادقون ، وهلك الصادقون إلّا المخلصون ، وهلك المخلصون إلّا المتقون ، وهلك المتقون إلّا الموقنون ، وإن الموقنين لعلى خطر عظيم**» (3)

ويشرح الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ أنواع الفتن التي سوف تبتلى الأمة بها كما جاء في نهج البلاغة : وقام إليه عليه السلام رجل فقال : أخبرنا عن الفتنة وهل سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ عنها؟ فقال عليه السّلام : لما أنزل الله

---

(2) المصدر / ص 150 ـ 153

(3) بحار الأنوار ج 70 ص 245

سـبحانه قوله : «**الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**» علمت أن الفتنة لا تـنزل بنا ورسـول الله ــ صـلى الله عليه وآله ــ بين أظهرنا ، فقلت يا رسول الله ما هذه الفتنة الـتي أخـبرك الله بهـا؟ فقـال : يا علي إن أمـتي سـيفتنون من بعـدي ، فقلت : يا رسول الله : أو ليس قد قلت لي يوم أحد حيث استشـهد من استشـهد من المسـلمين ، وأحـيزت عـني الشـهادة فشق ذلك عليّ فقلت لي : أبشر فان الشهادة من ورائك ، فقال لي : إن ذلك لكـذلك فكيف صـبرك إذا؟ فقلت : يا رسـول الله ليس هـذا [من] مـواطن الصـبر ، ولكن من مواطن البشرى والشكر ، وقال : يا علي سيفتنون بعـدي بأموالهم ، ويمنـون بـدينهم على ربهم ، ويتمنـون رحمته ، ويأمنون سطوته ، ويسـتحلون حرامه بالشـبهات الكاذبة ، والأهـواء السـاهية ، فيسـتحلون الخمر بالنبيذ ، والسـحت بالهدية ، والربا بالبيع ، قلت : يا رسول الله فبأي المنـازل أنـزلهم عند ذلك أ بمنزلة ردة أم بمنزلة فتنة ، قـال : بمنزلة فتنة [4]

[3] ثمّ يـبين الله سـبحانه إن الفتن تصـيب الإنسـان. عمل السـيئات أو الخـيرات ، وان مشـكلة الـذين يعملـون السيئات أو ينهارون أمـام المشـاكل أكـبر لأنهم يخسـرون الدنيا والآخرة.

(**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ**)

والفتن تتباين أشـكالها وصـورها وجوهرها واحد ، كما أن فتن السـابقين كـانت مختلفة ، فقد جـاء في جوامع الجـامع ، وفي الحـديث : «**قد كـان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشـار على رأسه فيفـرق فرقـتين ، ما يصـرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشـاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصـرفه ذلك عن دينه**» [5]

---

(4) المصدر / ص 148

(5) المصدر / وجوامع الجـامع هو مختصر تفسـير مجمع البيـان للعلامة الطبرسي.

ونحن نــرى اليــوم من المجاهــدين الصــامدين تحت تعذيب الجلادين من البطولات النادرة ما يجعلنا نزداد يقينا بصــدق الأخبــار هــذه ، الــتي أنبــأت عن صــبر وصــمود المجاهدين السابقين.

يضـعونهم في تـوابيت مغلقة لعـدة أشـهر بل لعـدة سنوات ، أو يسمرونهم على الحيطان خلال أعوام السجن ، لا ينظفون تحتهم ، أو يلقون بهم في أحواض الأسيد ، أو يعذبونهم بأجهزة تـدار الكمـبيوتر لـتزرع أجسـامهم بـالألم الشديد ، وتمنع عنهم النوم والراحة لأسـابيع ، أو يحرقـون أشد أجزاء بدنهم حساسية بأعقـاب السـجائر ، أو يعتـدون على شرفهم وشرف أخواتهم وأزواجهم أمام أعينهم.

ولكنهم لا يزالون صـامدين بتوفيق الله ، لأن أرواحهم قد صــفت من حب الــدنيا ، وربتهم هــذه الآية الكريمة ، وعرفـوا حقيقة الـدنيا وحقيقة الآخـرة ، فلم يختـاروا على الآخرة شيئا.

وليس المهم أن يعلم النـــــاس إيمانك ، بل الأهم أن يعلم الله صدقك.

[4] مسكين ابن آدم يزعم انه يهـرب من حكومة الله ، أو يعجزه هربا ، ويسبق قضاءه وقــدره ، وانما مثله مثل الرجل الــذي جـاء إلى الامــام الحسن (ع) فقــال له : أنا رجل عـاص ، ولا أصـبر عن لمعصـية ، فعظـني بموعظة ، فقال ـ عليه السّـلام ــ : «افعل خمسة وأذنب ما شـئت : فأول ذلك : لا تأكل رزق الله وأذنب ما شـئت ، والثـاني : اخــرج من ولاية الله وأذنب ما شــئت ، والثــالث : اطلب موضعا لا يراك الله ، وأذنب ما شئت ، والرابع : إذا جاءك ملك المت يقبض روحك ، فادفعه عن نفسك ، وأذنب ما شئت ، والخامس : إذا أدخلك مالك في النـار ، فلا تـدخل في النار ، وأذنب ما شئت» (6)

---

(6) بحار الأنوار / ج 78 / ص 126.

(**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا**) يفوتوننا. كلا ..
(**ساءَ ما يَحْكُمُونَ**)

ما من يوم يمر على الصابرين حتى يقـتربوا يوما إلى رحمة ربهم ، ولا يمر يـــوم على الجلادين حـــتى يقـــتربوا خطوة إلى العذاب.

[5] (**مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**)

وتعطي هـــذه الآية أملا لمن يـــرزح تحت ســـياط الجلادين ، أو في دهاليز المخابرات ، أو المنبوذون بسـبب إيمانهم ، فمتى ما تناهي البلاء قرب الفـرج ، وان جهـادك وصبرك إنما هو بعين الله.

لقد بعث الطاغية العباسي هارون الرشيد إلى الامـام موسى بن جعفر (ع) الذي كان معتقلا عنـده من يسـتميله ، فـرفض الامـام وقـال : ما محتـواه : لا يمر علي يـوم إلّا وأزداد عند ربي ثوابا ، وتــزداد عند ربك عقابا ، وســنلتقي عند ربنا للحساب.

[6] (**وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ**)

عند ما يقـــاوم المـــؤمن ســـلبيات نفسه ، ويتحـــدى ضـغوط الحيـاة يكتب عند الله مجاهـدا ، والجهـاد : بـذل الجهد قدر الطاقة في سبيل الله ، وجهاد الإنسـان يحسب له ، ولن يضيع الله عمل عامل.

وأيام الإنسان كالأوراق النقدية التي تسـقط بسـقوط نظـــام وقيـــام آخر ، فهو إن لم يســـارع إلى تغييرها ، أو تحويلها إلى بضاعة ، ستصبح مجرد أوراق ملونة بدون

رصـيد ، وأيـام ابن آدم إن ذهبت فلن تعـود ، فقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام):

«**ما من يــوم يمر على ابن آدم إلّا قــال له ذلك اليـوم : يا بن آدم! أنا يــوم جديد وأنا عليك شـهيد ، فقل فيّ خيرا ، واعمل فيّ خـيرا أشـهد لك به يـوم القيامة**» [7]

فلنسـتغل الفرصة كيلا تتحـول أيامنا إلى أوراق نقدية لا رصيد لها ، جاء في الحديث : «**الدنيا ساعة فاجعلوها طاعة**» [8]

ولا يزيد ربنا بأعمالنا غنى.

(**إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ**)

[7] (**وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَــيِّئاتِهِمْ وَلَنَجْــزِيَنَّهُمْ أَحْسَــنَ الَّذِي كــانُوا يَعْمَلُونَ**)

وهـذه هي البشـارة الكـبرى ، فـان ربنا ــ عز وجل ــ سيمحي السيئات عمن آمن وعمل صالحا ، ويعطيهم بدل سيئاتهم حسنات ، وهـذه أسـمى نعم الله على المـؤمن ، فلو أن شخصا انتبه ذات صــــباح عند أذان الفجر فتماهل قليلا ، وأخذته الغفــوة ، ثم انتبه ثانية ، وإذا بالشــمس قد طلعت فان عليه أن يصمم لمحو أثر هذا الذنب من نفسه بــأن يقــوم بعمل عظيم لئلا يفتضح في يــوم البعث على رؤوس الأشهاد بأنه لم يصلّ الصبح ذلك اليـوم إلّا قضـاء ، آنئذ لا ينفعه الكـذب ، ولا تجديه الواسـطة ، وأين هي تلك الواسطة التي تستطيع أن تغيّر ما في الكتاب؟!

بلى. في ذلك اليـــوم ينفع شـــيء واحد ألّا وهو الله الكبير المتعال ، والواسطة هي

---

(7) سفينة البحار / الشيخ عباس القمي / ج 2 / ص 739

(8) بحار الأنوار / ج 77 / ص 164.

العمل الصالح ، فمن عمل صـالحا فـان الله يبـدل سـيئاته حسنات ، وتكتب له في قائمة أعماله.

اذن فلنبـادر إلى اسـتغلال الفرصة ، فكلنا مسـيء ، ومن منا من لم يعمل السـيئات؟! كلنا خطّـاؤون ، فلا بـدّ أن نغسل خطايانا بالمزيد من الأعمال الصالحة ، والعطاء في سبيل الله ــ جهـادا وتضـحية ــ عسى ربنا أن يغفر لنا خطايانا.

[8] (**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً**)

إن أصعب الحالات التي تعترض الإنسـان هي مقاومة المجتمع الـذي ينشأ فيه ، وهنا يشـير القـرآن الحكيم إلى ان الله يطلب من الإنســان أن لا يجعل والديه مــبررا لتنازله عن مسئوليته ، بالرغم من ضرورة الإحسان إليهما والاهتمـام بهما ، فالوالـدان ليسا بالضـرورة مثـالا يحتـذي بهما الابن حتى لو ضغطا عليه خضع إليهما.

(**وَإِنْ جاهَداكَ**)

أي أكثرا عليك الضغوط.

(**لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما**)

أي ضـغطا عليك لتشـرك بالله ــ أيا كـان نـوع هـذا الشرك ـ وإن ذكراك بالتعب الـذي تعبا عليك في تربيتك ، وإن عابا عليك انتماءك إلى تجمع إسلامي.

(**فَلا تُطِعْهُما**)

فهذا شرك خفيّ.

(**إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ**)

فيـــوم القيامة لن يحاســـبك أبـــواك ، فـــأنت وهما سيحاسبكم الله جميعا.

(**فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)

والأب الـــــذي يجعل ابنه نصـــــــرانيا ، أو يهوديا ، أو مجوسيا ، أو طاغوتيا ، أو مشركا مسئول يوم القيامة عما فعل ، ولا تسقط من مسئولية الابن شيء.

[9] (**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحاتِ لَنُـدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ**)

لا تفكر بما أصــابك في جنب الله ، فــان الله ســوف يبــدلك بما هو أحسن ، لقد كــان مصــعب بن عمــير وحيد والديه الثريّين ، ولكنهما طـرداه بعد أن لم ينصـاع إليهما ، فجــرداه من كل ما أســبغا عليه ، وأخرجــاه من الــبيت ، ولكن ما ان أصــبح وحيــدا ، فــاذا بمجموعة من المؤمـنين الصـادقين ممن تصـافت قلـوبهم ، وتلاقت أفكـارهم على الإيمـان يحتضـنون مصـعبا ، فيتحـول من طريد أهله إلى أول مبعوث لرسول الله (ص) إلى أهل يثرب.

وكان بذلك أول فاتح إسلامي حقيقي للمدينة المنورة ، وأول رجل يمهّد الأرضـيّة لهجـرة الرائد العظيم رسـول الله (ص).

فلا تتلف أعصابك ، ولا تخف ، ولا تحـزن أيها المـؤمن المجاهد فالمسـألة هيّنة ، فـاذا أخرجتك عائلتك ، فسـوف تحتضـنك القلـوب والأفئـدة ، كما قـال الامـام علي (ع): **«من تهجره الأقران احتضنه الأبعاد»**

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَـإِذا أُوذِيَ فِي اللـهِ
جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ
لَيَقُـولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللــهُ بِــأَعْلَمَ بِما فِي
صُــدُورِ الْعــالَمِينَ (10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللــهُ الَّذِينَ آمَنُــوا
وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (11) وَقـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلَّذِينَ
آمَنُــوا اتَّبِعُــوا سَــبِيلَنا وَلْنَحْمِــلْ خَطايــاكُمْ وَما هُمْ
بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (12)
وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَـوْمَ
الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (13) وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنا نُوحـاً
إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْـفَ سَـنَةٍ إِلاَّ خَمْسِـينَ عامـاً
فَأَخَـذَهُمُ الطُّوفــانُ وَهُمْ ظــالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنــاهُ
وَأَصْــحابَ السَّــفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَــةً لِلْعــالَمِينَ (15)
وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ

خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ
اللهِ لا يَمْلِكُـونَ لَكُمْ رِزْقـاً فَـابْتَغُوا عِنْـدَ اللـهِ الـرِّزْقَ
وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17)

وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا

وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ

هدى من الآيات :

تأكيدا لامتحـان الله للإنسـان في إيمانه تـذكرنا آيـات هـذا الـدرس ان الإيمـان انما هو وقر في القلب ، وملكة نفسـية قبل أن يكـون شـعارا ، وإن بعض النـاس الـذين يدّعون الإيمان حينما يفتنون في سبيل الله بسبب إيمانهم ينهـارون أمـام الفتن ، ويتنصـلون عن إيمـانهم ، وإن ربنا سبحانه يرد على هؤلاء مستنكرا : ان هذا العذاب البسيط الـذي لا يعـدو كونه فتنة لا يسـاوي ذلك العـذاب الشـديد الدائم الذي ينتظركم.

إن هناك فرقا في التعبير القرآني بين الفتنة والعذاب ، حيث نستوحي من لفظة الفتنة محدوديتها زمانا ومكانا ، بالنسـبة للفـرد أو الجماعة ، وأن الهـدف منها هو اختبـار الإنسـان في إيمانه ليس إلّا ، أما العـذاب فانه نتيجة لتلك الفتنة ، فحينما يذهب المـرء إلى قاعة الامتحانـات فانه لا يلبث إلّا قليلا ثمّ يعـود بعـدها إلى منزله ، ولكن نتيجة تلك السـويعات القليلة تسـتمر معه بعد ذلك وربما تصل إلى سنين

عديـدة ، فالفتنة إذا تسـاوي بمحـدوديتها العـذاب بدوامه واستمراره ، وقد ورد في الدعاء :

«**يا رب وأنت تعلم ضـــــعفي عن قليل من بلاء الدنيا وعقوباتها ، وما يجري فيها من المكـاره على أهلها ، على أن ذلك بلاء ومكروه قليل مكثه ، يسـير بقاؤه ، قصير مدته ، فكيف احتمالي لبلاء الآخـرة؟! وجليل وقوع المكاره فيها؟! وهو بلاء تطـول مدته ، ويدوم مقامه ، ولا يخفف عن أهله ، لأنه لا يكون إلّا عن غضبك وانتقامك وسخطك**» [1]

وتشير الآيات القرآنية بعد ذلك إلى الأخطاء المنتشرة في المجتمع ، ولكنها قبلئذ تـذكر بـأن الأفكـار الخاطئة تشـبه الجـرائم الخطـيرة الـتي إذا تكـاثرت على قلب الإنسان حجبته عن الخير ، وقضت على كـلّ أثر للسـلامة عنده «**كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُـوبِهِمْ ما كـانُوا يَكْسِـبُونَ**» ومثل على هذه الأفكـار أن يقـول إنسـان لآخر : اعمل ما آمـرك به وأنا المسـؤول عن ذلك غـدا عند اللـه. إن هـذا القـول لا ينفي مسـئولية المنفذ ، إذ أن من يتّبع إنسـانا مفسـدا فانه لا يسـتطيع الادعـاء بأنه بـريء ، ولا شك ان المتبـوع مسـئول عند الله سـبحانه ، ذلك لأن الإنسـان يتحمل تبعة تضـليل الآخـرين فيعـاقب عليها ، دون أن يسقط عنهم العقاب.

وحين يبين القرآن الكـريم هـذه الحقيقة فلكي نتجنب الأفكار التبريرية التي تحول بين الإنسان ورؤيته للحقيقة ، والـتي تجعل الفكر مقيـدا بحـدود ضـيقة ، لا يـرى خلالها الواقع كما هو.

بدلا من تبني هـذه الأفكـار الخاطئة أو اعتناقها ، فـان على الإنسـان أن ينفتح على الحيـاة ، ويـرى الحقـائق ببصيرة ثاقبة دون حجب ، وينزع عن عينيه تلك النظـارات القاتمة.

---

(1) مفاتيح الجنان / دعاء كميل.

وهنــاك كثــير من النــاس يضع على عينيه نظّــارات حمــراء وخضــراء وســوداء ، ولكن على شــكل مجلات ، وجرائد ، وإعلام مضّــــلل ، فلا ينتبهــــون لــــذلك الاعلام المضلل ، إن تلك المجلات الزاهية ذات الورق المصقول ، والصــور الملونة ، تــزرّق في الأذهــان تفســيرات خاطئة للأحــداث وتــبريرات مبتدعة للجــرائم وتشــوية للحقــائق الواضحة ، هذا عدا اللغو والكذب والبهتان.

فعلى المـــؤمن أن لا يعطل عقله ويأخذ ما في هـــذا الاعلام أخذ المســــلمات ، بل عليه أن يســـتخدم عقله ، ويعمل على تغذيته بقــراءات موجهة هادفة ، لـيرى العـالم على حقيقته لا كما يراه الآخرون.

وبعد عرض وجهات النظر القرآنية حول بعض الأفكـار ، يضــرب ربنا ســبحانه وتعــالى الأمثــال من واقع الأمم الســابقة ، وكيف ان المؤمــنين قــاوموا الصــعوبات وهم يدعون إلى ربهم ، دون أن ينهـاروا إزاء الأذى والصـعوبات التي تعرضوا لها.

استمر نوح (عليه السـلام) خمسـين وتسـعمائة سـنة. يدعو قومه دون أن يستجيبوا له ، حتى اضطر أن يســتقل ظهر الســــفينة عند ما أراد الله إهلاكهم ، فأنقــــذه الله ســبحانه والــذين آمنــوا معه من الطوفــان ، وهــذا النــبي إبــراهيم (عليه الســلام) يمكث في قومه زمنا طــويلا فلم يكن جزاؤه إلّا الإلقاء في النار ، ولما نجّاه الله نفوه بعيـدا عن بلاده ، وهذه الامتحانـات لا تـدل على ان الله سـبحانه لا يحب الإنســـان ، بل على العكس تماما ، فقد تكــــون الفتنة في كثير من الأحيان دليلا على حب الله للمفتــون ، ولرفع درجته عنده.

جــاء في الأثر : ان الامــام الحســين (ع) رأى جــده رسـول الله (ص) في المنـام ذات مـرة فشـكا إليه جفـاء قومه ، فقـال له الرسـول (ص) : «**يا بــني! إن لك عند الله درجة**

مغشّاة بنور الله ولست تنالها إلّا بالشهادة» [2]
وجـاء في الحـديث المعـروف : «**أشد النـاس بلاء الأنبياء ثمّ الذين يلونهم الأمثل فالأمثل»** [3]

بينات من الآيات :

[10] (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ**)

ادعاء وليس اعتقادا.

(**فَـإِذا أُوذِيَ فِي اللـهِ جَعَـلَ فِتْنَـةَ النَّاسِ كَعَـذابِ اللهِ**)

وهل تقاس الفتنة التي يمتحن الله بها عباده بعذابه؟! انه قياس باطل ، فأين الفتنة المحدودة البسيطة الـتي قد تنطوي على هدف كريم من العذاب الشديد الدائم ، الذي يعني نقمة الله وهوانه على من فشل في دار الفتنة ، وما الأذى الذي كان يلحق بـالمؤمنين الصـادقين من العلـويين إلّا لأنهم كانوا يثورون ضد السلطان الجائرة الفاسدة ، ولا يتوانون عن الثورة رغم ما كانوا يلاقونه من قمع وإرهاب. كـانوا يلقـون بالثلاثة أو الأربعة منهم في سـجن مظلم لا يميّز فيه الليل عن النهـار ، كـانوا يتنـاوبون على قـراءة القـرآن لتحديد مواعيد الصـلاة ، فمثلا يقـرأ الأول ثلث القرآن فيصـلون الصـبح ، ويقـرأ الثـاني الثلث الثـاني من القـرآن فيصـلون الظهر والعصر ، ويقـرأ الثـالث الثلث الأخـير من القـرآن فيصـلون المغـرب ، أما غـذاؤهم فلا يأتيهم إلّا مرة واحـدة في اليـوم يـرمى به إلى طـامورتهم المغمورة الرطبة ، التي تنتشر فيها الجـراثيم والحشـرات السامة ، وفي تلك الظروف الحرجة حيث القاذورات

---

(2) مقتل أبي مخنف ص 24
(3) الكافي ج 2 ص 252.

والـــروائح الكريهة وإذا مــات أحــدهم ، يبقى على وضــعه حــتى ينتن جثمانه ، ويتفسخ ، ثم يمــوت الآخــرون الواحد بعد الآخر فيهـــدم عليهم الســـجانون الطـــامورة بعد أن أضحى الجميع رميما.

وبالرغم من تلك الفتنة المجهـدة كـان الواحد منهم ـــ لو كتب له الخروج من تلك الطامورة ـ انما يخــرج ليشــهر سيفه ثائرا ، وما كان ذلك الإرهاب ليلويهم عن أهــدافهم ، لأنهم قد اختاروا طريقهم بوعي ، وآمنــوا بما عملــوا إيمانا حقيقيا ، ولأنهم عرفوا أن هذا الأذى الدنيوي أمره حقــير ، وخطــره يســير ، وأمــده قصــير ، إذا ما قــورن بما ينتظر أعداءهم يوم القيامة ، ذلك العـذاب الـذي يتمنّى الإنســان لو أن عنده ملء الأرض ذهبا فيفدي نفسه به.

(**وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ**)

أيتصور هؤلاء إن ادعاءهم الإيمان سينقذهم؟! يقولون : نحن مع المؤمــنين حينما تكــون عند المســلمين دولة ، ولكنهم مع الكفـــار حينما يتعــرض المســلمون للســجن والقتل!

(**أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ**)

بلى ان الله سبحانه يعلم ما في صدر هذا وذاك ، وما يكنّونه من الايمان أو الكفر.

[11] (**وَلَيَعْلَمَنَّ اللـــهُ الَّذِينَ آمَنُـــوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ**)

فالله يعلم من الـــذي آمن وصـــبر ، كما يعلم من هم الذين آمنوا ثم انهاروا ، والمنافقون هم أولئك.

[12] (**وَقــالَ الَّذِينَ كَفَــرُوا لِلَّذِينَ آمَنُــوا اتَّبِعُــوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ**

(**خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ**)

تعالى معي وانا أتحمل عنك تبعات عملــك. انه منطق مرفوض قرآنيا ، وهل يعمل الإنســان عملا دون ان يســأل عنه ويحاسب عليه؟! انك ستحاسب عليه يــوم القيامة مع من أغواك ، ويتبرأ منك.

[13] (**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقـالَهُمْ وَأَثْقـالاً مَـعَ أَثْقـالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ**)

كل مخطئ يتحمل خطاياه بقــدر عمله ونيته ، ويحمل مع أوزاره أوزار من تبعوه.

ان كل خطيئة تتحول يوم القيامة الى غلّ ينــاط بعنق المـذنب ، فكم سـيحمل الجـاني المضـلل من أغلال يـوم القيامة؟!

من يظلم إنســانا ، أو لا يعطي حقّا من حقــوق الله كالزكاة أو الخمس ، أو يغتصب أرضا فان ذلك يتحول الى ثقل يحمله على ظهره يوم القيامـة. وفي الحـديث : روى الطبرسي عن رسول الله (ص) انه قال :

«**ما من رجل لا يــؤدي زكــاة ماله الا جعل في عنقه شجاع يوم القيامة**» (4)

ثم يذكرنا الرب ـ مرة أخرى ـ بقصة نـوح فـإبراهيم ، ويعود السؤال الى أذهاننا : لماذا هذا التكرار؟ ونقول : ان الحوادث الـتي خلّـدها القـرآن كـانت ذات أهمية قصـوى ، فليست حادثة الطوفان ، أو مجمل قصص إبراهيم وسـائر المسلمين هيّنة نسمعها مرة ونمضي عنها ، لا بد أن تحفر في قلوبنا ، وتتحــول الى وعي ايمــاني عميق ، يســمو بالبشرية أبدا الى التّكامل المعنـوي ، وهكـذا يكـرر الـذكر هذه الظواهر المرة تلو

(4) شجاع بضم الشين وكسرها : ضرب من الحيـات. بحـار الأنـوار ج (7) ص (141) الحديث طويل أخذنا موضع الحاجة.

الاخـــــــرى ، ويعتصر منها عبرها وآياتها وحكمها ، ويلعن الظالمين ليصبحوا عبرة ، ويكرم أنبيـاءه الكـرام ليصـبحوا أئمة وهداة.

[14] (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِـهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً**)

ورغم هذه المئات التسع والخمسين نة لم يؤمن قوم نوح به ، فاضطر (ع) ان يدعو ربّه لينزل عليهم العذاب.

(**فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ**)

لم يأخذهم الطوفان الا لأنهم كانوا ظالمين.

[15] (**فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَـةً لِلْعالَمِينَ**)

حيث أهلك الله أولئك الظالمين جميعا بذلك الطوفان الرهيب الذي وسع البسيطة ، الا فئة محدودة كان الله قد أمرها بصنع سفينة في الفلاة ، ثم ركبوها وبـدأ الطوفـان. أو ليس في ذلك آية للعالمين؟!

[16 ـ 17] (**وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُـدُوا اللـهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً**)

دعا إبـراهيم (ع) قومه الى عبـادة الله وتقـواه ، مبينا ان ذلك أفضل لهم ، ثم حـدد لهم ماهيّة افكـارهم وواقعها عبر الأسلوب الرسالي الذي يتكرر في كل رسالة ، والذي يعتمد على نقطتين :

الف : بيان بصيرة التوحيد التي تحقق للمجتمع حريته واســتقلاله ، وتمنحه القيم الانســانية الراقية من الحق ، والعدالة ، والسلام.

بــاء : تعرية الواقع الفاسد ، وتســليط الضــوء عليه ليتبين لأفراد المجمع خطورة الفساد الذي هم فيه.

أوضح النــبي إبــراهيم (ع) لقومه وضــعهم المزيف بقوله : «**إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً**».

ثم ان هذه الأوثان الـتي تعبـدون أنتم صـنعتموها ، ثم أضــفيتم عليها صــبغة الواقعية ، ولكن مهما فعلتم فانها تفتقر الى الواقعية ، ولعلنا نســتوحي من قوله ســبحانه : «**وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً**» حقيقة نجدها في آيات أخرى أيضا هي : أن الناس هم الذين يخلقون الطـاغوت دون نفسه ، لأن الطاغوت أضعف من ذلك ، ان الذين يرضون بالطاغوت ، ويسكتون عليه ، والذين يلتفون حوله ، ويسمعون أوامـره ، ويحاربون معه ، أولئك هم الذين يخلقونه.

(**وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً**)

اي تخلقون كيانا باطلا كذبا.

(**إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللـهِ لا يَمْلِكُـونَ لَكُمْ رِزْقاً**)

انكم أنتم الــذين تعطــون لما خلقتم القــوة ، وأنتم الــذين تقتطعــون لهم من أرزاقكم وليســوا هم ، وهل يسـتطيع الطـاغوت ان يعيش دون ضـرائب يفرضـها على أبناء الشعب؟

(**فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ**)

فانبذوا هذا الواقع المزيف ، واطلبوا من بارئكم الحق رزقكم ، فهو الجدير بالطاعة ، والخضوع ، والتســليم ، ثم ...

(**وَاشْكُرُوا لَهُ**)

والشكر هو العبادة العملية ، كما قـال : «**اعْمَلُـوا آلَ داوُدَ شُكْراً**» وهذا يعني : ان تكون أعمالكم وسـلوكياتكم بحيث تجلب لكم المزيد من النعم والبركات ، وكذلك فان من يشكر يزداد رزقه ، ونسـتوحي هـذا المعـنى من قوله تعالى : «**فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الـرِّزْقَ وَاعْبُـدُوهُ وَاشْـكُرُوا لَــهُ**» أي أنّ من يريد الــرزق فليبتغه من الله بالعبــادة والشكر ، وقد قال تعالى : «**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**».

(**إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)

وبالتالي ستعودون الى ربكم.

ومــرة أخــرى يؤكد الــذكر الحكيم ان كل الصــفات الحسنة ، والأخلاق الفاضلة انما تأتي من الايمـان الصـادق بالله واليوم الآخر ، فمن يؤمن بيـوم الجـزاء سـيجعل من حياته هذه مزرعة للخيرات ، وقنطرة للسعادة في الآخرة ، كما يسـتمر السـقف صـحيحا ما دامت أسسه سـليمة ، فكـذلك حيـاة الإنسـان تعمر وتزدهر كلما كـانت عقائـده صحيحة وواقعية.

وَإِنْ تُكَـــذِّبُوا فَقَـــدْ كَـــذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى
الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ
اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيـدُهُ إِنَّ ذلِـكَ عَلَى اللـهِ يَسِـيرٌ (19)
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْـفَ بَـدَأَ الْخَلْـقَ ثُمَّ
اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِـرَةَ إِنَّ اللـهَ عَلى كُـلِّ شَـيْءٍ
قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشـاءُ وَيَـرْحَمُ مَنْ يَشـاءُ وَإِلَيْـهِ
تُقْلَبُونَ (21) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِــزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي
السَّـماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللـهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِـيرٍ (
22) وَالَّذِينَ كَفَـرُوا بِآيـاتِ اللـهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُـوا
مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَـــذابٌ أَلِيمٌ (23) فَما كـانَ
جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قـالُوا اقْتُلُـوهُ أَوْ حَرِّقُـوهُ فَأَنْجـاهُ
اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24)

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ

هدى من الآيات :

يوصينا القرآن الكـريم ــ مـرة بعد أخـرى ــ بضـرورة العودة الى التاريخ للاعتبـار بسـير السـابقين بنفس القـدر الذي يؤكد فيه على ضرورة البحث المباشر ، والتطلع الى ما يحيط بالإنسان من مظاهر طبيعية ، واثـار تحمل اخبـار الماضين ، وما يكتنف الحياة عموما من السـنن والحقـائق والتطورات.

والتأكيد على هاتين القضيتين تحقق عدة أهداف :

أولا : ان ســـعة الأفق العلمي ، وشـــمول المعرفة البشرية يساعد الإنسان على النهـوض من واقع التخلف ، والتسامي الى سماء القيم بعيدا عن الخرافات والأساطير ، ذلك لأنه ليس ايمان الجاهل كايمان العالم ، فكلما تقدم العـالم في ميـدان العلم ، اقـترب أكـثر فـأكثر من حقيقة الايمــان بالله ، ونشــأة الكــون ، وبــدء الحيــاة ، ولــذلك فالإيمان بالله هو قمة العلم والمعرفة.

ثانيا : معرفة أحـوال الأمم السـابقة ، وكيفية نشـوئها وتطورها ، والأدوات الـتي اسـتخدموها ، لا يتم الا بدراسة الآثـار الـتي تحمل مخلفـاتهم ، ومطالعة كتابـاتهم ، ونـوع تفكيرهم وفنونهم ، عبر النقوش على الصخور والكهوف ، وبتلك الدراسة المسـتوفاة ، نسـتطيع التعـرف على الأمم السابقة ، وكيف تقدمت ولماذا بادت.

ثالثا : ان الحيـاة لم تكن على وتـيرة واحـدة ، وانما منح ربنا سبحانه الحيـاة الكمـال شـيئا فشـيئا ، وخلقا بعد خلق ، وليس الأمر كما يقول الجاهلون بأن الطبيعة كـانت شـعلة متوهجة منذ البداية ، وسـتبقى هكـذا الى النهاية ، ولو كـانت شـعلة منذ الأزل لانتفى الكمـال ، ذلك لان فلسفة الكمال تتخلص في : ان المسيرة ابتدأت من وضع غاية في البساطة ، ثم راحت تتصاعد في مـدارج الكمـال عبر ملايين السنين ، حتى وصـلت الى ما نحن عليه الآن ، وستواصل المسـيرة في المسـتقبل الى ان تصل القمة التي شاءها الله ، فيأذن بأمره.

والعلم الحـديث قد توصل الى هـذه النتيجة بـدليل علمي وهو قدرة العلماء على اكتشـاف عمر الإنسـان من الحفريات والآثار الـتي يعـثرون عليها ، عن طريق التحليل الطيفي لذرة الكربون الموجودة في الكائنات العضـوية ــ الحيوان والنبـات ــ وكلما مـرّ قـرن من الزمـان على ذرة الكربـون زاد في عـدد نيوتروناتها واحد ، وبقـدر ما في الذرة من نيوترونات يعرفون عدد القرون التي مرت على هذه الذرة ، وبالتالي يعرف عمر الجمجمة مثلا بعد معرفة عدد السـنين الـتي مـرت على هـذه الـذرة ، وان دل هـذا الاكتشاف على شـيء فانما يحمل دلالة على ان الإنسـان كانت له بداية وكذلك كل الخلائق ، والسير في الأرض هو من أجل معرفة تلك البداية ، وإذا كـان الله سـبحانه هو الذي أوجد الإنسان في البـدء ولم يكن شـيئا مـذكورا ، أو ليس بقادر على أن يعيده مـرة أخـرى؟! ولا يسـتطيع أحد ان يقـول ان الله ليس بقـادر لأن ابتـداع الخلق من بعد العدم أصعب بذاته من إعادته ، بعد ان كـان ــ وبـالطبع ــ ليس

أصعب على الله سبحانه ، لان الأمور عند الباري سواء.

رابعا : لكي نعتــبر من التــاريخ العــام بعد التعــرف الدقيق على سير الأمم التي سبقتنا ، يجب ان نــتيقّن بأننا مسئولون عن أعمالنا ، وأن السنن التي حكمت السابقين تحكمنا أيضا ، والقــرآن الحكيم حينما يحــدثنا عن التــاريخ فانه لا يتحدث بأسـلوب علمي محض لمجـرد نقل الخـبر ، وانما يخترق الفواصل الزمنية ليبين : ان سـنة الله تجـري فيمن يأتي بمثل ما جرت على من مضى.

واكتشــاف القــانون لتطبيقه على الواقع الحاضر هو الهدف القرآني ، من هنا نرى ان النظرة الاسلامية للتاريخ (نظــرة عبريــة) ليتحــول التــاريخ من حقيقة علمية الى حقيقة ســـــــــلوكية في حياتنا ، والى حقيقة ايمانية في أذهاننا.

ومن سنن الله :

أولا : ان الله يفعل ما يشــاء ، يــرحم أو يعــذب من يشاء ، دون ان يقدر أحد على تحدي مشيئة الرب سبحانه ، مما يجعلنا أكثر واقعية وان الناس يرجعـون ـ بالتـالي ـ الى ربهم ليوفيهم الجزاء الوفاق.

ثانيا : ان البشر لا يقــدر على مقاومة قــدره الالهي ، فاذا نزل به فلا شيء ولا أحد ينصره أو يواليه.

ثالثا : الكفار لن ينـالوا رحمة الله في الـدنيا ، ويـنزل بهم في الآخرة عذاب اليم.

كل ذلك قاله إبـراهيم (عليه السـلام) لقومه ، ولكنهم كذبوه ، وأرادوا ان يحرّقوه فأنجاه الله من النار.

بينات من الآيات :

[18] (**وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَـذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**)

لستم أول من كذب ، فقبلكم أمم قد كـذبت ، وحـاق بها العذاب ، فاعتبروا! وليس على الرسـول الا ان يبلغكم ، وقد سبق القول : ان من مشاكل الإنسـان النفسـية انه يعتقد بـان الهداية ليست من مسـئوليته ، ولكن القـرآن الكـريم يؤكد على ان السـعي وراء الهداية من مسـئولية البشر نفسه ، وليست مسئولية الأنبياء ، فمسئولية الأنبياء تنتهي بمجـرّد التبليغ ، وعلى الإنسـان ان يسـلك بقية الطريق.

[19] (**أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**)

ان بعض أنـواع المخلوقـات لها أعمـار مديـدة جـدا ، والعرب يضربون المثل في طول العمر بالغراب ، يقـال : (عند ما يشيب الغراب) لأن الابـاء والأبنـاء يـرون الغـراب نفسه رغم تعاقب الأجيـال ، وهـذه الأنـواع لا يمكن للفـرد مراقبة أطوار حياتها ، وهنـاك أنـواع أخـرى قصـيرة الأجل كالذبابة أو البعوضة الـتي لا تعيش أكـثر من ثلاثة أيـام ، وكذلك هناك بعض الحشرات التي لا تلبث سـوى سـاعتين هما كل عمرها ، ويمكن للإنسان ان يـراقب ولادته ونهايته ببساطة ليعرف كيف يولد بيسر ، وكيف ينتهي بلا ضوضاء ، وليعتبر ان عودته كما بدايته سهلة ولا يعجز الله شـيء ، ولا يصعب عليه فعل سبحانه.

(**إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**)

فإرادته سبحانه بين الكاف والنون.

[20] (**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَـدَأَ الْخَلْقَ**)

ان قضـية السـير في الأرض لا يمكن ان تـدرس في الغرفة المغلقة ، وانما على الطبيعـة. ينقّب الإنسـان عن الآثار ، ويبحث في الطبقـات ، ويـدرس الحفريـات ، حـتى يفهم كيف ابتدع الله الخلق ابتداعا.

وكل واحد قادر على ان يلاحظ تطورات الحيـاة ، من خلال سـيره في الأرض ، بـأعين مفتوحة ، وقلب واع ، وضمير يقظ.

(**ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ**)

إذا عرفنا ان الخليقة لم تكن ثم كـانت ، وان تحريكها يتم بصـورة غيبية (اي بتـدخل قـوة خارجية في الكـون) نعرف بـان الله هو الـذي خلقها ، ونعـرف ان الـذي خلقها قادر على ان يعيدها بعد ان يميتها وآنئذ نؤمن.

(**إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)

لأنه يقلب الحياة خلقا بعد خلق ، ونشأة بعد نشأة.

[21] (**يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ**)

لأنه هو المالك المتصرف ، ولا أحد يستطيع الاعتراض على مالكيته ـ شـاء أم أبى ـ فهو الـذي خلق ، ووهب الحيـاة ، وأهـدى الوجـود ، ورزق الكائنـات ، فـان عـذب فبعدله ، وان رحم فبعفوه وتجاوزه.

(**وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ**)

الى الله المآب والمرجع.

[22] (**وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِـزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ**)

فلا تمـــنى نفسك بـــالتهرب من الجـــزاء ، كما يمنّي المجرم نفسه بالفرار ، فان عرف المرء منذ البداية انه لا فرار من العقوبة فسوف يرتدع عن الجريمة.

(**وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**)

وهذا ردّ لمن يمنّي نفسه بالشفاعات ، ويظن مثلا ان عيسى (ع) ســيفديه بنفسه ، ويــدرأ عنه العــذاب ، الا ان الحق تبارك وتعالى يقول : لا عيسى ولا سـائر الأنبيـاء ولا الأولياء يستطيعون ان ينقذوكم من عذابه الا بإذن منه.

وينذر ربنا الكفار الذين لا يؤمنون بيوم القيامة ، بأنهم يائسـون من رحمته ، فلا ينتظـروا منه رحمة ـ وهو الـذي وسـعت رحمته كل شــيء ـ فلا يتمنـوا عليه ان يـدخلهم جنات النعيم ، إلا بعد الايمان وإصلاح أنفسهم.

[23] (**وَالَّذِينَ كَفَـرُوا بِآيـاتِ اللـهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي**)

ولعل الآية تشمل فيمن تشملهم أولئك الذين يــدّعون الإيمــان بــالآخرة ، ولكنهم يبنــون عملهم وســلوكهم على أساس عدم وجود النشور.

(**وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ**)

وأحد أنواع العذاب اليأس.

ان المؤمن على العكس من ذلك ، فهو يعيش الرجاء ، فالرجــــاء يعطي فرصة التفكــــير في المســـــتقبل ، والتخطيط للنجاح ، وبلـوغ الأهـداف ، وقد صـدق الشـاعر حين قال :

أعلّل النفس بالآمال أرقبها	ما أضـــيق العيش لـــولا فســـــــــــحة الأمل

فالعيش ضـيق ، والعمر كـئيب ، والحيـاة مظلمة لـولا فســحة الأمل ، ولكن الكــافر لا يملك فســحة الأمل ، ولا روح الرجاء ، لأنه لا يثق بالله سبحانه ، لذلك يعيش الألم.

[24] تلك كــانت خلاصة ما قاله النــبي إبــراهيم (ع) لقومه : إذ أمــرهم بــالفتح لأعينهم ، والســير في الأرض ، والنظر في سير الآخرين ، والاستخدام لعقولهم.

(**فَما كـانَ جَـوابَ قَوْمِـهِ إِلَّا أَنْ قـالُوا اقْتُلُـوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ**)

طلب إبـــراهيم (ع) من قومه التعقل والـــتروّي قبل الحكم السريع ، ومناقشة واقعهم الفاسد على ضوء الادلة ، ومع ذلك لم يبدو منهم الا العنـاد والـرد القـبيح بالقتل أو الحرق.

(**فَأَنْجاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ**)

وما أوسع رحمة الله إذ لم يأخـــذهم بالعـــذاب بغتة ، فنحن لم نقـرأ في التـاريخ أو في القـرآن : ان الله عـذب قوم نمرود أو دمرهم ، أو انزل عليهم رجزا من الســماء ، وانما قرأنا ان الله سـبحانه أنجى نبيه من نـارهم ، فخـرج مهاجرا عن القوم الظالمين.

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)

أجل. ينبغي ان يكون أملنا بالله تعـالى قويا ، فرحمته وسعت كل شيء ، وقد سبقت رحمته غضبه ، فهو مولانا. عليه توكلنا ، واليه أنبنا ، واليه المصير.

وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَـذْتُمْ مِنْ دُونِ اللـهِ أَوْثانـاً مَـوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُــكُمْ بَعْضــاً وَمَــأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (25) فَآمَنَ لَهُ لُـوطٌ وَقـالَ إِنِّي مُهـاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنا لَـهُ إِسْـحاقَ وَيَعْقُـوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِـهِ النُّبُـوَّةَ وَالْكِتـابَ وَآتَيْنـاهُ أَجْـرَهُ فِي الـدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِـرَةِ لَمِنَ الصَّـالِحِينَ (27) وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَـأْتُونَ الْفاحِشَـةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (28) أَإِنَّكُمْ لَتَـأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ

---

29 [ناديكم] : النادي المجلس إذا اجتمعوا فيه.

**أَنْ قـالُوا ائْتِنا بِعَـذابِ اللـهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّـادِقِينَ (
29) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَـوْمِ الْمُفْسِـدِينَ (30)
وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُـوا
أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كـانُوا ظـالِمِينَ (31) قـالَ
إِنَّ فِيها لُوطـاً قــالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ
وَأَهْلَـهُ إِلاَّ امْرَأَتَـهُ كـانَتْ مِنَ الْغـابِرِينَ (32) وَلَمَّا أَنْ
جـاءَتْ رُسُـلُنا لُوطـاً سِـيءَ بِهِمْ وَضـاقَ بِهِمْ ذَرْعـاً
وَقــالُوا لا تَخَــفْ وَلا تَحْــزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَــكَ إِلاَّ
امْرَأَتَـكَ كـانَتْ مِنَ الْغـابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُـونَ عَلى
أَهْــلِ هــذِهِ الْقَرْيَــةِ رِجْــزاً مِنَ السَّــماءِ بِما كــانُوا
يَفْسُــقُونَ (34) وَلَقَـدْ تَرَكْنا مِنْها آيَــةً بَيِّنَـةً لِقَـوْمٍ
يَعْقِلُونَ (35)**

---

33 [ضاق بهم ذرعا] : أي ضاق قلبه وقيل حيلته فيما أراد من حفظهم.
34 [رجزا] : أي عذابا.

وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ

هدى من الآيات :

يواصل السـياق بيـان قصة إبـراهيم (ع) وقومه وكيف هـاجر مجتمعة الفاسد ، فـآمن له لـوط. ويـبين ان التجمع الصنمي لا ينفع شـيئا عند الله ، إذ يكفـرون ببعضـهم يـوم القيامة ، ويتلاعنون ، ومصيرهم جميعا جهنم ولا يتناصرون ، ولقد هاجر هو ولوط الذي آمن معه ، ورزقه الله اسحق ويعقوب ، وجعل النبوة والرسالة في ذريتهما ، وآتاه أجره في الـدنيا ، وادخله في الآخـرة في زمـرة الصـالحين ، ثم يبين قصة لوط وكيف واجه فساد قومه الفاحش من إتيان الرجال ، وقطع السـبيل ، والإجهـار بـالمنكرات. اما قومه فقد طـالبوه بالعـذاب ، فـدعا ربه فنصـره إلا أن الملائكة أصروا على إبراهيم قبل ان يصبوا العذاب على قوم لـوط (ع) فجـادلهم بـان في القرية لوطا ، فـأخبروه بـأن الله سـوف ينجيه واهله إلّا امرأته ، وهكـذا أنجـاهم الله ودمر الباقين.

ولان سورة العنكبوت تشدد على ضرورة جعل محـور العلاقة بين الإنسان ونظيره الإنسان علاقة الايمـان بالله ، ورفض المحاور الوثنية الأخرى ، لأنها زائلة وضاره ،

وتسـتدرجنا الى عـذاب الله الأليم ، فإننا نجد إبـراهيم (ع) يبين فكرة هامة هنا هي : ان اتخاذ الأوثـان انما تم بهـدف المودة المتبادلة بين المشركين ، وان هذا الهـدف باطل ، إذ يكفر المشركون ببعضهم يوم القيامة.

ان البشر خلق اجتماعيا ، ولعل اسم الإنسان والناس مســتوحى من هــذه الفطــرة الراســخة فيه ، اما كلمة الحضـارة أو المدنية فانها تشـير الى حضـور الإنسـان عند نظـيره ، وهو بعيد عن ذات الفطـرة ، الا ان هـذه النزعة الاجتماعية تضل ســبيلها وهي كســائر الغرائز البشــرية بحاجة الى توجيه وتزكية ، فكما غريـــزة الجنس يهـــذّبها الإسلام ويهـديها الى السـبيل القـويم لها بـالزواج ، كـذلك النزعة الاجتماعية ، ولكن بسـبب انفلات هـذه النزعة عن قنواتها المحددة ، جرّت ، البشرية الى مآسي مروعة.

كيف ذلك؟

قبل ان نجيب عن هذا السؤال نوضح حقيقتين :

الف : النزعـات الفاســدة في قلب البشر هي الــتي تضـحى علاقـات اجتماعية شـاذة في حياته ، فحب المـال حبّا جمّا يفرز الطبقية ، والتكبر يولد الاســتكبار والعلو في الأرض ، والجبن يسـبب الاستضـعاف ، والحـرص يجر الى الفساد الاقتصادي. و.. و.

ولذلك كـان الجبت والطـاغوت وجهـان لعملة فاسـدة واحدة ، فعبادة المال والتسليم للصولجان هو جبت القلب ، بينما الديكتاتورية والاستبداد طاغوت المجتمع.

بـاء : ان الجـاهليين الـذين كـانوا يعبـدون الأوثـان لم يكونوا ناقصي العقول الى هـذه الدرجة لـيزعموا ان هـذه الأحجار التي يصنعونها بأيديهم هي التي خلقتهم

فعلا.

كلا .. انما كانت الأوثـان رمـزا لتجمعهم ، وتعبـيرا عن نوع العلاقة التي ارتضوها لأنفسهم ، ولذلك كانت الأصـنام تكـبر وتصـغر حسب حجم القبيلة ، فهنـاك صـنم قـريش (هبل) يعتـبر أكـبر الأصـنام في الجزيـرة ، لان تلك القبيلة كانت تـزعم انها كـبري قبائل العـرب ، وأصـغر منها حجما كان صنم ثقيف (مناة) لان تلك القبيلة كانت أقل مسـتوى من قريش ، وكلما صغرت القبيلة تضاءلت اهمية أوثانها ، حـتى بلغ بتجمع صـغير حقـير ان صـنع لنفسه صـنما من التمر ، فاذا أصابتهم مخمصة وقعـوا على إلههم المزعـوم والتهموه عن آخره.

بعد بيان هاتين الفكرتين نجيب عن السؤال السابق :

باسـتثناء التجمعـات التوحيدية انحـدرت البشـرية الى درك الوثنية بطريقة أو بـــأخرى ، إذ انها ارتبطت ببعضـــها عبر المصالح والعصـبيات والخرافـات البعيـدة عن العلاقة التوحيدية. ما الـذي جمع طبقة المـترفين الى بعضـهم؟ أو ليس الحرص على تكـديس الـثروة؟! إذا المحـور هنا حبّ المال ، والعلاقة بالإنسان تمر عبر قنـاة جمع الـثروة ، ولا يحترم الإنسـان كإنسـان بل بصـفته صـاحب ثـروة ، إذ ان الاحترام هو للـثروة ذاتا ولم يملكها بـالتبع أ ليس كـذلك؟! إذا الثروة معبـودة ، وهي محـور العلاقة ، ولا بد ان يختـار وإلها رمـــزا يحترمونه ويكرمونه ويقدســـونه ، وبالتـــالي يعبدونـه. ذلك الرمز قد يكـون صـنما من ذهب أو فضة أو أحجار كريمة ـ كما كان يصنعه الإنسان البدائي ـ ولكن قد يكون رمزا متطورا يسمونه ب (العلم) كما تصـنعه امريكا ، أو بتمثـــال الحرية ، وبـــرج ايفل ، أو تمثـــال النيل أو التمساح.

وقد يختــار تجمع المــترفين شخصا يســمونه بالملك ويصـــبغون عليه قـــدرا من القداسة المزعومة ، والجلالة المزيفة ، فيجعلونه رمزا لتجمعهم.

وكما محور الثروة كذلك محـور القومية والوطنية وما أشبه ، تنفلت من اطارها السليم ، وتتحول الى صـنم يعبد من دون الله.

أما والآن وقد عرفنا ان هذه الأوثان التي كانت تعبـيرا عن نزعــات نفســية شــاذة ومنحرفة جــرت المزيد من الويلات على البشرية ، فكم ارتكبت باسمها الجـرائم وكم ســوغت باســمها المجــازر ، وكم اشــعلت نــار الحــروب الضاربة ولا تزال.

وقد بين ربنا على لسان محطم الأصـنام إبـراهيم (ع) ان اتخاذ الأصنام انما تم «مودة بينكم» فالهدف هو إيجــاد العلاقة ، ثم أوضح أن الكفار سـوف يتـبرءون من بعضـهم يوم القيامة.

ومن هنا نعــــرف العلاقة بين الآية الاولى والثانية في هـذا السـياق ، إذ ان رفض الإسـلام للمـودة الوثنية يقابله تشــجيعه على المــودة الرحمانية ، القائمة على أســاس التوحيد. فكما حارب إبراهيم الوثنية آمن به لـوط ، ورزقه الله اســحق ويعقــوب ، ومن ورائهما الأســباط ، والتجمع الايمـاني ، ذلك التجمع الـذي باركه الله في الـدنيا ، حيث أعطي جــزاء إبــراهيم (ع) وافيا ، وفي الآخــرة ادخله في الصالحين. أولئك الذين لا يتبرأ بعضهم من بعض.

اي تجمع يباركه الإسلام؟ وهل كل تجمع مفيد؟ وعلى اي أساس؟

ان التجمعات اليوم قائمة على محاور وثنية ، كالتجمع حــول (وثن الوطنية ، أو صــنم الاقليمية ، أو القومية ، أو العنصرية ، أو الطبقية) هذه الأوثان التي قد يرمز لها بعلم ، أو شــخص (طــاغوت) أو مســميات اخــرى (كالجنــدي المجهول ، أو تمثال الحرية ، أو تمثال الفيل ، أو التمســاح ، أو أبي الهول ، أو شجرة الأرز).

ولا تعني هذه الرموز سوى النزعة الصنمية ، ذلك لأن أولئك الذين كانوا

يقدسون الأصنام في الجاهلية ، الـتي كـانوا يصـنعونها من التمر ثم يأكلونها إذا جـاعوا ، هل كـانوا يعتقـدون فعلا أنّها آلهتهم؟!

كلا .. فلو كانوا يعتقدون حقيقة أنّها آلهتهم لم يأكلوها عند ما يجوعـون. انهم كـانوا يزعمـون أنّها رمز تجمعهم ، لذلك كانت كل قبيلة لها صنمها الخاص.

بينات من الآيات :

[25] (**وَقـالَ إِنَّمَا اتَّخَـذْتُمْ مِنْ دُونِ اللـهِ أَوْثانـاً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا**)

حيث اتخـذتم وثنا يكـون رمـزا لعلاقـاتكم في الحيـاة الـدنيا ، بيد ان هـذه العلاقـات غـير ثابتة لأنها منبثقة عن النزعـات النفسـية الـتي تتبخر عند المـوت ، فحينما يـنزل ابن آدم الى قبره يودعه على حافته ماله ، وعياله ، وذويه ، وانتماءاته الحزبية ، وولاءاته السياسـية ، ليواجه مصـيره وحده.

(**ثُمَّ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ يَكْفُـرُ بَعْضُـكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ**)

ورد في مواضع أخرى من القـرآن تجسـيد حي لبعض مشاهد الآخرة ، وهذه الآية تعرض واحـدة من تلك الصـور التي تجسّم النزاع الذي يـدور بين الجماعـات الـتي كـانت متوحـــدة في الـــدنيا على بعض القيم المزيفة ، إذا بهم يتلاعنــون يــوم القيامة ، أما المؤمنــون فيقــول عنهم ربنا سـبحانه : «**وَنَزَعْنا ما فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِـلٍّ إِخْوانـاً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ**» [1]

وجاء في حديث مأثور عن أبي عبد الله الصـادق عليه السّلام في تفسير الآية :

---

(1) الحجر / (73).

عن مالك الجهنمي قال : قال لي ابو عبد الله :

«**يا مالك انه ليس من قــوم ائتمّــوا بإمــام في الدنيا الا جاء يــوم القيامة يلعنهم ويلعنونه الا أنتم ، ومن كان على مثل حالكم**» [2]

[26] كلا الفريقين يعكسان طبيعة ما كـانوا يعيشـونه في الـــدنيا من زيف أو حقيقة ، ولكن على الـــرغم من تكـذيب القــوم لإبــراهيم (ع) وجوابه لهم بهــذا المنطق الصارم ، الا ان دعوته لم تذهب سـدى حيث آمن به لـوط (ع).

(**فَآمَنَ لَـهُ لُـوطٌ وَقـالَ إِنِّي مُهـاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)

ولوط (ع) بإيمانه قد حقق هجرتين لا هجـرة واحـدة ، فـالاولى هجــرة معنوية حيث هجر المجتمع الفاسد رافضا تمحوره حول الأوثان ، ليتصل بالمجتمع الصالح المتمحــور حــول الايمــان الحق ، والهجــرة الثانية هجرته الجغرافية حيث تــــرك مدينة بابل ليرحل الى مصر ففلســـطين مع إبراهيم (ع) لكي يقوم ببناء محور جديد لتجمع يقــوم على أسـاس الايمـان بالله ، وليقــوم بــدوره في تبليغ رسـالات ربه.

[27] (**وَوَهَبْنا لَـهُ إِسْـحاقَ وَيَعْقُـوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتـابَ وَآتَيْنـاهُ أَجْـرَهُ فِي الـدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**)

ويشير القرآن هنا الى امتداد إبراهيم عبر الــزمن عن طريق اســـحق ويعقـــوب ، بينما كـــان أولاده بالفعل (إسماعيل واسـحق) ولكن الله سـبحانه وتعـالى ركز على اسـحق ، ولم ينف إسـماعيل وذلك لان التجمع الرســالي امتـدّ عـبر الـزمن عن طريق اسـحق ، ووراءه يعقــوب ، ومن بعده ذرية طيبة كانت فيهم النبوة والكتاب ،

(2) تفسير نور الثقلين / ج (4) / ص (151).

فتصدوا بذلك مسرح الاحداث ، وكل أولئك كـانوا من ذرية اسحق (ع) في الوقت الذي كانت فيه ذرية إسـماعيل (ع) تغط في سبات وجهل وخمول الى ان بزغ نور رسول الله (ص) فيهم ، فكـان رحمة للعـالمين ، وسـيد المرسـلين ، وهكذا بارك الله في امة إبراهيم بحيث أصبح ذكـره اليـوم محمودا عند أكثر من ملياري إنسـان. هـذا في الـدنيا ، أما في الآخرة فهو عند الله من الصالحين وكفى بـذلك مقاما كريما.

[28] (**وَلُوطـاً إِذْ قـالَ لِقَوْمِـهِ إِنَّكُمْ لَتَـأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ**)

بدأ لوط (عليه السلام) باسـتنكاره على قومه الإتيـان بالفاحشة ، فقـال لهم : يا قـوم انكم ترتكبـون من الفـواحش ما لم يسـبقكم إليها أحد من العـالمين ، فـأنتم أعظم خطرا ، وأسوء شرا لأنكم ابتدعتم جرائم عديدة.

وجـاء في حـديث مـروي عن الامـام الصـادق (عليه السّلام):

«**ان إبليس أتاهم في صورة حسـنة ، فيه تـأنيث ، عليه ثياب حسنة ، فجاء الى شـبان منهم فـأمرهم ان يقعوا به ، ولو طلب منهم ان يقع بهم لأبوا عليه ، ولكن طلب منهم ان يقعـوا به ، فلما وقعـوا به التذوه ، ثم ذهب عنهم وتركهم فأحال بعضـهم على بعض**» (3)

[29] (**أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ**)

اضـافة الى فاحشة اللـواط كـانوا يقطعـون الطـرق الآمنة على الناس ، لأن قـراهم كـانت في مركز جغـرافي حساس ، فلا يسمحون بمرور القوافل.

(**وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ**)

---

(3) المصدر / ص (157).

اي تجــاهرون بــالمنكرات ، وتقترفونها في نــواديكم الـــتي تجتمعـــون فيها بكل صـــراحة ، فمن يعمل المنكر ويخفيه عن أعين الناس فان أمره هيّن وقد يغفر الله له ، أما ان يفعل المنكر أمام الناس فذلك تعد على الحرمــات والقيم.

وذكر في بعض الروايــات : «**انهم كـانوا يحـذفون الحصاة على بعضهم ، وانهم كـانوا يتضـارطون في مجالسهم**» [4]

(**فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قـالُوا ائْتِنا بِعَـذابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**)

فـوق ما اقـترفوا راحـوا يسـتكبرون ، ويتوغلـون في التحدي ، إذ أنّ من يعمل السيئات ثم ينــدم عسى الله ان يتوب عليه ، اما ان يعمل السيئات ، ثم يتحــدى الله ، فهو مخلد في النار.

[30] (**قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ**)

هناك انهى لوط (ع) رســالته ، وأوكل الأمر الى الله ، متوكلا عليه ، طالبا منه النصـرة. وقد بقي ينصـحهم ثلاثين عاما فلم يقبلوا.

[31] (**وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ**)

الحسم لا يتم الا بمعرفة القيـــــادة العليا ، فالملائكة الرسل الذين جاؤوا لنصرة لوط ، وإهلاك قومه مــروا في طريقهم على إبـراهيم لكي يـوعز ربنا سـبحانه لإبـراهيم : بأنك أنت القائد الأعلى للتجمع الايمــاني في الأرض ، وقد كان بإمكان هؤلاء

---

(4) المصدر.

الملائكة ان يـذهبوا رأسا ناحية لـوط ، ولكنهم مـروا على إبراهيم جزاء من الله له على ايمانه الصادق وإخلاصه.

وهـؤلاء الرسل لم يبـدءوا إبـراهيم بالإنـذار ، وانما ابتـدأوه بالبشـرى بـان الله سـيهب له اسـحق ومن ورائه يعقوب والذرية الصالحة ، رغم انهم يحملون العذاب لقوم لـوط ، ولا تخلو هـذه اللفتة من مفارقة كريمة وهي : ان ربنا سـبحانه وتعـالى قبل ان يهلك قوما كفـروا وعانـدوا بشر رئيس ذلك المجتمع إبـراهيم (ع) بأنه سـيعطيه ذرية صـالحة ، تحمل راية الحق ، وتنشر كلمة الله في الأرض ، فتلك هي المفارقة ، يبشـره بالعطـاء أولا ، ثم ينـذره بأنه سوف يهلك الظالمين ، ولكن إبراهيم (ع) حينما عرف ان الله مهلك قوم لوط فزع.

[32] (**قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً**)

وذلك هو سلوك المؤمـنين الصـادقين ، فمن صـفات الأنبياء (ع) انهم رحمـاء بالبشر غيـورون على المؤمـنين ، بحيث لم يتمالك نفسه ، وانـدفع قـائلا : وما هو مصـير لوط؟!

وجـاء في حـديث مـأثور عن الامـام الصـادق عليه السّلام : ان إبراهيم كـان يسـعى لـدرء العـذاب عن قـوم لوط ، يقول الحديث (بعد بيان جوانب من قصة لوط):

«**فقـال لهم إبـراهيم : لمـاذا جئتم؟ قـالوا في إهلاك قوم لوط ، فقال لهم : ان كان فيها مـأة من المؤمنين أ تهلكونهم؟ فقال جبرئيل عليه السّـلام : لا ، قال : فان كان فيها خمسون؟ قال : لا ، قـال : فان كان فيها ثلاثـون؟ قـال : لا ، قـال : فـان كـان فيها عشـرون؟ قـال : لا ، قـال : فـان كـان فيها عشرة؟ قال : لا ، قال : فان كان فيها خمسة؟ قال : لا ، قال : فان كـان فيها واحـد؟ قـال : لا ، قـال : فـان فيها لـوط ، (قـالُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ)**»

قال الحسن بن علي (ع):

لا اعلم هذا القول الا وهو يستبقيهم وهو قول الله عز وجل : «**يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ**»[5]

(**قـــالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَـــهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ**)

وفي هـذه الآية عـودة للتـذكر : بـأن التجمع الاسـري مطلوب ، ولكن في حدود الايمـان الحقيقي ، ولان امـرأة لوط كانت سيئة فقد أصبحت من الغابرين واستبعدت من الصالحين.

[33] (**وَلَمَّا أَنْ جـاءَتْ رُسُـلُنا لُوطـاً سِـيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً**)

كـان لـوط يحـرث الأرض ، وإذا به يـرى مجموعة من الرجـــال يـــأتون اليه ، فاســتقبلهم بحفـــاوة وطلب منهم الـنزول عليه في بيته ضـيوفا ، ولكن ما ان سـمع القـوم بقصـتهم حـتى هرعـوا اليه يريـدون ان يفعلـوا الفاحشة ، فضـــاق بهم ذرعا ، ولم يـــدر ما يصـــنع ، ولكن حينما رأى الضيوف حيرة لوط طمأنوه ..

(**وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ**)

لا تخف على المســتقبل ، ولا تحـــزن على الماضي ، فنحن رسل السماء إليك ..

(**إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَـــــكَ إِلَّا امْرَأَتَــــكَ كـــــانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ**)

[34] (**إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْـلِ هـذِهِ الْقَرْيَـةِ رِجْـزاً مِنَ السَّماءِ بِما**

---

(5) المصدر / ص (158).

كانُوا يَفْسُقُونَ)

ولا بد من ملاحظة الفرق بين «منزلين» بـالتخفيف و «منزّلين» بالتشديد ، الاولى من (انزل) اي دفعة واحـدة ، بينما الثانية من (نــزّل) اي على فــترات شــيئا فشــيئا ، والملائكة هنا أخبروا لوطا ان العذاب سـينزل من السـماء رجزا على الفاسقين دفعة واحدة.

أما كيف نــزل بهم العــذاب؟ فقد روى ابو حمــزة الثمالي قصة ذلك مفصلا في رواية

عن أبي جعفر عليه السّلام قال :

ان رسول الله صلى الله عليه وآله سأل جبرئيل كيف كـان مهلك قـوم لـوط؟ فقـال : ان قـوم لـوط كـانوا أهل قرية لا ينتظفــون من البــول والغائط ولا يتطهــرون من الجنابة ، بخلاء أشحاء على الطعــام ، وان لوطا لبث فيهم ثلاثين ســنة ، وانما كــان نــازلا عليهم ولم يكن منهم ولا عشيرة له فيهم ثلاثين سنة ولا قوم ، وانه دعاهم الى الله عز وجل والى الايمــان واتباعه ، ونهــاهم عن الفــواحش وحثهم على طاعة الله فلم يجيبوه ولم يطيعوه ، وان الله عز وجل لما أراد عـذابهم بعث إليهم رسلا منـذرين عـذرا نذرا ، فلما عتوا عن امره بعث إليهم ملائكة ليخرجــوا من كان في قريتهم من المؤمنين ، فما وجـدوا فيها غـير بيت من المسلمين فاخرجوهم منها ، وقـالوا للـوط : «**فَأَسْـرِ بِأَهْلِكَ**» من هذه القرية الليلة «**بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْـلِ وَاتَّبِـعْ أَدْبــــارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَــــدٌ وَامْضُــــوا حَيْثُ تُـؤْمَرُونَ**» فلما انتصف الليل سـار لـوط ببناته ، وتـولت امرأته مــدبرة فــانقطعت الى قومها تســعى بلــوط ، وتخبرهم ان لوطا قد سـار ببناته ، واني نـوديت من تلقـاء العــرش لما طلع الفجر : يا جبرئيل حق القــول من الله تحتم عذاب قـوم لـوط ، فاهبط الى قرية قـوم لـوط وما حوت فاقلبها من تحت سبع أرضين ، ثم أعرج بها الى

السـماء فأوقفها حـتى يأتيك امر الجبـار في قلبها ، ودع منها اية بينة من منزل لوط عبرة للسيارة ، فهبطت على أهل القرية الظـالمين فضـربت بجنـاحي الأيمن على ما حوى عليه شرقها ، وضربت بجناحي الأيسر على ما حـوى عليها غربها ، فاقتلعتها يا محمد من تحت سـبع أرضـين الا مـنزل لـوط اية للسـيارة ، ثم عـرجت بها في حـوافي جناحي حتى أوقفتها حيث يسمع أهل السماء زقـاء ديوكها ونباح كلابها فلما طلعت الشمس نوديت من تلقاء العرش : يا جبرئيل! اقلب القرية على القوم ، فقلبتها عليهم حتى صار أسـفلها أعلاها وأمطر الله عليهم حجـارة من سـجيل مسومة عند ربك وما هي من الظالمين من أمتك ببعيد [6]

[35] (**وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)

تركنـاهم عـبرة لمن يسـتفيد من التجـارب والـدروس التاريخيـة. وقد أكّد الله سـبحانه هـذه الحقيقة في آية متقدمة من هذه السورة : «**وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَـذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ**» ثم قال : «**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ**».

فعلينا أن نسـير في الأرض ، وننقّب في الآثـار ، ونكتشف الى أيّ مـدى من التحضّـر أو التخلف وصـلوا ، حتى نفهم كيف كان هؤلاء ، ولماذا هلكوا.

وما أحوج البشرية اليـوم للاعتبـار بمصـير قـوم لـوط وهي تنزلق في وحل الرذيلة والفحشاء ، وتراها استمرأت الخلاعة واسـتباحت الزنا وانتشر فيها الشـذوذ الجنسي وبـدأ يكتسب وضـعا قانونيّا في بلاد عديـدة ، وبـالرغم من تحذير الحكماء ، وإنذار الربّ بانتشار مـرض الايـدز فـإنهم لا يزالـون يهبطـون نحو الهاوية ، حيث غضب الله الـذي لا يقدرون على ردّه ـ أنجانا الله منه ـ.

---

(6) المصدر / ص (158 ـ 159).

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (37) وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ (39) فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً

---

36 [ولا تعثوا] : يقال عثى إذا أفسد فسادا كثيرا.

40 [حاصبا] : الحاصب هو الريح العاصفة التي فيها الحصاء وهي الحصى الصغار.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْـهُ الصَّـيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَـفْنا بِـهِ
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كـانَ اللـهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلكِنْ كـانُوا أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُـونَ (40) مَثَـلُ الَّذِينَ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ كَمَثَـلِ الْعَنْكَبُـوتِ اتَّخَـذَتْ
بَيْتـاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُـوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُـوتِ لَـوْ كـانُوا
يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللـهَ يَعْلَمُ ما يَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ مِنْ
شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها
لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ (43)

وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ

هدى من الآيات :

أوهن العلاقـــــات الاجتماعية ، وأوهن الحضـــــارات البشــرية هي الــتي تقــوم على أســاس باطل ، لأنّ هــذه العلاقات والحضارات وان كانت قوية في الظاهر ، إلّا أنها ضـعيفة في الواقع ، لأنها لا تتفق ورسـالات الله ، وســنن الحيـاة ، وعـبر التـاريخ ، ويرفضـها العقل والفطـرة ، مما يجعلها عرضة للـــزوال ، لان من طبيعة الباطل الـــزوال والزهوق ، تماما كبيت العنكبوت الـذي قد يخـدع الإنسـان بمداخله ومخارجه وهندسته ، ولكنه ســرعان ما يطـير مع هبـــات الـــريح ، وكـــذا هو عـــذاب الله بالنســـبة لتلك الحضارات.

وتذكرنا هـذه الآيـات المباركة ببعض دروس التـاريخ ، وعـبره الحضـارية ، حيث تسـتعرض الأسـباب الـتي أنهت مــدنيات عديــدة ، وتــأتي بعــدة شــواهد على ذلك ، من مجتمعات متباعدة زمنيّا ، متباينة في السلوك والتوجّهـات ، فمن قوم نوح إلى قوم إبراهيم الى قوم لـوط الى قـوم شعيب الى قوم عاد وثمود ، وبعد ذلك النموذج الأشهر

وهو قصة موسى وفرعون ، متعرضا لقصة قارون.

ولنهاية الحضارات أسـباب ذاتية وخارجية في منظـور القـــرآن ، إلّا أنّ الســـياق يـــبيّن الأســـباب الذاتية ، لان العوامل الخارجية لا تنهي الحضـــــارات من دون وجـــــود أســباب داخلية لانهيارها ، وحــتى لو بــدت بعض العوامل الخارجية ذات أثر فعّال فلا بد أن نبحث في أسـاس بنيـان الحضارات مما أضعفها وجعل زوالها ممكنا ، وتبين الآيـات الممارســـات الخاطئة الـــتي تختلف من تجمع الى آخر ، ولكنها تنتهي بالتالي الى ثلاثة عوامل ـ فيما يبدو لي ـ :

1 ـ الثقافة الجاهلية :

حيث يلعب انحـــراف الثقافة دورا بـــارزا في تـــبرير أخطـــاء الإنســـان مما يجعله يفقد المناعة ضد الخطأ ، ويغـدو مـتراكم السـلبيات عرضة للبـوار ، ثم ان الثقافة الباطلة تحوّل القيم فتنحرف مسـيرة الحضـارة الصـاعدة الى طريق هابط ، وأخيرا تشوش الثقافة الفاسـدة الرؤية فيتخذ البشر مواقف خاطئة ، ولان الثقافة بمثابة البنيـــان التحتي لأيّ كيان ، فمتى كان الأسـاس غـير سـليم ، فـان البنيان ينهار سريعا.

2 ـ الانحراف عن الصراط :

فـالانحراف يـذهب بطاقـات الامة والفـرد بعيـدا عن اهدافه الرئيسية ، كالذي يسير بعيدا عن الجادة ، لا تزيده السرعة الا بعـدا ، وكلما ابتعد الإنسـان عن الطريق الـذي ارتضاه الله له كلما قرب من نهايته ، سواء كـان الإنسـان الفرد أم الحضارة.

3 ـ الاعتماد على القوة المادية :

ثقافة الإنســـان الجاهلية ، وانحرافه عن الصـــــراط يدفعانه الى تجاهل قدرة الله ، والاعتماد أكثر فـأكثر على حسابات مادية بحتة ، سواء كان يمتلكها هو أو تحيط به ،

ناسيا ان من يسيّر الحياة هو رب العباد ، وانه سـبحانه هو الذي يشـاء لا غـيره ، وهـذه خاتمة المطـاف في مسـيرة التدهور البشري ، وحين تصل البشرية الى هذا المطلب ، فقد اذن لها بالزوال.

ومع ان الله قدم لنا ادلة واقعية على أسباب سـقوط الحضـارات ، الا أننا نـرى الآن البرهـان تلو البرهـان على جاهلية هذا القرن ، وزيف حقائقه ، ففي هذا الزمان صـار الهـوى صـنما ، وصـارت المظـاهر المادية قـوت الإنسـان اليومي ، والشواهد والأرقام تبين مدى الاخطار التي تهـدد البشــرية ، ولا ريب ان التصــاعد الجنــوني في ميزانيــات التسلح في العـالم ، واتسـاع الفجـوة العظيمة بين الـدول المســتكبرة والمستضــعفين ، وانتشــار الفســاد الخلقي والإرهـاب والنفـاق ، هو بعض مظـاهر الكفر في الجاهلية الحديثة التي تهدّد مكاسب الانسانية جمعاء.

بينات من الآيات :

[36] (**وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُـعَيْباً فَقـالَ يا قَـوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَـوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**)

بعث شـعيب (ع) الى مـدين من أجل الإصـلاح ، وقد كانوا مفسدين ، وذكرهم شعيب (ع) بثلاث مسائل :

1 / عبــادة الله ، والــتي تعــني إخلاص العبودية له ، والتوجه إليه.

2 / وارجوا اليوم الآخر الـذي يعـني الخـوف من النـار والرجــاء للجنة ، بمعــنى ان يضــعوا اليــوم الآخر في حسبانهم ، ويعرفوا انهم محاسبون على أعمـالهم ، ومـتى ما عرف الإنسان ذلك صلحت أعماله.

3 / ولا تعثـوا في الأرض مفسـدين ، وفي آي القـرآن الكريم في سورتي الأعراف

والشعراء فسادهم الاقتصادي.

[37] (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ)

كعادة سائر الأقوام كذبت مدين نبيها شعيبا ، وجرت فيهم سنة الله سبحانه ، إذ أخذهم بالرجفة ، فأصبحوا جاثمين في بيوتهم ، بعد ان صرعهم العذاب.

وهنا سبحانه يختصر السياق ببيان الصراع بين نبي الله وبينهم ، الذي فصل القول فيه في سور مختلفة ، فقال سبحانه : «فكذبوه» ولكنه في المقابل يصف عذابه وصفا بليغا ، ولعل ذلك للاستخفاف بتكذيبهم ، وان تكذيبهم لم يكن ليضرّ الله ، أو ينقص في حكمه ، وبيان ان الله سبحانه عند ما ينتقم فان انتقامه سيكون رهيبا.

[38] ولم يكن العذاب ليحيق بمدين أو قوم لوط فحسب ، بل ان العذاب على من كذّب وتولى.

(وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ)

انظروا الى مساكنهم وآثارهم ، لتعرفوا رهبة العذاب ، وقدرة الله سبحانه وتعالى ، وفي المقابل انظروا الى أيّ مدى وصلوا في التحضر ، وهل كل ذاك التمدن منع عنهم عذابه.

(وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ)

عبادة الشيطان كان السبب الرئيسي في ضلالهم ، فقد زين لهم اعمال السوء التي كانوا يعملون ، وصدهم عن السبيل ، وقد أخذ الله سبحانه من البشر عهدا بعدم عبادة الشيطان عند ما قال لهم : «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ* وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ» [1]

---

(1) يس / (60 ـ 61).

ولكنهم نكثوا عهدهم مع الله فحاق بهم نكثهم.

(**وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ**)

ولعل الآية تهـدينا الى ان استبصـار الأمم عند نشـوئها لا يشـــــفع لهم عند الله إذا انحرفـــــوا ، وان على الأمم المستبصرة ألّا تستهين بمكر الشيطان الذي يزين اعمـال السوء في أعين الغافلين ويصدهم عن السبيل.

وهنا فكـرة أخـرى نسـتوحيها من هـذه الخاتمة هي فكرة الدورات الحضارية ، وان الأمم الفتية يغلب صـلاحها على فســـادها ، إلّا أنّها لا تلبث ان يتغلب عليها جـــانب الفساد ، وان الله سبحانه يبعث الرسل لمنع تدهورها ، الا ان كثيرا منها تتخذ طريقها الى النهاية المدمرة.

[39] وكما سـائر الأقـوام كـذلك قـارون وفرعـون وهامـان الـذين اسـتكبروا ، ولكن هل كـانوا قـادرين على مواجهة عذاب الله؟!

(**وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جـاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ**)

تشير الآية الى الاعمدة الثلاث للفساد وهي :

1 ـ السلطة الاقتصادية (قارون).

2 ـ السلطة السياسية (فرعون).

3 ـ السلطة الاعلامية (هامان).

فقد كان قارون يمثل الفساد الاقتصادي ـ الاحتكـار ، عدم دفع

الاسـتحقاقات ، الطغيـان على المجتمع ، اتهـام القيـادة ــ بينما كان فرعون يجسد الإرهـاب السياسي والعسـكري ، أما هامان فقد كان المستشـار الاعلامي لفرعـون وموضع ســرّه ، ولا يتجسد الفســاد في المــال ، أو الســلطتين السياسية والعسكرية ولا في الاعلام ، فهي مجرد وسائط اجتماعية ، وانما الفســاد في الــرؤوس المــدبّرة لهــذه السلطات الثلاث.

[40] لقد كان حصيلة تمسك هؤلاء بالفساد اسـتكبارا في الأرض الدمار ، ولم يكن هلاكهم بدعا أو صــدفة ، انما كان سنة جارية تكـررت في مختلف الظـروف ، وعند أمم متباينة تاريخيا وقوميا وفسادا.

(**فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ**)

وهذا جزاء قوم عاد وثمود.

(**وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ**)

قارون.

(**وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا**)

فرعون وهامان.

(**وَما كـانَ اللـهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كـانُوا أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُونَ**)

لم يكن الله ليظلم عبــاده ، بيد ان عذابه للكــافرين تجسيد لأعمالهم أنفسـهم ، وظلمهم لها ، وان عـذاب الله انما هو صورة لعدل الله سبحانه.

ونحن نعــرف ان الجــزاء من جنس العمل ، وعــذاب الله سبحانه ـ دنيا وآخرة ـ انما هو صورة أخرى لأفعالهم ، فمن قدس الماء غرق فيه ، ومن حفر الصخر عــذب به .. وهكذا.

قـال الحجـاج لسـعيد بن جبـير (رض) لما أراد قتله : اختر قتلتك ، فأجابه سـعيد بكل ثقة واطمئنـان : بل اخـتر أنت قتلتك التي سأقتلك بها في الآخرة.

[41] (**مَثَـلُ الَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللـهِ أَوْلِيـاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتـاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُـوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**)

ان من اعتمد على غــير الله ، فــان حضــارته كــبيت العنكبوت ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت.

فمهما كـانت قـوة الإنسـان وقدرته ، فانها لن تجـدي نفعا امــام قــدرة الله ، بيد ان الضــمان الوحيد لاســتمرار الطاقات ، ونمو الحضـارات هو تبلـور المفـاهيم التوحيدية في الواقع ، وأداء واجب الشــكر ، وحق الطاعة ، واقتلاع جذور الشرك والعبودية لغير الله.

[42] (**إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)

ان الله يعلم حقــائق الشــرك الخفية في النفــوس ، ومصـاديقها في الواقع ، مهما تعـددت أشـكالها ، وتنـوعت حقائقها ، والله عزيز قــادر على الأخذ كيفما يشــاء مــتى يشاء ، ولكنه حكيم لا يأخذهم حتى يتم الحجة عليهم.

[43] (**وَتِلْكَ الْأَمْثـالُ نَضْـرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ**)

وجـــود القابلية للهداية والرغبة فيها ، والتحـــذر من مواطن السـيئات الـتي وقع فيها من قبلنا شـرط أساسي للاستفادة من عبر التاريخ.

وتعقل هـذه البصـائر لا يتم الا من العلمـاء لان أكـثر الناس لا يعقلون.

خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَـةً
لِلْمُؤْمِنِينَ (44) اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتـابِ وَأَقِمِ
الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ
اللـهِ أَكْبَـرُ وَاللـهُ يَعْلَمُ ما تَصْـنَعُونَ (45) وَلا تُجـادِلُوا
أَهْلَ الْكِتـابِ إِلاَّ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُـوا
مِنْهُمْ وَقُولُــوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْــزِلَ إِلَيْنا وَأُنْــزِلَ إِلَيْكُمْ
وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46) وَكَـذلِكَ
أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ
وَمِنْ هــؤُلاءِ مَنْ يُــؤْمِنُ بِـــهِ وَما يَجْحَــدُ بِآياتِنا إِلاَّ
الْكافِرُونَ (47) وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا
تَخُطُّهُ بِيَمِينِـكَ إِذاً لارْتـابَ الْمُبْطِلُـونَ (48) بَـلْ هُـوَ
آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ

بآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (49) وَقـالُوا لَـوْ لا أُنْـزِلَ عَلَيْـهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللـهِ وَإِنَّما أَنَا نَـذِيرٌ مُبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتـابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَـةً وَذِكْـرى لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُـونَ (51)

خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ

هدى من الآيات :

تركـــيزا بعد القصص الـــتي تليت ، وبيانا لمنهج الهي يقينا مصير الغابرين تأتي آيات هذا الدرس لتـبين أولا : ان الحق أساس خلق السـموات والأرض ، وحين نعـرف ذلك نهتدي الى ان كل شـيء يسـير على هـدى سـنّة مفروضة عليه ، وعلينا ـــ إذا ـــ معرفة تلك الســـنن ان كنا نريد التعامل مع حقـائق الخلق ، ولا يجـوز ان نتمـنى ان يكـون العــالم المحيط بنا على صــورة نصــنعها في أنفســنا ثم نتعامل مع تلك الصورة التي لا تمت الى الواقع بصـلة كما يفعل الجـــــاهلون ، وأكـــــبر عقبة في طريق العلم هو التصـورات الذاتية الـتي يتوهمها البشر ، ويـزعم بأنها هي الحقائق الموضوعية.

وحين يثبت الـــوحي مبــــدأ الحق يبـــني عليه مبـــدأ المسؤولية ، فليس بالتمنيات تقدر ان تبلغ الحياة الفضلى ، انما بالســـعي الرشـــيد ، والعمل الجـــاد المخلص تتّقي العقاب الإلهي.

ثانيا : ان معرفة هـــذا المبـــدأ بحاجة الى قابلية في القلب تأتي بالايمان والتسليم ، ذلك ان القلوب المغلقة لا تستطيع ان تستوعب هذا المبدأ الشامل.

العين تعجز عن التركــيز على نــور بــاهر ، والاذن لا تسمع الأصوات ذات الذبذبات العالية جدا ، وكـذلك القلب فليس كل قلب قـادرا على معرفة الحقـائق الكـبرى في العـالمين ، وانما القلـوب المؤمنة الـتي روّضت بـالتقوى ، وبـوركت بـالوحي ، ونورها الله بنـوره البهيّ قـادرة على وعي هذه الحقيقـة. ان محـور الخليقة هو الحق «**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ**».

ثالثا : لكي نفهم هـذا المبـدأ ، ونعتـبر بالتـالي بعاقبة الــذين اهلكهم الله بفســادهم وعنــادهم ، لا بد ان نتلــوا القرآن ، لنقرأ من خلال آياته آيات الله في الخليقة.

رابعا : وعلينا ان نـدفع عن قلوبنا هجمـات الشـيطان التي لا تتوقف ، هذه الوساوس والظنون والتمنيـات جنـود الشـيطان الـتي تحيط بـالقلب احاطة السـوار بالمعصم ، والصلاة وذكر الله حصن القلب ضدها.

خامسا : إيجــاد علاقة إيجابية وبنــاءة مع أهل الكتب الالهية يساهم في تكريس وحدة الرسالات ، وبالتالي رفع مســتوى الــوعي الايمــاني للبشــرية ، وبــالرغم من ان الجــاهلين قد أوغلــوا في الكتب الســابقة تحريفا وتــأويلا باطلا ، وبالرغم من وجود نواقص في الكتب أتمها الإسلام ، الا ان علينا احـترام أهلها وعـدم الجـدل معهم الا بـالتي هي أحسن.

ويمضي السـياق في بيـان جـدل الكفـار في رسـالة النبي ويرد شبهاتهم ويقول : ان الرســول لم يكن يتلو من قبل كتابا ولا يخطه بيمينه حـتى لا يرتـاب المبطلـون في صدق نزول الكتاب من الله عليه.

انما الكتاب آيات تعيها صـدور العلمـاء ، أما من يجحد بها فانما لظلمه ، ولآثار الذنوب على قلبه ، وهم يطـالبون بآيـات خارقة وهي عند الله وبـأمره ، وانما الرسـول نـذير وما عليه الا البلاغ.

لو كان هؤلاء من أهل الهداية كـان هـذا الكتـاب كافيا لهم ، أو ليس قد أنزله الله رحمة وذكرى لقوم مؤمنين؟!

بينات من الآيات :

[44] قد يعـرف الفـرد حقيقة واحـدة تفتح له أبـواب المعرفة ، وقد يجهلها فتصبح كل معلوماته لغزا ، والـوحي الالهي يذكرنا أبدا بتلك المعـارف الـتي هي كالمفتـاح تفك رموز الخليقة. منها : ان بناء الأرض والسموات قـائم على أساس الحق.

(**خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِ**)

فهي ليست تصورات ، ولا تمنيات ، ولا تمشي حسب أهواء هذا وذاك ، ولا هي مخلوقة عبثا وبلا هدف.

أرأيت لطف الخلق ودقتـــه؟! أو رأيت فيه ثغـــرة أو فطورا؟! هل رأى فيه أحد لعبا ولهوا وعبثية؟!

الا تنظر الى إتقان صنع المجرات التي تكاد لا تحـد؟! وإتقان صـنع البعوضـة؟! أ فلا تـرى حالة التكامل بين ابعد مجرة ، وأصغر دابة بل احقر جرثومة؟!

الله أكـبر. انه محـور الحق الـذي لا يحيد عنه شـيء ، ولكن لماذا لا نعي نحن هـذا المحـور العظيم الـذي تهـدي اليه كل الشواهد والآيات. أ تدري لماذا؟

القرآن الكريم يجيب قائلا :

(**إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ**)

هل تسـتقبل الصـخرة الصـلدة بركـات الغيث ، وهل تنبت زرعا ، أو تحفظ ماءا؟ كلا .. لأنها ليست بذات قابلية ، كذلك القلب الصخري المعاند الذي يخلق في ذاته صنما فيعبـــــده ويـــــزعم بأنه الحق ، ويغلق على نفسه منافذ المعرفة.

الايمان هو التسليم ، والتسليم هو التصـديق ، والقلب الـذي يـرفض سـلفا قبـول اي فكـرة كيف ينتفع بآيـات العلم؟!

[45] لمـاذا يتحجر قلب البشر ، وكيف نزيل قسـوته ونجعله ليّنا ، أو لا أقل كيف نحافظ على القلوب الخاشعة الا تقسوا؟

الجهل ، والغفلة ، واتبـــاع الهـــوى ، وطـــول الأمل ، والعادات السيئة ، والأفكار الباطلة ، ووسـاوس الشـيطان ، وظنـــون النفس ، وتمنيـــات القلب كل أولئك يمكن ان تكـون حجبا سـميكة على القلب ، أو مغـاليق لا تفك على أبوابه ، وعلى الإنسان ان يقوم بجهد مكثف ودائم لتطهير قلبه ، وفك اقفاله ، وفتح منافذه ولكن بماذا؟

بالكتاب ، بالصلاة ، بذكر الله.

(**اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ**)

القرآن شفاء لما في الصدور ، كل آية منه تفتح سبيلا للهداية الى القلب ، وتطهر جانبا منه ، وعلينا ان نتلـــــوه في آناء الليل وأطـراف النهـار ، ونتـدبر فيه ، ونليّن قلوبنا القاسية بآياته.

(**وَأَقِمِ الصَّلاةَ**)

دعنا نصــلي صــلاة الخاشــعين لا صــلاة الســاهين ، وعندئذ نعرف مدى الفائدة العاجلة الـتي نسـتفيدها منهـا. ولعل كلمة (الاقامـــة) تعـــني إتيانها بشـــروطها ، ومن شــروطها الســكينة والخشــوع. والفائــدة العاجلة الــتي نرجوها بإقامة الصــلاة تركــيز التقــوى في القلب ، مما تبعدنا عن الذنوب الكبيرة والصغيرة.

(**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ**)

ولعل الفحشــاء هي الخطايا الكبــيرة الــتي لا يمكن تبريرها كالقتل ، والزنا ، والنهب ، والســرقة ، والاعتــداء على حقوق الناس علنا.

أما المنكر فلعله الـذنوب الـتي ينكرها القلب ، وقد لا يعــرف عنها المجتمع كالمســاهمة في قتل النــاس عــبر إســـقاط شخصـــياته بالغيبة والتهمة ، وكـــذلك الغش والرشوة وهكذا الرياء والنفاق و.. و..

(**وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ**)

ان من عظمة الصــلاة انها ترسخ في القلب عقيــدة التوحيد والتي هي الينبوع الصافي لسائر العقائد السليمة.

ولعل الآية تشير الى ان جــوهر الصــلاة هو ذكر الله ، ولــذلك كــان علينا ان نهتم به ســواء في الصــلاة أو في حـــــالات أخـــــرى ، ذلك ان ذكر الله يحصن القلب من وساوس الشيطان ، ويحفظه من همزاته ، ويقــاوم الغفلة والاسترسال.

ومن المعـــروف ان ذكر الله ليس مجـــرد التلفظ ب «الله أكــبر ـــ لا إله إلّا اللـــه» وانما هو تــذكر الله عند المعصـية فيصـبر عنها ، وعند الطاعة فينـدفع إليها ، وعند المصيبة فيتسلى عنها ، وعند الزحف فلا يولي الدبر.

[46] الآيات التي مضت كانت تبين قصص الأنبيـاء مع الأمم ، ولعل ذلك كـــان مناســـبة للحـــديث عن موقف الإســلام من الرســالات الســابقة ، وجــاء الجــواب : ان الموقف ايجابي ويتلخص في :

الف : الجـــدال بـــالتي هي أحسن ، دون خشـــونة أو عنف.

بــــاء : توجيه العنف الى الظــــالمين منهم كما يوجه العنف ضد الظالمين من أبناء الامة الاسلامية.

جيم : بيان أسس الوحدة بينهم وبين المسلمين.

(**وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**)

جـاء في بعض الروايـات ان معـنى هـذا الجـدال : ان تســـــتدل بالأدلة الواقعية ، وألا تنكر حقّا يستشـــــهد به صاحبك ، ولا تدّعي باطلا لإثبات حقّك.

(**إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**)

ومن هــذه الآية نســتوحي : ان الإســلام لا يهتم فقط بالمسلمين ـ كطائفة بشـرية ــ وانما أيضا بأبنـاء الطوائف الاخرى ، فيقـاوم الظلم انى كـان وعلى أي شـخص وقع ، مسلما كان أو نصرانيا أو يهوديا وحتى لو كان مشركا.

الإسـلام رسـالة الله لانقـاذ الإنسـان كإنسـان ، وعلى المسـلم أن يكـون نصـيرا للمظلـوم انى كـان ، وجـاء في حديث :

«**من سـمع رجل ينـادي يا للمسـلمين فلم يجبه فليس بمسلم**»

(**وَقُولُـــوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْـــزِلَ إِلَيْنا وَأُنْـــزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ**

(**واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**)
والواقع : ان وجــود محــور توحيــدي واحد يــؤمن به الجميع هو امتن أساس للتعايش السلمي بين الديانات.
[47] قد تشتبه الأمور على بعض أهل الكتــاب ، بينما البعض الآخر يسـارع للايمـان بالرسـالة الـتي ختم بها الله رسـالاته لمعرفته بجـوهر الرسـالات الإلهية ، الـذي يتجلى بأفضل صوره في هذه الرسالة.
(**وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ**)
لعل معناه : كما أنزلنا على الرسل من قبلك.
(**فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**)
لأنهم يجدونه مكتوبا عنـــدهم ، ولأنهم يجـــدون فيه شواهد الصدق التي كانت في الكتب السابقة.
(**وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ**)
لعل المراد بهم الموجودون في الجزيرة من غير أهل الكتاب.
(**وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ**)
الذي يكفرون بنعم الله ، وتنطوي قلوبهم على مرض ، وإلا فان هذه الآيات واضحة لا ريب فيها.
[48] ومن شواهد صدق الرسول تفجر ينـابيع الـوحي على لسـانه مـرة واحـدة ، دون تكامل ذلك عـبر التعلم أو بالتدريج ، ودون ان يتصل بالوسط الاجتماعي الذي

هو فيه ، بل ومن دون ان يكـون لـذلك الوسط اثر عليه ، بل يأتي أبدا تحـدّيا لمفاسد الوسط ، وفتحا لآفـاق جديـدة من المعارف عليه.

(**وَما كُنْتَ تَتْلُــوا مِنْ قَبْلِــهِ مِنْ كِتــابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ**)

[49] ومن شواهد الصدق على رسـالة الإسـلام يقين أهل العلم والحكمة والفضيلة في الامة بها ، ففي الناس ـ في كل عصر ومكـان ــ طيبـون وآخـرون فاسـدون ، ومن خلال تمسك الطيبين بفكـرة نستشـهد على صـحتها ، كما ان في الناس علماء وجهـال وايمـان العلمـاء بخط يزيـدنا يقينا بصدقه.

(**بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**)

وهم في هذه الامة أئمة الحق من آل بيت الرسول ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ والعلمـاء بالله ، الأمنـاء على حلاله وحرامه ، وهم أهل الـــذكر الـــذين أمرنا بالســـؤال منهم.

(**وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ**)

أما الفئة الكافرة بالكتـاب فهم أولئك المنبـوذون عند العـــرف ، الـــذين يظلمـــون النـــاس ، إذا من خلال طبيعة المؤمن والكافر بالرسالة نعرف مدى صدقها.

[50] ويطـالب الكفـار ــ جـدلا ــ بالمزيد من الآيـات والآيــات الخارقة ، بينما لا تجـــديهم الآيــات نفعا ، لأنها لو نزلت فكفروا بها لنزل بهم العذاب.

(**وَقالُوا لَوْ لا أُنْـزِلَ عَلَيْـهِ آيـاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُـلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ**)

فهو الـذي ينزلها مـتى ما شـاء بحكمته وبعد ان تنتهي فرصة القوم.

(**وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ**)

ان الثقافة الجاهلية تلعب دورا هاما في تبرير أخطــاء الكفـار المنهجية ، ولعل الآيـات الـتي كـانوا يطـالبون بها كـانت تـدور حـول موضـوعات لا غـنى فيها كالجـدليات البيزنطية ، بينما مهمة الرســـول الاولى الإنـــذار لا لكي يكرههم على الايمان ، بل لكي تستضـاء قلـوبهم فيؤمنـوا طوعا لينتفعـوا بالايمـان ، وهـذا ـ فيما يبـدو ـ هو المنهج السليم للدعوة وبه يتحقق الجدال باللتي هي أحسن.

[51] (**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْـكَ الْكِتـابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)

أو ليس دليلا كافيا على عظمة هــذا الكتــاب الـــذي نستكشف منه رؤي الحيـــــاة وبصـــــائر العمل انه رحمة للعالمين ، حيث يقدم لهم برامج الحياة السليمة ، والرؤى الواضحة الصحيحة ، وحيث يقوم بتـذكير المؤمـنين الـذين رفعوا عن أنفسـهم حجـاب الجهل ، والتكـبر ، فأثـار فيهم دفــائن عقــولهم ، واســتحث هممهم الناشــطة من أجل الســير قــدما في مســيرة تحرير الأرض والإنســان من عبودية الأوثان الى عبادة الله الواهب المنان.

قُــلْ كَفى بِاللـــهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَــهِيداً يَعْلَمُ ما فِي
السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُـوا بِالْباطِـلِ وَكَفَـرُوا
بِاللـــهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِـــرُونَ (52) وَيَسْـــتَعْجِلُونَكَ
بِالْعَـذابِ وَلَــوْ لا أَجَــلٌ مُسَــمًّى لَجــاءَهُمُ الْعَــذابُ
وَلَيَـأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَـةً وَهُمْ لا يَشْـعُرُونَ (53) يَسْـتَعْجِلُونَكَ
بِالْعَـذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَـةٌ بِالْكـافِرِينَ (54) يَـوْمَ
يَغْشــاهُمُ الْعَــذابُ مِنْ فَــوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ
وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55) يا عِبــادِيَ الَّذِينَ
آمَنُـوا إِنَّ أَرْضِـي واسِـعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُـدُونِ (56) كُـلُّ
نَفْسٍ ذائِقَـةُ الْمَـوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُـونَ (57) وَالَّذِينَ
آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحاتِ لَنُبَـوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفـاً
تَجْــرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهــارُ خالِــدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْــرُ
الْعامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَـبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُـونَ (
59) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ

رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ (60)
وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَـقَ السَّـماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَـخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ لَيَقُـولُنَّ اللـهُ فَـأَنَّى يُؤْفَكُـونَ (61)
اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَـهُ إِنَّ
اللـهَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (62) وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ نَـزَّلَ
مِنَ السَّـماءِ مـاءً فَأَحْيا بِـهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْـدِ مَوْتِها
لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَـلْ أَكْثَـرُهُمْ لا يَعْقِلُـونَ (
63)

قُلْ كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً

هدى من الآيات :

هل هناك أكبر من الله ومن شهادته ، وهو الذي يــدبّر شـــــؤون الســــموات والأرض؟! كلا .. الله بكل عظمته وسلطانه شـهيد على صـدق رسـالاته ، وكفى به شـهيدا ، والخاسر حقّا هو الـــــذي يــــؤمن بالباطل ، ويكفر بالله ، (وبرسالاته).

ويزعمون : أنّ دليل صدق الرسـالات ينبغي أن يكـون عذابا عاجلا لمن يكفر بالله ، ولا يعلمـون انه لو جـاءهم لا ينفعهم ايمانهم شيئا ، بل يـأتيهم فجـأة دون أن يشـعروا ، ولا يعلمون ان العذاب الذي يطالبون به محيط بهم ، لــولا انهم محجوبون عنه بظاهر من الحياة الـدنيا ، وحين ترتفع عنهم حجبهم يغشاهم من كل أطرافهم.

لا بد من إخلاص الإيمان بالله للتخلّص من عذابه ، ولا يمكن التبرير بغلبة سلاطين الجور والكفر ، لأن أرض الله واسعة يمكن الهجرة في أطرافها ، ولا ينبغي الخــوف من الموت لأنّ كلّ نفس ذائقة الموت ، والمرجع الى الربّ.

ولـيرغب العاقل في ثـواب الله ، حيث هيّأ للمؤمـنين الذين يعملون الصالحات غرفا من الجنة خالـدين فيها ، أو ليسوا قد صبروا على البلاء ، ولم يداخلهم اليأس لتـوكلهم على الله ، ولم يخشـوا قطع أرزاقهم لأنّ الله يــرزق كل دابة ، كما يرزقنا وهو السميع العليم؟!

(والله يــدعوهم لفطــرتهم) فلأن ســألتهم من خلق السموات والأرض تراهم يعـترفون بـأن الله هو خالقهما ، ومسـخر الشـمس والقمر ، فلما ذا يسـمحون للشـيطان بإضلالهم؟!

كذلك الله يبسط الرزق لمن يشاء ، ويضيق على من يشاء ، وهو محيط علما بكل شيء ، فلما ذا نخشى الفقر ونكفر بالله طمعا في الغنى وهو الذي يدبر أمور الحيـاة ، فهو يــنزل من الســماء مــاء ، ويحــيي به الأرض من بعد موتها ، فله الحمد ، ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

بينات من الآيات :

[52] الرســالة هي تجســيد لصــفات الله ، وهــذا ما نلاحظه من خلال تجلّي أسماء الله في الرسالة ، فهي آية من آيـات الرحمة ، والحكمة ، والعظمة وغيرها ، وبنظـرة في الرســالة نعـرف أنّ ربّنا رحيم ، حكيم ، عظيم ، والى غيرها من أسمائه الحسنى.

ومن جهة أخـرى فـإنّ الرسـالة هي تحقيق لتطلعـات العقل والفطرة ، فقد دخل اعرابيّ ذات يوم على رســول الله (ص) طالبا منه النصـيحة ، الـتي لا يحتـاج بعـدها إلى نصيحة أخرى ، فكان أن وضع رسـول الله يــده على قلب الرجل وقال : «ما قال لك هذا فافعل ، وما قـال لك هـذا لا تفعل فلا تفعــل» فالرســالة هي تلبية لنــداء الفطــرة ، وارواء لعطش الوجـــدان ، وليس بين الرســـالة والعقل تنـاقض ، ولـذلك جـاء في بعض الروايـات : «إن لله على الناس حجتين : حجة ظاهرة ، وحجة باطنة ،

فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة ـ عليهم السلام ـ وأما الباطنة فالعقول» [2] وشهادة العقل دليل على صحة الرسالات.

ومن دلائل صدق الرسالة تلك الانتصارات الهائلة التي يمنّ بها الرب على عباده المؤمنين ، بالرغم من قلّة عددهم ، وضعف عدتهم ، حيث يقول سبحانه : (**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) [3] والمعاجز الخارقة وغيرها نتيجة استجابته لدعائهم ، وحينما نقف مع الرسالة ، ونؤمن بالله ، فان الحياة ستسخّر لنا ، وفي الحديث القدسي : «**عبدي أطعني أجعلك مثلي ، أنا حيّ لا أموت ، أجعلك حيّا لا تموت ، أنا غنيّ لا أفتقر ، أجعلك غنيّا لا تفتقر ، أنا مهما أشاء يكن ، أجعلك مهما تشاء يكن**» [4] وهذه شهادة أخرى.

وشهادة الله تتجسد أيضا في الحقيقة الفطرية التي يؤمن بها جميع الناس ، وهي حقيقة الخالق والمخلوق ، فلا بدّ للكون من إله ، ولكن هذه المعرفة إجمالية ، وإذا أردنا المعرفة التفصيلية ، فان ذلك لا يأتي إلا من خلال الايمان بالله ، ومعرفة آياته ، وهذا لا يأتي أيضا إلّا من خلال التزامنا بتعاليم الرسالة ، وتطبيق أحكام الشريعة الغراء.

(**قُلْ كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**)

إن الله يعلم ما تسرون وتعلنون ، ويعلم خفاياكم ، وهو الشاهد على ما تعملون من خير أو شر ، من حقّ أو باطل ، وليس الله بظلام للعبيد.

---

(2) بحار الأنوار ج 1 / ص 137 (من وصية الامام الكاظم (ع) لهشام بن الحكم).
(3) آل عمران / 123
(4) كلمة الله ص 141 / نقلا عن آمالي الصدوق.

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ**)
وهناك علاقة حتمية بين الإيمـان بالباطل والكفر بالله ، فبمقدار إيمانك بالباطل يكـون ابتعـادك عن الله وكـذلك العكس.
[53] (**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**)
إن مشـكلة السـواد الأعظم من النـاس هي انهم لا يفهمون أن الـزمن هو سـبيل الامتحـان الـذي رست عليه قواعد الحيـاة ، حيث يفصل بين العمل والجـزاء ولـذلك يطالب البعض بتعجيل العذاب ، ولكن الله يعدهم بالعذاب حيث لا يتمكنون من التوبة أو العودة.
[54] (**يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ**)
إن الحقـائق موجـودة ولكنا لا نراها ، وهي أشـبه ما تكـون بالطاقة الكامنة في الأشـياء ، فعند ما تأكل مـال اليـتيم فانما تأكل في بطنك نـارا ، والكـذب رائحة نتنة تخرج من فمك ، ولكن جميع هذه المظـاهر لا تـرى الآن ، إلّا إذا تغيّـرت طبيعة الكـون ، وحينها يصـبح المـال نـارا ، والكذب نتنا ، وهذا هو العـذاب الـذي به يكـذبون ، وهكـذا تكون جهنم محيطة بالكافرين.
[55] (**يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)
في ذلك اليـوم سيغشـاكم العـذاب من كل حـدب وصوب ، وجزاؤكم من عين أفعالكم ، وستذوقون ما كنتم تعملون.

[56] بعد أن ذكرنا القـرآن بشـهادة الله الـتي تكفي عن كل شـهادة على صـدق رسـالاته ، وبيّن أن الكـافرين هم الخاسرون وليس المؤمنون ، وان تأخير العـذاب عنهم لا يعـني انه يمكن التخلص منـه. كلا .. بل هو موجـود فعلا ومحيط بهم ، إذ أن أعمالهم هي التي يذوقونها عذابا حين يغشـاهم من أطـرافهم ، وبالتـالي بعد أن هز السـياق ضـمائرهم أخذ يعـالج بعض العقبـات الـتي تعـترض طريق الإيمان ، ومن أبرزها : هيمنة الجبارين ، فأمر بالهجرة عن بلاد الكفر قائلا :

(**يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ أَرْضِـي واسِـعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**)

أنت عبـدي ، والأرض أرضي ، فاسع فيها واعبـدني ، ولا تخضع لسـلطة الطغـاة ، لأنهم يرهبـون النـاس من المـوت ، وعلى الإنسـان أن يتحـرر من خـوف المـوت بمعرفة أنه لا ريب ذائقة ، حتى يخـرج من عبـادة الطغـاة إلى عبادة الله.

[57] (**كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ**)

[58] (**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَـوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ**)

الغرفة هي : الغرف المرتفعة ، وهي قصر المـؤمن ، حيث ينعمون بالخلود ، والشباب ، والحـور العين ، وخدمة الولـدان جـزاء عملهم وإيمـانهم ، وهكـذا يكـون جـزاء العاملين.

[59] (**الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**)

ولكن هذا الجزاء ليس بلا ثمن ، فثمنه الصبر والتوكل ، وهي من صفات المؤمنين. الصـبر يعـني تحمل الصـعاب من أجل مستقبل أفضل ، والتوكل يعني

استخراج كنوز الذات من أجل العمل.

[60] (**وَكَـأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِـلُ رِزْقَهَا اللــهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**)

من الآيـات الأربع الماضـية يـبين الله حجابـان يعيقـان فهم الإنسان للوصول إلى الحقائق وهما :

الحجاب الأول : حذر الموت

كــلّ حيّ يتحسس في أعماقه ضــرورة الحــذر من المـوت ، ومن أولى ضـروريات الحيـاة البحث عن النجـاة وضـمان البقــاء ، ولكن قد يصل هـذا الشـعور إلى درجة المبالغة فتتضخم حتى نكـون عبيـدا للـدنيا ، إذن فلا نلقي بأيــدينا إلى التهلكة ، ولكن أية ذلة تلك أن نمــوت ونحن أحياء؟!

إن ميزة الحياة الحيوية ، ولفظ الحيـاة مشـتق منها ، فـاذا فقـدنا الحيوية والنشـاط فكأننا أمـوات ، فالحيـاة بلا حركة حيــاة ميتة ، لا روح فيها ، والإنســان بــذلك يقتل نفسه بالمجان ، لذلك كان الحـذر المبـالغ من المـوت من أبرز العوائق أمام فهم الحياة ، والعمل في سبيل الله.

ويعالج القرآن هذه الحالة بدواءين هما :

أ ــ طـرح حقيقة المــوت وحتميته ، فكل نفس ذائقة المـوت ، وليس هنـاك مجـال للهـرب منه فاسع سـعيك ، واستفد من فرص الحياة.

ب ــ والمـوت ليس واقعا مخيفا ، بل إن الخــوف هو فكرة مخيفة تعشعش في رأسك ، والموت ليس ما يحـذر منه ، وعند ما ترغب في الموت توهب لك الحياة ،

ويبقى سلاح الاعدام والتعذيب هما سلاحا الأعـداء ، وحين تتحداهما تستطيع أن تختار قرارك بحرية.

الحجاب الثاني : خشية الفقر

إن كثـــيرا من النـــاس يحـــذرون الفقر ، إلى درجة تجعلهم يمتنعون عن الإنفاق حـتى على أنفسـهم ، مما قد يصل بهم إلى درجة الشح ، والسبب في ذلك هو نظـرتهم المادية البحتة ، وتغـافلهم عن فكـرة العمل ، والجـزاء ، والنية ، فان الله يرزق على قدر النية والثقة به سـبحانه ، وليس هذا دعوة للإسراف ، بل دعـوة للإنفـاق في سـبيل الله ، لكيلا تكون خشية الفقر هو الحاجز الذي يحول دون وصولك إلى الحقيقة ، فعلينا أن نؤمن بحكمة الله وتدبيره ، فان الله لا يضيع أجر عباده المحسنين.

[61] (**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**)

فاذا كانوا يعلمون بحقيقة الخلق ، والـرزق ، وان الله مـدبر الأمـور ، فلما ذا يـبيعون إنسـانيتهم من أجل لقمة عيش مغموسة في وحل العبوديــة؟! فليســتنجدوا بــرب العالمين ، مسـخر الشـمس ، وصـانع الكـون ، وعليهم أن يتركوا الغرور والتكبر لحظة ليكتشفوا واقع التخلف والذل الذي يعيشون فيه.

[62] (**اللهُ يَبْسُـطُ الـرِّزْقَ لِمَنْ يَشـاءُ مِنْ عِبـادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)

إن مفـــاتيح الـــرزق بيد الله لا بيد الـــرئيس ، وقبض الروح بواسطة عزرائيل لا الاستخبارات المركزية ، فعليك أن تتحلى بالرضا والقناعة ، فالله يعلم مقـــــدار حاجتك ، وما هو الـواجب إعطـاؤه إيـاك وفق ما يناسب حكمته ، والقضاء بيد الله ،

فان أصابك شيء فلا تحزن ، لان الله سيعوضك خـيرا منه بسعيك وجهدك ، وهذه المرحلة لا يصل إليها إلّا المؤمنون الحقيقيون.

[63] (**وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ مَنْ نَـزَّلَ مِنَ السَّـماءِ مـاءً فَأَحْيا بِـهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْـدِ مَوْتِها لَيَقُـولُنَّ اللـهُ قُـلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**)

وها هي شواهد الكـون تـترى ، ودلائل العلم تتـوالى ، من أجل تأكيد حقائق الـرزق ، ولكنها لا تنفع إلّا لمن يعقل هــذه الحقــائق ويســتوعبها ، وهــذه وظيفة الإنســان ومســئوليته ، وبمــدى إدراكه والتزامه بها يكــون جــزاؤه وثوابه.

وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (64) فَـإِذا رَكِبُـوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَـهُ الـدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَــرِّ إِذا هُمْ يُشْــرِكُونَ (65) لِيَكْفُــرُوا بِما آتَيْنــاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُـونَ (66) أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَمـاً آمِنـاً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَـوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِـلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللـهِ يَكْفُـرُونَ (67) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جـاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (68) وَالَّذِينَ جاهَـدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

---

68 [مثوى] : أي مقاما.

وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ

هدى من الآيات :

إن الحياة الـتي لا تتصل بـالآخرة لا تسـتحق إلّا صـفة اللهو أو اللعب ، والفرق بين الصـفتين هو : إن اللهو عمل بلا هـدف ، بينما اللعب عمل بهـدف غـير محـترم ، وقد تكون حيـاة امـرئ لهـوا ، حينما لا يضع لنفسه أهـدافا ، أو أن تكون اهتماماته مادية وسطحية وبالتـالي غـير محترمة كالأكل والشرب والجنس.

والأهداف التي تقتصر على الوصول لمركز حسـاس ، أو ثـروة عظيمة ، أو امتلاك وسـائل ترفيهية ، دون امتلاك الفاعليات البشرية التي تغيّر مجرى الأحداث ، هي مجــرد أهداف غير محترمة.

وقد يضع الإنسـان أهـدافا لحياته الـدنيا ، ولكنه لا يستطيع أن يجزم أن بامكانه تحقيق هـذه الأهـداف ، وهل إن الموت سيفصل بينه وبين ما يتمـنى ، وحـتى لو حققها فهل ستستمر معه طويلا أم لفترة محدّدة؟

إن هــذه الأهــداف هي الأخــرى ليست أهــدافا جدية لتعلقها بالحيــاة الــدنيا فقط ، والــتي تعتــبر لعبا ــ حسب التعبــير القــرآني ــ وذات مــرة كــان النــبي الأعظم (ص) جالسا بين أصـــحابه ، فخط على الأرض ثلاثة خطـــوط ، فقيل له : يا رسـول الله ما هـذه الخطـوط؟ فقـال : هـذا ابن آدم مشيرا إلى الخط الأول ، وهذه أمانيه مشـيرا إلى الخط الثــالث ، فقيل له : وما الخط الأوســط؟ فأجــاب (ص) : هو الموت الذي يحول بين بـني آدم ، وبين أمانيه ، فالعاقل هو الذي يجعل الحياة قنطرة للآخرة.

كل إنســان مفطـور على معرفة الله سـبحانه ، ولكن قد يفصل بينه وبين المعرفة حجب الغفلة والنســــــيان والهوى ، فاذا ارتفعت هذه الحجب صـارت الرؤية واضـحة ، ولنأخذ مثــالا من واقع الحيــاة : عند ما يمــرض ابنك ، وتفتقد الطبيب المعالج ، عندئذ تزول جميع حواجز الجبت والطاغوت ، وتعرف الله وتتصل به ، ويكـون دعـاؤك نابعا من صــميم فــؤادك ، وما أن يتشــافى حــتى تنسى الله ونعمته عليك.

فالإنســـان لا يعـــرف الله إلّا عند الحاجة ، وعند ما تنتهي حاجته تنتهي معرفته معها ، فعند ما يركب السـفينة ، ويمخر بها عباب المحيطات الشاسعة ، وتتلقفه الأمــواج الهــــــادرة ، حينها فقط يتوجه قلبه بكل إخلاص إلى الله سبحانه.

إنه الله الــذي تلجأ إليه ، ويتصل به قلبك في أوقــات الحاجة ، حين تسد جميع الطرق أمامك ، ولا يبقى لك من منفذ من البلاء ، حينها لا يبقى إلّا أن تطرق أبواب السماء بــدعائك الخــالص ، والمشـوب بــالعجز أمــام قــدرة الله ، حينذاك يأتيك الرد إلهيا فتزول جميع العوائق والمشــكلات ، وهذه هي آثار الله ، وبها نعرفه.

ثم يــبين الله في آخر آيــات هــذه الســورة نعمة الله على أهل مكة حين جعل لهم حرما آمنا ويتخطف النـــاس من حولهم.

ولكنهم مع وجود هـذه النعمة عنـدهم تـراهم يؤمنـون بالباطل ويكفـرون بالله ، ويكـذبون رسـوله ، وهـذه عـادة أصحاب القرى ان يكـذبوا وينسـوا ما أنعم الله عليهم به ، بل وقد يتخذون من النعم مادة للفساد.

وبعكس أولئك الـذين آمنـوا بالله وبالرسـول واتبعـوه وعزروه وجاهـدوا معه. إن الله ليهـديّنهم سـبلهم. (**جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهـارُ**) ، وإن الله مع المحسـنين ، وسيحيق ربنا بالذين كفروا جهنم وبئس المهاد.

بينات من الآيات :

[64] (**وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ**)

إن الحيـاة الـدنيا بصـورتها العادية ، ومقوماتها ، وأبعادها المادية مجـرد لهو أو لعب بلا هـدف ، فالأهـداف الجدية ترتبط جـديتها بمـدى ارتباطها بالحيـاة الآخـرة ، والقضايا الغيبية.

(**وَإِنَّ الـدَّارَ الْآخِـرَةَ لَهِيَ الْحَيَـوانُ لَـوْ كـانُوا يَعْلَمُونَ**)

وفي الـدار الآخـرة تتـوفر جميع مقومـات الحيـاة من الخلـود الأبـدي ، واللـذات الجمّة ، والراحة النفسـية الممتزجة بالطمأنينة ، فيتخلص المؤمن من هموم الـدنيا ، ومشاغل الحياة.

[65] (**فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِـينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ**)

تـبين هـذه الآية الحـالات النفسـية للإنسان في بعض مواقفه الحياتية ، فحينما اضطر واحتاج إلى الله سبحانه ، أقرّ له بالحكمية والسيادة ، وجعل له الولاية

والسيطرة على الكون والحيـاة ، وهو الـذي كـان يعـارض الرسل ، ويكفر بالله بالأمس ، فما عدى مما بدى؟!

ولكن ما أن تطأ قـدماه سـاحل الأمـان ، ويبتعد عن الخطر ، ويستغني عن الضرورة ، حـتى ينقلب على عقبيه ، ويكفر بالله ، ويشرك به في قدرته وسلطانه ، «فما لله لله ، وما لقيصر لقيصر»؟!

كما أنّ هـذه الآية تـبيّن حقيقة وجـود الله ، وهيمنته على الكـون ، فقد قـال رجل للإمـام الصـادق (ع): يا ابن رسـول الله دلّـني على الله ما هـو؟ فقد أكـثر عليّ المجـادلون وحيّـروني فقـال له : يا عبد الله هل ركبت سـفينة قـطّ؟ قـال نعم ، قـال : فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ، ولا سباحة تغنيك؟ قال : نعم ، قـال : فهل تعلّق قلبك هنا لك أنّ شـيئا من الأشـياء قـادر على أن يخلّصك من ورطتـك؟ قـال : نعم ، قـال الصـادق (ع) : فذلك الشيء هو الله القـادر على الإنجـاء حيث لا منجي ، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث [1]

إذا أردت أن تعرف الله فـاركب الأهـوال ، وسـتعرف الله حيث لا ينفعك مـال ولا بنـون ، وحينها ينفتح أمامك باب المعرفة الإلهيّة ، وترى آثار رحمة الله.

[66] **(لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)**

ولقد أنعم ربنا على الإنسـان بنعمة العقل والفطـرة والبصيرة ، ولكن الإنسان يترك عقله إلى جهله ، وبصيرته إلى عماه ، وفطرته النقية إلى شهواته الشائبة.

والتمتع مجرد اثارة عاجلة لأعصاب الإنسان وشـهواته ، والمشكلة في الإنسان انه

(1) بحار الأنوار / ج 2 ص 41

يعتـبر المتعة هدفه في الحيـاة ، وهـذا الاعتقـاد نـاتج من الكفر بالقيم والغيب والروح ، والمتعة لا تتعدى بضع ثـوان يشـعر فيها الإنسـان بالسـعادة الوهمية ، ولكن لا يعلم انه يحتطب على ظهره وزرا ، ولذا جاء في الـدعاء : «**اللهم إني أعـــوذ بك من ذنـــوب ذهبت لـــذاتها وبقيت تبعاتها**».

وسـيعلم الكفـار يـوم القيامة فداحة الخطأ الكبـير ، حين فصـــلوا المتعة عن اطارها السـليم ، وفرّغوها من مضـــمونها الرفيع ، وجعلوها ممارســات حيوانية ، تهبط بالإنسان إلى حضيض الرذيلة والشقاء.

[67] (**أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَمـاً آمِنـاً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**)

ميزة القرآن انه يستخرج أمثلة من واقع الحياة لا من وهم وخيـال ، ولقد كـانت الجزيـرة العربية عـبر التـاريخ مسرحا واسعا للنهب والسلب ، وانتهاك الحقوق ، وتضييع الكرامـات ، حيث أصـبح الإنسـان لا يـأمن على نفسه ، أو ماله ، أو عرضه ، وحتى دينه ، وكان شعار العرب حينذاك السيف ، ودثارهم الخوف ، فمنّ الله عليهم بنعمة الأمـان والرّخـــاء والشـــبع ، وأنـــزل منهاجه لتنظيم العلاقـــات الاجتماعية والسياســية والاقتصـادية على أسس العــدل والحرية والتكامل وغيرها من مبـادئ الانسـانية الـتي لا يختلف عليها العقلاء ، ولا تختلف مع ســـمو تطلعـــات الإنسان وأهدافه.

(**أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ**)

فـوا عجبا للإنسـان على جهله وكفـره ، وهل هنـاك شيء أوضح من نعم الله على الإنسان لكي يكفر بها؟!

إن اتبـاع الهـوى ، والسـير وراء المصـالح والأهـداف الشخصية ، تحوّل الباطل إلى حقيقة ، والكفر بـالنعم إلى واجب شرعي.

[68] (**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ إِفْتَرى عَلَى اللهِ كَـذِباً أَوْ كَـذَّبَ بِـالْحَقِّ لَمَّا جـاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْـوىً لِلْكافِرِينَ**)

أكثر النـاس ظلما لنفسه وللآخـرين هو من ينبذ القيم الإلهية ، ويستبدلها بقيم بشرية شـيطانية ، وأخطر الكفـار من أنكر القيم ، وافـترى على الله الكـذب في أحكامه ، ولـذا كـان حد منكر الصـلاة القتل شـرعا ، فالـذي يـؤمن بالصـلاة ولا يقـوم بها قد توجد لديه قابلية القيـام بها في المستقبل ، أما الذي يكفر بها من الأساس ، ويضع لنفسه تشريعات مزاجية لا يجدي معه إلّا حدّ السيف.

ويكمن الخطر في هـذا الإنسـان حين يلبس الباطل أثواب الحقّ ، ويفيض على الباطل صبغة السمو والالوهية ، وعادة ما تكون دوافع الكفر نفسية كالكبر ، أو الغـرور ، أو ترسخ تقاليد الآبـاء في النفس ، ولكن هل يعتقد هـؤلاء إن جهنم لا تكفيهم جميعا؟! بلى .. إن بها مثوى للكـافرين والمتكـبرين منذ أن خلق ربنا آدم (ع) وإلى يـوم القيامة ، وليس ذلك على الله بعزيز.

[69] (**وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**)

ويقفز إلى واجهة التفكـير سـؤال : مـاذا نعمل لكي لا تتبدل قيمنا؟ وكيف نهتدي إلى السبيل القويم؟

تجيب هذه الآية الكريمة بأن شرط الهداية هو الجهـاد ، لأن الجهـاد يبعد الإنسـان عن حب الـذات والأنانيـات المقيتة ، وعند ما يكون الإنسان مجاهدا ، فان أبواب

العلم والمعرفة سـتكون مشـرعة أمامه ، وما عليه سـوى الجدّ والاجتهاد.

والإحسـان شـرط رئيسي في المحافظة على القيم ، لأنه يبعد الإنسـان عن اسـتغلال القيم لمصـالحه الخاصة ، بل يوجهها نحو خدمة الناس.

الفهرس

سور الشعراء

سورة النمل

سورة القصص